

قضايا وحوارات النهضة العربية «٢٣»

الإشراف الفني :
نهاد الخمو
الخطوط :
جدار الزلافة قصيبا ني

نظرية الشعر

١- مقدمة ترجمة اليازة

قضايا وحوارات النهضة العربية

« ٢٢ »

قضايا وحوارات النهضة العربية

نظريّات شعر

١- مقدّمة ترجمت الايكاذة

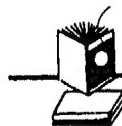
معربة نظماً وعليها شرح تاريخي أدبي
وهي مصدرة بمقدمة في هوميروس وشعره
وآداب اليونان والعرب
ومذيلة بمعجم عام وفهارس

سليمان البستاني

الطبعة الثالثة - ١٩٩٦

تحرير وتقديم :

محمد كامل الخطيب



منشورات وزارة الثقافة

في الجمهورية العربية السورية

دمشق ١٩٩٦

نظرية الشعر : مقدمة ترجمة الالباذة معربة نظماً وعليها شرح تاريخي أدبي
/ سليمان البستاني ؛ تحرير وتقديم محمد كامل الخطيب . - ط ٣ . -
دمشق: وزارة الثقافة ، ١٩٩٦ . - ٢٠٧ ص ؛ ٢٤ سم . -
(قضايا وحوارات النهضة العربية؛ ٢٣).

بأوله مقدمة في هوميروس وشعره وأدب اليونان ومذيلة بمعجم عام.

١- ٨٠٩١ ب س ت ن ٢- ٨٨٣٠٠٩ ب س ت ن ٣- العنوان
٤- البستاني ٥ - الخطيب ٦- السلسلة
مكتبة الأسد

الايداع القانوني : ع - ١٧٠ / ٢ / ١٩٩٦

تقديم

- ١ -

انت ترجمة الالياذة لسليمان البستاني، والصادرة في اللغة العربية للمرة الأولى عام ١٩٠٤ وكانها استدراك لنقص ثقافي عربي عمره أكثر من ألف عام على الأقل، ففي حين نقل المترجمون العرب في العصر العباسي كتاب الشعر، لأرسطو باكراً، فانهم لم ينقلوا «الشعر» الذي بنى عليه ارسطو كتابه او نظيراته، وبطبيعة الحال فقد كانت «الالياذة» إلى جانب الشعر التمثيلي اليوناني، من جملة التراث الشعري اليوناني الذي اعتمد ارسطو عليه في بناء نظريته في الشعر، والتي نقلت للعربية أكثر من مرة وشرحها أهم الفلاسفة امثال الفارابي وابن سينا وابن رشد.

لكن اهتمامنا هنا ليس متعلقاً بالالياذة تحديداً، أو بترجمتها، بل هو يتوجه نحو المقدمة النقدية كبيرة الأهمية والتي كتبها سليمان البستاني (١٨٥٦ - ١٩٢٥) مصدراً بها ترجمة الالياذة، والتي اداها البستاني شعرياً، مما جعل أكثر مقدمته يدور حول فن الشعر، وحول فهم البستاني لهذا الفن، ففي هذه المقدمة تكلم البستاني عن هوميروس وشعره والشعر اليوناني، وعن أسباب امتناع المترجمين العرب قديماً عن نقل هذا الشعر، وخصوصاً الالياذة، معيداً ذلك الى وثنية اليونان، والى اعتداد العرب بفنهم الشعري، وبعدها تكلم البستاني عن ترجمة الشعر، ثم بحث عن ملاحم شعرية عربية تقارب الالياذة، ثم قارن بين الأوزان الشعرية العربية واليونانية، وخلال ذلك تحدث عن الشعر العربي القديم ونظريته، ثم قارب الحديث عن الشعراء المحدثين في عهده.

قد تكون مقدمة ترجمة الالياذة لسليمان البستاني أول مسح شامل في العصر الحديث لنظرية الشعر العربي القديم، وبهذا فهي تمثل ماسمي بمدرسة الاحياء في فهم الشعر ونقده، اضافة الى كونها تدعو الى انفتاح الشعر العربي على «شعر» الثقافات الأخرى، أو تطعيم الشعر العربي بنوع شعري قديم موجود في الثقافات الأخرى، لكنه يكاد يكون مفقوداً في الثقافة العربية، وهما - المقدمة والترجمة - تلمحان بالتالي الى انه ما عاد ممكناً للشعر العربي الاكتفاء بنفسه، وان هناك شعراً لثقافات أخرى يجب أن تعرفه الثقافة العربية. شعراً ولغة، وان يدخل في نسيج ثقافتها وفنونها. وبالتالي فامتياز الشعر لم يعد مقتصرأ على العرب كما توهم القدماء. كما ان المقدمة تطرح قضايا ثقافية أخرى سيلاحظها القارئ في حينها.

- ٢ -

ولد سليمان البستاني في قرية «بكستين» اللبنانية، وتعلم في المدرسة الوطنية وهي مدرسة علمانية أنشأها بطرس البستاني عقب الفتنة الطائفية في بلاد الشام عام ١٨٦٠ وقد كان ناصيف اليازجي ويوسف الأسير، وهما علمان نهضويان، من جملة مدرسي البستاني، ثم مالث البستاني بعد أن كبر ان تنقل في البلاد العربية وأوروبا وأمريكا، وقد اطلع خلال تجواله على اصلاحات مدحت باشا في العراق، ومدحت باشا كما هو معروف أحد آباء الحرية والدستور في الدولة العثمانية، وله تأثير كبير في البلاد العربية. كما ان اصلاحاته معروفة في العراق وسوريا، ثم مالث البستاني ان عمل في التجارة ثم في المناصب السياسية والدبلوماسية حتى وصل الى «منصب وزير التجارة والزراعة» في حكومة الاتحاد والترقي عام ١٩١٣، لكنه مالث ان استقال احتجاجاً على دخول الدولة العثمانية

الحرب الى جانب المانيا، اذ كان يرى أن من الأفضل للدولة العثمانية ان تقف على الحياد في هذه الحرب، ويبدو أن رأيه كان الأفضل، وعلى كل حال فقد كان البستاني من أهم الدعاة للجامعة العثمانية والوطن العثماني الواحد، لكن بعد القيام بالاصلاحات الضرورية.

عن هذه الاصلاحات المطلوبة قدم سليمان البستاني كتابه البرنامجي الوثائقي كبير الأهمية (عبرة وذكرى: الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده ١٩٠٨) وقد كتبه البستاني كتحية للثائرين على السلطان عبد الحميد و«كمشروع برنامجي للاصلاح» فهل كان برنامج سليمان البستاني لاصلاح الثقافة العربية عموماً، والشعر العربي خصوصاً، عبر تطعيمه بالثقافة الأوروبية والشعر اليوناني وملحمته الخالدة بعداً آخر لمحاولة اصلاح الدولة العثمانية المستبدة عبر تطعيمها بالأفكار الأوروبية، افكار: الحرية والعدالة والمساواة؟ ذاك أمر نتركه للباحثين في شخصية سليمان البستاني وتراثه ككل، لكننا نكتفي هنا بتقديم مقدمة ترجمة سليمان البستاني الصادرة في القاهرة عام ١٩٠٤، ولا بد من أن التنويه هنا بأن الوسط الأدبي العربي قد احتفى بهذه الترجمة وقت صدورها، واقيم احتفال خاص بمناسبة صدور هذه الترجمة، ثم غاب ذكر البستاني وعمله الى ان اعادت احدى دور النشر اللبنانية تصوير واصدار هذه الترجمة، وفي طبعتنا هذه نكتفي بنشر مقدمة الترجمة نظراً لأهميتها في نظرية النقد العربي الحديث عموماً، ونظرية الشعر خصرصاً.

محمد كامل الخطيب

١٩٩٤

إهداء الكتاب



خطار ساوم نادر البستاني

(١٨٨٦ - ١٨٣٠)

إليك يا والدي أهدي كتابي هذا فأنت أولى به من كل حيٍّ
وميت . وما هو الا ذرة من فضلك وجزء من عنايتك ببنك وتقائك
بنفع ذويك وبني جلدتك . فان عجزت عن اداء واجب الوفاء بحياتك
فلا اقل من أن أشهد الملا على عرفاني جميلك وانت في عالم الارواح



زِيَاةُ الْكِتَابِ

هذه إلیاذه هومبروس ازفها إلى قراء الریة شعراً عربياً . ولقد استنفدت وسمی فی نظمها وإلحاما راجياً أن تكون مُحْكَمَة التعرِيب خلیة من شوائب اللُکنة والبُجْنة وقد صدرتها بمقدمة أتیت فیها علی سیرة صاحب الایاذه واشرتُ إلى منظوماته ومزله عند القدماء وراي المتأخرین فیه واقوال العرب فی شعره . - وبجئت فی الایاذه وموضوعها وطرقُ تناقلها قبل الكتابة ثم فی جمعها وکتابتها وسلامتها من التعریف مع ما فیها من قلیل الدخیل والساقط والمکرر والمُغلق . وأتیت علی تحلیلها وتشریحها وبسط ما فیها من الفائدة للأدب والتاریخ وسائر العلوم والفنون والصنائع . وأوضحت ماکان من الأسباب الداعية فی صدر الاسلام إلى إغفال العرب نقلها إلى لغتهم . - وتطرقت إلى التعرِيب فقصصت حکایة المرّب فی وضع هذا الکتاب . وذكرت مناهج العرب فی نقل الکتاب الأعجمية والطرق التي یجدر بالنقاة التمويل علیها . وسأفنی ذلك إلى النظر فی التعرِيب الشعري ثم إلى النظم علی الاطلاق وأوزان الشعر وقوافیه ووقع کلّ منها فی معانیه . وجوازاات الشعر من مأنوسٍ ومکروهٍ إلى غیر ذلك ما یُمدُّ من خصائص هذه الصّناعة . - وانتقلت إلى المقارنة بین الایاذه والشعر العربي . فوطأتُ لذلك بالشعر القديم وأصله وسبب

طُوسِهِ وَمُنَاشِدَاتِ سَوْقِ عُكَاظٍ وَشَأْنِ لُغَةِ قُرَيْشٍ فِيهَا وَفَضْلِ الْقُرْآنِ
 فِي جَمْعِ اشْتَاتِ اللُّغَةِ وَتَوْحِيدِهَا وَإِحْكَامِ بِلَاغَتِهَا فِي النِّظْمِ وَالْإِنْشَاءِ .
 وَقَابَلَتْ بَيْنَ لُغَةِ قُرَيْشٍ الْمُضَرِّيَّةِ وَلُغَةِ الْإِلْيَاذَةِ الْيُونَنِيَّةِ . وَفَصَّلَتْ أَطْوَارَ
 الشُّعْرِ الْعَرَبِيِّ مِمَّا بَيْنَ طَبَقَاتِ الشُّعْرَاءِ مِنْ عَهْدِ الْجَاهِلِيَّيْنِ حَتَّى يَوْمِنَا .
 وَأَثْبَتَتْ مَزَايَا كُلِّ طَبَقَةٍ مِنْهَا مَعَ تَعْيِينِ مَدَّتِهَا وَأَسْمَاءِ فَحُولِهَا وَإِيرَادِ
 مَا اتَّسَعَ لَهُ الْمَقَامُ مِنْ تَقْيِيسِ شُعْرِهِمْ . ثُمَّ أَشْرَتْ إِلَى مَغَاظِرِ الشُّعْرِ الْعَرَبِيِّ
 وَمَنَاجِجِ الْمُؤَلِّدِينَ فِي أَبْوَابِ الشُّعْرِ وَفَنُونِهِ وَأَسَالِيهِ وَعُلُومِ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ
 وَتَارِيخِهَا . وَانْتَهَيْتِ إِلَى أَسْبَابِ الضَّمْفِ وَالْإِنْخِطَاطِ فِي شُعْرِ الْمُحَدِّثِينَ
 وَجَنُوحِ النُّوَابِغِ مِنْ أَبْنَاءِ هَذَا الْمِصْرِ إِلَى سَدِّ الْحُلَلِ وَتَعْدِيلِ الْخَطِّ .
 وَأَفْرَدَتْ بَابًا لِلْمَلَا حِمٍّ أَوْ مَنْظُومَاتِ الشُّعْرِ الْقَصَصِيِّ مَا يَمَائِلُ الْإِلْيَاذَةَ
 فَأَشْرَتْ إِلَى ضُرُوبِ الشُّعْرِ عِنْدَ الْإِفْرَنْجِ وَقَابَلَتْ بَيْنَ مَلَا حِمِّ الْأَعَا جِمِ
 وَالْمَلَا حِمِّ الْعَرَبِيِّ مِنَ الشُّعْرِ الْجَاهِلِيِّ وَجَمْهَرَةِ أَشْعَارِ الْعَرَبِ . وَاسْتَطَرَدَّتْ
 مِنْ ذَلِكَ إِلَى الْقَاءِ نَظَرَةٍ عَلَى الْجَاهِلِيَّتَيْنِ جَاهِلِيَّةِ الْعَرَبِ وَجَاهِلِيَّةِ الْيُونَانِ
 ثُمَّ إِلَى مَلَا حِمِّ الْمُؤَلِّدِينَ . وَرَجَعَتْ بَعْدَ هَذَا إِلَى الْحَقِيقَةِ وَالْمَجَازِ وَمَا يُلِصِقُ
 بِالْمَعَانِي الشُّعْرِيَّةِ مِنَ التَّشْبِيهِ وَالْكُنْيَاةِ وَالِاسْتِعَارَةِ وَالبِدِيَّاتِ وَمَا يَنْتَابِهَا
 مِنَ النُّقْلِ وَالسَّرْقَةِ وَتَوَارِدِ الْخَاطِرِ وَمَا قَدْ يَطْرَأُ عَلَيْهَا مِنَ التَّنْفِيرِ بِفَعْلٍ
 الْحَضَارَةِ . وَأَلَمَّتْ إِلَى مَسَالِكِ الْأَعَا جِمِ فِي ذَلِكَ مَبِينًا مَزِيَّةَ الْعَرَبِيِّ
 عَلَى لُغَاتِهِمْ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ . - وَذِيلَتِ الْمَقْدَمَةُ بِخَاتَمَةٍ فِي الشُّعْرِ
 وَاللُّغَةِ عَارَضَتْ فِيهَا بَيْنَ الْعَرَبِيِّ وَالْيُونَانِيَّةِ وَبَحِثَتْ فِي اتِّسَاعِ الْعَرَبِيَّةِ وَثَرَوَتِهَا



القديمة وكثرة مترادفاتهما وتمدد المعاني فيها للفظ الواحد مع ايضاح فائدة ذلك وضرره وايراد اسباب الضعف في تأدية ما استحدث من المعاني المصرية . واشترت الى نهج العرب بالتوسيع في اللغة والاصطلاح . وختمت بخلاصة موجزة في ما تراءى لي من الداء والدواء والنهضة الحديثة ومستقبل اللغة والشعر

وقد علقت على الكتاب شرحاً توخيت فيه الفائدة والفائدة . ورصته بزهاء ألف بيت مما قاله العرب في مثل معاني الايالة او حوادثها . وضمنته كل ما تجدر معرفته من إطلاق الامة العربية « في جاهليتها وبدوتها وحضارتها والمشهور من اساطيرها وعباداتها والمأثور من آدابها وعاداتها ومناهج شعرائها وادبائها ومواقف ملوكها وامرائها وساستها وزعمائها » الى غير ما هنالك مما اوضحته في باب حكاية العرب (ص : ١٢)

وقد مثلت المتن الشعري مطبوعاً بالشكل الكامل واودعت الشرح كثيراً من رسوم الآلهة وغيرهم مما يحسن الاطلاع عليه واضفت فهرساً لتلك الرسوم وآخر للقوافي ومجماً للالفاظ اللغوية ومجمين آخرين لجميع مواد الكتاب من اعلام وتاريخ وعلم وصناعة وخلق وعادة وهلم جرا

تلك هي على الجملة محتويات الكتاب « فان أحسنت وفيه منتهى جهدي فذلك من حسنات الاجتهاد والا فحسبي ان افتحه باباً يابجه من وفقه الله الى سبيل السداد »



هومیروس

هوميروس

اسمه ولقبه

اختلف المؤرخون في اسم صاحب الـإلياذة ولكنهم متفقون على ان «هوميروس» لقبه لقب به لامر جلال تحال حياته فعرف به وأهمل اسمه على نحو ما اتفق لكثيرين . من شعرائنا الذين غلبت قابهم وكنام على اسمائهم كعارفة ابن العبد والشماع والنابعة والفرزدق والاخلط والمثنبي وإبي العلاء . ولكتاب اقوال مختلفة في ذلك اللقب نظير ما لكتابنا من المذاهب المتضاربة في اصل تلك الالقاب والكنى . ولهذا حاموا حول اللفظة اليونانية وجعلوا يستنبطون من معانيها ما شاؤوا فوضعوا لكل معنى يستخرج منها حديثاً مما يمكن وقوعه لشاعرنا . فمن قائل انه لما كانت كلمة هوميروس (ομηρος) بمعنى الرهينة غلب عليه هذا اللقب لوقوعه اسيراً في حرب فكان من جملة الرهائن . على ان الداهيين هذا المذهب ليسوا على بينة من تلك الحرب . فمنهم من يجعلها بين ازير وسافس وهو مذهب فروكلوس وعنده ان الشاعر اعقل في سافس . ومنهم من يقول بل أخذ الى كولوفون . وقال آخرون بل وقع اسيراً في قبضة الفرس . ومن قائل ان اللفظة منحوتة من كلمتي (ομωσπεσις) ومعناها « المتكلم في المجلس » اي الخطيب او المشير وهو قول سويداس وكل ما يستخرج من هذا تحت يصح ان يتفق لصاحبنا . ومن قائل انها مشتقة من لفظة (ομπεσις) بمعنى التابع او اللاحق اخذاً من قول فلوطرخوس انه لحق بالليديين من مدينة ازير . وهناك اقوال اخرى اجدها بالذكريول هيرودوتس وايغوروس ان اللفظة مركبة من ثلاث كلمات (ομν ορων) بمعنى الكفيف البصر وهو تخريج حسن يصح التعويل عليه لانه لم يثبت في الاثر شيء مما يؤيد الاقوال السابقة ولكنه ثابت ان بصره كفف وهو لم يكد يتجاوز سن الشباب وقد اشار الى ذلك

في ايات من منظومته « الاوديسية » . وفي مُعْجَم الكسندر « ان لفظة هوميروس مفردة كان يراد بها « الاعمى » في مدينة كومة وبها لُقِب الشاعر »
 واما اسمه فأشهر ما قيل فيه انه كان ميونيدس اي ابن ميون لان ميون ملك ليدبا تزوج امه كريتيس والطفل على يدها فدعاه باسمه وهو يعتقد ان ابا ذلك الطفل من الجن . وقيل بل كان والد هوميروس داماسوغوراس والدته أثرا ومسقط رأسه مصر . وقيل بل كان اسم هوميروس ميليجينيس وهي رواية هيرودوتس وعليها المعول كما سيحي.

نَسْبُهُ

لا يُعلم شيء ثبت عن نسب هوميروس وحسبه . وان لدينا مما استبقاه المنقذمون اقوالاً متباينة لا يمكن الاخذ بشيء منها . وصفوة ما عول عليه الكتبة منها سيران كتيبها هيرودوتس وفلوطرخوس ثم وجد المتأخرون بعد التحيص انهما لا يتخلوان من تناقض يوذي الى الظن انهما لُفقتا بعد حين كقول هيرودوتس ان هوميروس نبغ في القرن السابع اي قبل حملة الفرس الكبرى على بلاد اليونان وقوله في تاريخه ان هوميروس تقدمه باربعائة سنة مع انه كان يدون بنفسه سيرتلك الغزوة تدوين الشاهد الحي . وليس في ما بين ايدينا من منظوم هوميروس ما يشير الى أسرته وعيترته مع انه كان احرص الناس على تدوين الانساب كما يتضح لمن يتصفح الايلاذة . ولا اخاله الا آتياً على تلك النسبة في شيء مما فُقد من شعره اذ ليس في محفوظ اشعاره ذكر لايه . واما امه فيزعم بعض الشراح انها هي المعنية بقوله في الشيد الثاني عشر (ص : ٦٨٩)

كراًة عالت الاطفال عادلة قد امسكت عود ميزان تعادله
 لا تجسر الصوف مثقالاً تضن به ...

وعلى هذا فلا يمكن استخلاص شيء من كُتبه عن نسبه . وجميع ما لدينا

من رواية السلف عنه لا يتجاوز حد الحديث ولا سيما ان شهرته النامية ومنزلته السامية حببتا الى كتبة كل قبيلة من اليونان ان تدعيه فتنازعنه مدائنهم واتي كل منهن ببرهان . واشهر تلك المدائن ثمان وهي ازبهر وسلاميس (وتدعى اليوم كولوري) ويوس (نيو) ورودس وخبوس (ساقس) وكولوفون وارغوس واثينا . ولعله اقام زمنا في كل منهن واخلف فيها اثرا من شعره فكان داعيا الى تلك الدعوى . وان رجلا هذا شأنه لا بدع ان يدعيه كل فريق من قومه بعد ان ادعاه الاجانب . فقد ذكر استاثيوس رواية اسندها الى اسكندر بافيوس زعم فيها ان هوميروس ولد في مصر قال : « كان ابوه يدعى داماساغوراس وامه اثرا فلما ولد عنيت بتربيته نية من ولد اوروس الكاهن وكان يتحلب الشهد من ثديها الى فم الطفل فكان اذا اقبل الليل بتغنى بصوت كهوت تسعة من الطير مختلفة الاجناس واذا لاح الفجر يصبح . وهو بلاعب تسعا من الورق . واوعز الى ابيه ان يبني هيكلا للقيان منشدات السماء فبناء ونص الخبر على ابنه لما بلغ اشداه فكانت تهيج ذكرى الحمام وترنم به في شعره »
ومعا يكن من الخطب في تلك الاقاويل فانما تتبع الطريق الاعظم من الكتبة في التحويل على النسبة التي كتبها هيرودوتس واليك مجملها :

مولده ونشوءه

هو ابن كريثيس ابنة ميلانوفوس ولدته امه على ضفة نهر ميليس في ضاحية ازميز ودعته مهابيجينيس اي ابن النهر ميليس . وكان في ازميز اذ ذاك معلم كتاب يدعى فييوس فاستأجرها لغزل الصوف الذي كان يتقاضاه اجرة من تلامذته . وكانت كريثيس صناع اليدين ذات رجاحة وسكينة فأعجب بها فييوس وخطبها لنفسه . وما زال يمنيها بالوعود حتى اجابته الى طلبه . وكان جل ما استأله به قوله لها انه توسم في الغلام من الفطنة والذكاء ما جعله واثقا انه سيكون نابغة عصره اذا عهد اليه بتربيته فاذا رضيت به بعلا لها فهو يتبني

ابنها ويعكف على تهذيبه ولثقافته . وبرّ فييوس بوعده فعني به فاذا به قد فاق جميع اقرانه ثم ما انقضت بضعة اعوام الا وهو يكاد يظهر على استاذة

مدرسته

وتوفي فييوس ولا وارث له الا هوميروس ثم ما لبثت ان توفيت كربينس نجلت المدرسة لهوميروس فأقام مقام استاذة فأعجب به بنوازمير وطارث شهرته فتصده الداني والقاصي واصبح نجلسه ديوان الادب وكعبة الحكمة . وكانت ازميز لذلك العهد معطاً لرحال التجار تُستورد اليها الحبوب من تلك البقاع الخصبه فتتار منها المدن المجاورة . فأصبح الغريب القادم اليها اذا فرغ من عمله او سخط له فرصة يهرع الى مجلس الاستاذ الفقى ليلتقط درر حكمته . ومن كان يختلف اليه ربان سفينة من ذوي العلم والدهاء اسمه منتس يحمل الحبوب الى ازميز من لوقاديا تُشغف بمحدث مهابسينيس وجعل يحسن له الاسفار ويزين له مشاهدة الامصار وهو في عنفوان الصبا قبل ان بدركه العجز ليزداد حكمةً واطلاً وعده ان يحمله على سفينته فتحبذه خدناً عزيزاً وإلفاً كريماً وما زال به حتى حمله على مغادرة المدرسة والتدريس والحاق به رحالة على متن البحار

أسفاره

وكان مهابسينيس شديد المراقبة كثير البحث لا يقع بصره على شيء الا تحراه ولا طرق مسمعه خبر الا استجلاه فطالت الرحلة وهو في اثنائها يخترن الفوائد ويجمع الاخبار حتى انتهى به التطواف الى ايبيريا (اسبانيا) واقلعت منها السفينة الى ازميز فمرّجت على ايثاكة (ثياكي) في الارخبيل اليوناني وهناك رمدت عينا مهابسينيس فاضطر منتس على كرو منه ان يستبقه فيها لدى صديق له حميم من اهل تلك الجزيرة يدعى منظور . فأنزله منظور في داره وكان مضيافاً طيب العنصر رحب الصدر كريم الخلق ليس في بلاده من بضاهيه شهرة بتلك الخلال

ولم تكن العلة لتتبع الفقى من البحث والتحري فظل وهو على فراش المرض يلتقط شوارد الفوائد ومن جملتها اخبار اوديس (اوديسس) واسفاره (فكانت له اساساً بنى عليه منظومته الاوديسية وجعل فيها اسم منظور مرادفاً للحكمة والبر فخلد بها ذكره ابد الدهر)

وبقي ملبسجينيس نزبل منظور الى ان عاد الربان منتس الى ايشاكة فانزله الى سفينه واستأنفا الاسفار الى ان بلغا كولوفون فاشد عليه الرمد حتى فقد بصره جملة وظل كفيفاً الى ان مات

شروعه في قرص الشعر

ولما كُفَّ بصره قصد ازمبر واقام فيها زمناً ينظم الشعر فضافت ذات يده وبرحت به الحاجة فعول على الشفوص الى كومة وسار يقطع هرؤس (وهو نهر كديز او سرابات) الى ان بلغ به السير الى نيوتنخوس وهي بلدة من مستعمرات الكوميين . قيل انه وقف فيها الى حانوت تاجر جلد فأشد اياتاً شكا فيها بؤس الغريب الشريد المتضور فاقة وجوعاً وكان ذلك اول عهده بالانشاد على مسمع الناس . فأصابت تلك الايات موضع رفق وعطف من فؤاد ذلك التاجر فرحب به وآواه اليه لجلس في الحانوت وانشد على مسمع جماعة من حضر مقاطيع من شعره في وصف حملة اميناروس على ثيبة وبضع ترانيم دينية . فأجله القوم واكرموا مثواه فأقام بينهم وصناعه الانشاد .

قال هيرودوتس : « ولا يزال اهل تلك البلدة حتى يومنا يفخرون بالاشارة الى المجلس الذي كلن يتنابه فينشد فيه ولذلك الموضع عندهم حرمة ومنزلة سامية وفيه شجرة صفصاف يزعمون انها زُرعت يوم قدم ملبسجينيس فأقام بين ظهرانهم »

تمة اسفاره

اقام الشاعر بضعة اعوام في نيوتنخوس ثم قل رزقه فيها فبرحها الى كومة

وقصد الموضع الذي كان يجتمع فيه تجلس الشيوخ وانشد ما تيسر فابصر الحضور
 طرباً قطابت نفسه وعظمت امانته فسألم ان يقوموا بنفقته على ان يقول فيهم
 من الشعر ما يُطير شهرة مدبنتهم في الافاق ويخلد لها جيل الذكر فلم يكن في
 من حضر الا من استصوب السؤال واوعزوا اليه ان يقول قوله هذا في المجلس
 وهو ملتئم وهم من ورائه يعضدون . فعمل باشارتهم ولما اجتمع الشيوخ ادخل الى
 قاعة الاجتماع فانصب خطيباً واعاد الكلام الذي القاه على عامة الناس وخرج
 ينتظر الجواب . فغلبوا الى شوراى وكان معظمهم ممن يرغب في مرافقته فاذا
 بواحدٍ منهم قد قام فاعترض وقال لئن جئنا الى القيام بنفقات عيين الشعراء
 لثلقين على عوائقنا زُراً منهم لا يقبل لنا بهم . فأدعى بهم ذلك ان الانقلاب
 عن عزيمتهم

ومن ثم لقب ميلسيجينيس بهوميروس ومعناها اعمى بلغة الكوبيين وتوسى
 اسمه . فنقم هوميروس على كومة واهلها ونظم قصيدة رثى بها حانه واستنزل
 اللعنة على من يفتنى بهدحها ومدحهم من الشعراء وغادرها الى فوق على مقربة
 من ازوير وجعل يطرق منتدياتها فينشد فيها الاشعار

وكان في تلك البلدة معلم كُتَّاب ذمهم الخلق يسمى ثستوريدس . فلما
 رأى ما كان من رواج بضاعة الشعر دعاه الى منزله يقيم فيه ضيفاً كريماً على
 ان يلقنه كل ما نظم وما سينظم من الشعر فسا وسع هوميروس لا القبول
 فراراً من الفقر . فأكب ثستوريدس على النسخ حتى استتم كل منظومات
 هوميروس فأقفل ابواب مدرسته وسار الى جزيرة ساقس واقام فيه . فنشد شعر
 نزيله ويدرأه . فبلغ هوميروس امره فعزم على تعقبه ولم يبال بما تنرضه من
 المشاق فوصل الجزيرة بعد معاناة الاهوال ونزل في بلدة من ثم دعا تدعى
 يوليسوس فاتخذها بعض وجهائها معلماً لاولاده فأقام عنده وعكف على نظم الشعر
 ثم اذاع منظومات خلابة « كحرب الزراير » و « حرب الضفادع » لفيرن «
 و « الكركوفة » فتناشدها الناس وتناقلها الركبان . وكان ثستوريدس قد علم بجعلول

هوميروس في مكان فرّ منه الى مكان آخر.

ولما رست شجرة هوميروس في ثغور الجزيرة سأل صاحب منزله ان يذهب به الى عامتها فشنّص اليها وفتح مدرسة يعلم فيها النظم وطرائقه فعظم امره وعلت منزلته واكبر الناس قدره فطاب عيشه واتسعت حاله بينهم . فازوجوه بنتاً فولدت له ابنتين . وجادت قريحته فنظم وابدع وكان وفياً ذكّاراً للجميل فأودع شعره كل خلّة محمودة خلّدها ذكر المحسنين اليه ولا سيما منظور الذي عني به اثناء رمده في ايشاكة . قال هيرودوتس « جعل هوميروس منظور في منظومته الاوديسية رفيقاً لاوديس وابرز به يظهر من الصدق والوفاء عظيم حتى ان ملك ايشاكة استخلفه على بيته وعياله عند ما شنّص في من شخص الى طروادة »

فلهج الناس في كل قطر بذكر هوميروس حتى ملأت شهرته بلاد يونيا وبلغت هيلادة فأوعز اليه ان يقصد اغريقيا فطرب لذلك الایماز فأقلع الى ساموس وقضى فيها فصل الشتاء بتكسب بالانشاد في منازل الاغنياء

مرضه ووفاته

ولما انقضى الشتاء عوّل على السفر الى اثينا فركب سفينة مع جماعة من اهل ساموس فبلغوا جزيرة يوس وارسوا في مضيق على مقربة من الثغر ففاجأ هوميروس الداء فنزل الى البر وانطرح على الجرف . ولم تقو السفينة على مواصلة السير لشدة الانواء فأقاموا اياماً في مكانهم واهل الجزيرة بتهافتون افوانجاً لمحادثة هوميروس وقد بلغ بهم الاعجاب منتهاه لما كان يثر عليهم من غرر الانوال ودرر الامثال . ولكنه مالبث ان توفي لاشتداد الداء فاجتمع رفاقه واهل الجزيرة ودفنوه قرب الشاطئ

ولما مرّت السنون وذوت نضارة الشعر وانحطت منزلته اجتمع اهل الجزيرة الى قبر هوميروس فنقشوا عليه بيتين من الشعر معناها : ان من هذا النبات

الاخضر غطاء للرأس المقدس رأس الشاعر هوميروس شبيه الالهة الذي كان يتغنى بمدح الملوك والابطال

فذلكة ما تقدم

تلك خلاصة ترجمة هوميروس بنص هيرودوتس . وهي وان كانت لجلايتها وصراحتها وتقدم عهدا احرى بالثقة مما سواها فانها لم تخلُ من مظان اعتراض رماها بها المتقدمون فضلا عن المتأخرين . ولكن جل ما يعترض به مقصور على العرض لا يكاد يتناول الجوهر بشيء . قال هيرودوتس ان تسشوريدس عكف على نسخ منظوم هوميروس مع انه لم يثبت قط ان اليونان كتبوا لعهد هوميروس لان الحروف الفينيقية لم تشع عندهم الا بعد حين . على ان هذا القول لا يثبت باساس الرواية اذ المراد اثبات ان تسشوريدس كان سارقا فسيان اذا ان يكون ناسخا او مستظهرا . وزعم بعضهم ان تلك السيرة كتبت بعد زمن هيرودوتس وعُزيت اليه . فعلى فرض ثبوت هذا الزعم فلا ريب انها كتبت بيد خبير نسبتهما الى هيرودوتس لا تنقض حقائقها . واما اغفال هيرودوتس امورا مما أثر عن هوميروس كرحلته الى مصر وما اشبه فليس مما يفسد الحوادث التي اثبتتها اذ قلما تجد مترجما او مؤرخا يلم باحوال مترجمه واعماله بكلياتها وجزئياتها . بل ربما حصل التفاوت في نصوص كتبة الوحي والمحدثين . فان في كل من الاناجيل شيئا مما أغفل في غيره وما كان ذلك لينقض شيئا من الحقائق المسطرة فيه ويقال مثل ذلك في السير النبوية والاحاديث

وحاصل القول انه كان للقديما مزاعم كثيرة في هوميروس مما اسند الى السلف وتنوّل بالتواتر او استنبط من فقرات من أناشيده . ولقد أوغل بعضهم في البحث او الاستنباط حتى وضع سلسلة نسبة رواها سويداس وغيره تصل من أفلون الى كريتيس والدة هوميروس . قالوا : كانت كريتيس ابنة ميون بن فرسيس وفوقهم هذا ابنة افلون . وكان فرسيس اخا هسيودس الشاعر وكلاهما من ولد

ذيرس بن مينافس بن ايفراذس بن اوفيس بن فيلو ترزس بن هومونيدس بن ارفيوس بن واغروس من القينة قلوبه . وكان واغروس ابناً لفيروس من الحوراء ميثونة . وفيروس ابناً للينوس الشاعر . و لينوس هذا من ولد افلون وثووسة ابنة فوسيد — تلك نسبة لا يثبت منها مع ما هو متواتر من اقوال المتقدمين الا ان اسم والدة هوميروس كان كرتيس ولا علم لهم بأبيه . ولعل هوميروس نفسه لم يكن يعرف اياه وهو شأن كثيرين من نوابغ العصر الخالية ومن جملتهم فرجيليوس نابغة شعراء اللاتين . اما سائر حلقات السلسلة فاذا استجلي كنهها اتضح منه انه يرمى به الى اعظام قدر الشاعر والصاقه بأعلى نسب يُفتخر به ووصفه بأجل وصف يزين عظام الرجال . فإني تلك السلسلة الا الشاعر والحكيم والملوك والعظيم فضلاً عن الآلهة كأفلون صاحب القيثارة وفوسيد رب البحار والمطربات القيان والحور الحسان . واذا أضفنا الى ذلك معاني سائر الاسماء كهوميونيدس من رقة النعم وحسن الايقاع وفيلوتريس من حب السرور وايفراذس من الذكاء وفوكيذا من الحكمة علما ان واضع تلك السلسلة رعى بها مرمى الاقدمين من التعبير عن الحقيقة بالرمز واللفظ وتجميع الصفات . فكأنه قال تلك هي اوصاف هوميروس الشاعر الحكيم المطرب العظيم الرحالة الفهامة والمؤرخ العلامة الى آخر ما هنالك من صفات الاجلال والتبجيل

واما سائر الروايات المخالفة لترجمة هيرودوتس فأكثره موضوع لا سباب قد يمكن استجلاء بعضها بالتحري والمقابلة . ولتجند مثلاً على ذلك زعم بعضهم انه وُلد في مصر . فاذا علما ان مصر كانت لذلك العهد . ورد العلم ومنهل الحكمة ومحط ركاب الطلبة من كل فجٍ سحيق وعرفنا ان رجلاً كهوميروس لا بد من ان يحثه الشوق اليها فيقيم فيها زمناً طويلاً ويخالط عامتها وسوقتها فيختبر الخلق والمادة ويتصل بالكهان والاحبار فيدّخر ويستفيد . وثبتت لدينا صحة ذلك من كثرة ما اخذ عن المصريين مما نهينا عليه في مواضعه . ورأيتاه تافيت القدماء على اتحال نسبة هوميروس اليهم . اذا تبيناً كل هذا ذهبت عنا غربة هذا الزعم .

ثم اذا تطرقنا الى النظر في قولم انه ربي في حجر بنت عظيم الكهنة على ما تقدم فلا يصعب علينا ان نرى في تلك الرواية تحريفًا للنص التوراة في نشأة موسى الحكيم . وكمن رواية على هذه الشاكلة وضعت لنبي أو عظيم فنقلت فُسبت الي غيره في كل بلاد الله وتغيرت الاسماء وتحولت الاجريبات الى ما يلائم المكان والزمان والاصل واحد

فلا غرابة بعد هذا في تشعب الاقوال عن شاعر يلجج الناس بذكره منذ نحو ثلاثين قرناً وأن لتباين المزام في اسمه ولقبه ونشأته واسرته وسيرته في صباه وشيخوخته . فاذا وُلد اختلفوا في ابيه . واذا دبّ اختلفوا في ربيه . واذا شب تنازعته الامصار . واذا شرع في السياحة قالوا رجل فقيراً على نفقة غيره او غنياً على نفقة نفسه . واذا اُنشد الشعر ذهب فريق الى انه اُنشده مترنماً تغسباً كأمريء القيس وعبد يغوث في الجاهلية وابن المعز وابي فراس في الاسلام وقال الاكثرون بل تغنى به مستجدياً مكتسباً كرهير ولييد والحطيئة ومتني المشرق ابي الطيب ومتني المغرب ابن هاني . وهكذا ظنوا يقولون في مناحي حياته الى ان تناولوه ميتاً فأماته بعضهم كدماً ميتة فنحنينا سيويه . قالوا كان شاخصاً الى ثيبة فخرج على يوس واذا بفتية يصطادون سمكاً فسألهم عن مقدار صيدهم فقالوا : « افلننا بعدد ما امسكنا واصطدنا بعدد ما لم نصطد » فأغلق عليه فهم المراد وعظم عليه الامر فمات قهراً

والخلاصة ان الترجمة المزورة الى هيرودوتس هي لدى التحقيق اصدق ما كُتب عن سيرة حياته . وليس في ما كتبه ارسطوطاليس واسطرابون ما يندب عنها كثيراً . واما المدن اليونانية التي ادعته فلكتير منهم نصيب من صحة الدعوى . قال غينيوني مقدمة مجمم هوميروس لثيل وهاليزداروس^(١) : احق البلاد بهوميروس ازمبر باعتبار مولده وصباه وكومة باعتبار شروعه في فرض الشروساقس باعتبار نبوغه في النظم ويوس بالنظر الى بقاء رفاته فيها

(1) Guignaut. Dict. d'Homère et des Homérides par N. Theil et Hipp. Halletz-d'Arros. Paris 1844.

تاريخ ظهوره

للمؤرخين أقوالٌ مختلفة في تعيين الزمن الذي ظهر فيه شيخ الشعراء . وهي تتراوح بين بدء القرن الثاني عشر والقرن السابع قبل الميلاد . ورواية هيرودوتس القائل ان هوميروس تقدمه بأربعمائة سنة ما زالت اجدرهن جميعاً بالثقة لانطباقها على منقول الثقاة من قدماء المؤرخين والاثار المتصل اليهم بالتواتر . فلي هذا يكون نبوغ هوميروس في منتهى القرن العاشر او بدء التاسع قبل الميلاد او نحو سنة ٩٠٠ لان مولد هيرودوتس كان في اوليات القرن الخامس ق م . يؤيد ذلك أ . ان مؤرخي الرومان مجمعون على ان هوميروس نبغ قبل بناء رومية بقرن ونصف فاذا اضفنا ذلك الى ٧٥٣ وهي السنة التي بنيت فيها رومية كان نبوغ هوميروس نحو سنة ٩٠٣ ق م — ٢ . ان من مرويات شيشرون الروماني ان هوميروس كان معاصراً ليكرغس الشارع اللقديموني وقد أبد اسطرابون تلك الرواية وقال ان ليكرغس قصد ساقس طمعاً بمجادنة هوميروس والاخذ عنه وعهد ليكرغس بين القرنين التاسع والعاشر . ولا يبرح تلك الرواية قول فلوطرخوس الذاهب الى ان ليكرغس انما اخذ شعر هوميروس عن حفيد الشاعر فقد يمكن ان يكون ذلك في حياة الشاعر او بعدها بقليل — ٣ . يؤخذ من الانساب المنقولة على قطع المرمز التي وجدت في اوائل القرن السابع عشر في جزيرة فاروس في الارخبيل الرومي والمحفوطة في مكتبة اكسفورد ان هوميروس كان حياً سنة ٩٠٧ ق م . ولا غرو ان تكون تلك النقوش موضع ثقة لانها كتبت باعثناء حكومة اثينا ودقنت فيها اشهر حوادث اليونان من سنة ١٥٨٢ الى ٢٦٣ ق م .

فاذا ثبت لدينا ان نبوغ هوميروس كان في أخريات القرن العاشر رجح في الظن ان بينه وبين دمار اليون التي سمي الالباذة باسمها نحواً من اربعمئة سنة وانه كان معاصراً لاحاب ملك اسرائيل وسوا ثاني ملوك الدولة الخامسة والعشرين

في مصر . وكل من مصر وفلسطين في ذلك الحين كان في معامع الاضطراب والانقلاب كما كانت بلاد اليونان في ابان سكونها بعد ان ماجت بالجالية المتدفقة اليها تدفق السيل وهو ولا ريب زمن احتكاك الافكار وانفجار القرائح بنفيس الاشعار

منزلته عند القدماء

قال اسطرابون (في الكتاب الاول والفصل الثاني من جغرافيته) اذا قيل الشاعر عني به هوميروس . وقد لقيه في اول صفحة من الكتاب المذكور بالفيلسوف ووضعه في مقدمة الجغرافيين . وقال في موضع آخر ان رائد هوميروس انما كان الحقيقة واما الخيال فانما اتخذ حلية وشى بها شعره فبهر بها النواظر فعلقت بها الخواطر وهذا هو السر في شغف ناشئة اليونان كافة بمطالعة شعره (١) وقال في وصف ازميز ان من خططها ما يدعى بالهومير يوم وفيه هيكل ونُصب لهوميروس . والازميز بين اعجاب به لا يفوقه اعجاب ولهذا صكوا نقوداً صغيرة يتداولونها وعليها اسمه ورسمه (٢)



الهومير ويوم او هيكل هوميروس

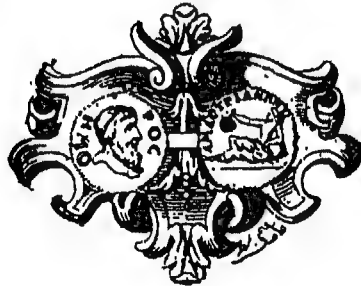
(١) اسطرابون كتاب ١ فصل ٢

(٢) اسطرابون كتاب ١٤ فصل ١

وان في مؤلفات هيرودوتس وفلوطرخوس وبلينيوس وشيشرون وسائر مؤرخي اليونان والرومان ممن نبغ قبل اسطرابون وبعده ما يؤيد كلام اسطرابون او يربو عليه . وقد روى سيمونيدس وتيوكريدس ان اهالي ساقس شادوا له معبداً وعبدوه وتداولوا نقوده كما فعل اهل ازميز . وزعموا ان الطائفة المعروفة بالهوميرية انما كانت من نسله قالوا ذلك تأييداً لدعواهم فيه كما قال غيرهم بل هي طائفة من الشعراء تحدت هوميروس في النظم والانشاد



سيمونيدس



نقود هوميروس

وكان ارسطوطاليس في مقدمة المعجبين بهوميروس وقد الصق نسبه بالآلهة فقال : سبط طائفة من قرصان ازميز اثناء الجلاء اليوناني على فتاة من جزيرة بوس وهي حبلى من احد الآلهة فسبوا واحتملوا الى بلدتهم فولدت الشاعر وكان الاسكندر المكدوني كلياً بمطالعة منظومات هوميروس واستكتب منها نسخة تقحها له استاذة ارسطوطاليس كان يحتملها معه حيثما توجه ثم اتخذ لما غلقاً خوزةً مرصعة من اسلاب دارا ملك الفرس فكانت جلسه في رحله وانسه في ترحاله يتعدى نهج مواقفها ويتزعم يبدائها ويمثل بها في كل ما عن له من الاقوال والافعال ولطالما كانت تعروه هزة الطرب اذا أنشد بعض ابياتها ولا سيما بيته القائل بوصف اغاممنون :

ملك بأحوال السياسة عارفٌ عزومٌ بصماء المعامع جبارٌ
ومن مأثور اقواله وهو واقف الى قبر أخيل بطل الالباذة : « طوباك فقد أوتيت منتعى السعادة بقيام شاعر كهوميروس يخلد ذكرك »
وانك لانكاد انتصف كتاباً من كتب الادب والتاريخ مما كان يوثق به عند قدماء الغرب الا رأيت مشحوناً بالشواهد المنقولة عن شاعرنا مشفوعةً بالإطراء والإكبار . وكانوا يقتبسون من اقواله على نحو ما يقتبس اليهود من التوراة والنصارى من الانجيل والمسلمون من القرآن والحديث . كل ذلك مما مهد سبيل إحلاله عندهم ذلك المحل الرفيع حتى تنازعته البلاد وشغفت به العباد وعني الملوك والعلماء بجمع شتات قريضه وعكف الرفيع والوضيع على ادخاره كنزاً لا ينفد

وكان فقهاء اليونان ومشرعوها يتجشمون الاسفار لجمع ما تفرق من تلك الغرر في اطراف البلاد فينظمون عقدها ويلقونها على العامة تهذيباً لاخلاقهم وثقيفاً لعقولهم والملوك يبذلون لهم المال عوناً لم على بلوغ تلك الغاية . قالوا واول من فعل ذلك ليكرغس لهد هوميروس . او بعده بقليل وحذا صولون حذوه فعمل في اثينا فعل ليكرغس في اسبارطة حتى لقد كان يضطر الشعراء ان يشدوا قطعاً

متوالية من هوميروس حفظاً لها في ذهن الامة واستبقاءً لانتساقها على السياق الذي نظمها به الشاعر . وإن لفيسيستراتوس ملك اثينا بدءاً مشكورة في تبويب تلك المنظومات على النمط الذي اتصلت به الينا فاتخذ جماعة من كبار العلماء . ووسّع عليهم في الرزق ليتفرغوا لتلك المهمة . ومن جملة مرويات العصر الغابرة انه تألفت طائفة من ادباء اليونان صرفت همها الى النظر في الشعر الهومييري ففتحوه ونبتت منه الدخيل والفقه الى الخلف على ما نراه عليه اليوم . وكانت تلك الطائفة مؤلفة من سبعين عالماً مثلاً تألف المجمع السميني الذي نقل التوراة من العبرية الى اليونانية لمهد بطليموس فيلادلفيوس . واما العامة فانها تلقت تلك الفرائد تلقياً للآي المنزلة فكانت فكاهتها في مجالسها ومرجها في مباحثها ومرماها في ثقيف احداثها وقبلتها في غدوها وآصالها . وما انتشر فن الكتابة حتى انتشرت في النوادي والمنازل فوق انتشارها في اذهان الخلق فكان الساقط السافل عندهم من خلا رأسه او منزله من شيء من منظومات هوميروس . وهم يتنافسون بحفظها ويتناشدونها كما تتناشد خاصة الفرس والجم الغفير من عامتهم اقوال الفردوسي صاحب الشهنامة ومعدني صاحب الكلستان لمهدنا هذا او كما يتناشد ادباؤنا الحكم والامثال المقتطعة من اقوال نوابغ الشعراء . وما يروى في هذا الصدد ان الكيبياذس القائد اليوناني لم يتالك وهو فتى ان انبال على استاذة بالشتم ثم بلغت به الحدة ان ضربه لانه لم تكن عنده نسخة من شعر هوميروس وهو ذنب في ذلك العصر عظيم . ومن هذا القبيل ايضاً ما يقال عن زويلوس الكاتب اذ تصدى لانتقاد هوميروس في القرن الرابع ق . م . فقامت الامة وقعدت وقبضت على المتنقد وصلبته ثم رجته رجماً . ومما يكن من صحة هاتين الروايتين ففيهما من المعنى ما لا يخفى على اللبيب

ولا يظن المطالع ان هوميروس انما نال تلك الخطوة عند قومه وبني ملته . بل كانت هذه منزلته عند الرومان ومن يليهم من ام المغرب . فاللاتين كانوا يترغون بأقواله ترغماً بشعر نابغتهم فرجيليوس وما فرجيليوس الا نابغة من

مريدي هوميروس شغف بتلاوة شعره وكان شاعراً بليغاً فنظم الانيادة على نسق الاليادة واجاد في تحدي استاده . واما ام اوروبا فانها اقبلت على ذلك الشعر منذ نشأتها ولم يتخلل اقبالها فتور الا عقود اعوام . معدودات في بدء النصرانية كما سنبين في باب نقل الاليادة الى العربية . وفي ما سوى ذلك كانت منظومات هوميروس ولا تزال عندهم في المنزلة الاولى بين منظومات البشر اجمعين . وكان بعض العامة من الافرنج في القرون الوسطى يتخذون منها الاحراز والتعاويد . ويلجأون الى استخراج المغيبات مما يستنبطون من معاني الايات التي تبدو لهم اذا فتحوا كتابه اياً كانت . وابلغ من كل ذلك ان لفيقاً من الاطباء المشهود بعلمهم كانوا يعالجون بعض المرضى بالشعر الهوميري فاذا استوصفوا علاجاً للحمى الرباعية أمروا بوضع نسخة من النشيد الرابع من الاليادة تحت رأس العليل تلك كانت منزلة هوميروس عند اليونان والرومان ومن وليهم من ام اوروبا

رأي المتأخرين فيه

لم يزل الشعر الهوميري في المنزلة الاولى بين منظومات الشعراء . وليس بين كتب الادب والتاريخ والشعر كتاب تداولته الايدي وتناقلته اللسان واستشهد به الادباء والكتبة والمؤرخون ونقل مراراً متواليه الى معظم لغات الحضارة نثراً وشعراً كديوان هوميروس حتى لقد جعل تدريسه فرضاً في كثير من مدارس القوم تلقنه الفتية اصلاً وترجمة . وما يذكر في هذا الصدد اعتراض بعضهم على اتفاق الساعات الطوال في القائه على طلبة جامعة برلين . فلما بلغ ذلك الاعتراض ولهم الاول قيصر المانيا قال : « دعوا الاسانذة يكثرخوا من تلقين شعر هوميروس فان الامة التي يرسخ في ذهنها وصف حبا الامم على ما يسطه هوميروس لا يسارع اليها العجز والمهرم » . ومن اقوال رينان فيلسوف الفرنسي الحديث : « اذا مر على عهدنا الف عام انقرضت جميع التأليف التي بين ايدينا ولم يبق منها الا كتاب واحد وهو ديوان هوميروس » . واذا كان المتمدنون قد اطلقوا عليه

لقب « الشاعر » فقد لقبه المتأخرون « بأمير الشعراء » وما انتقاد بعض
الكتّاب فقرات متفرقة من شعره الامدعاة لزيادة انتشاره واتساع شهرته
فما سام شمس العلى حطة غمام يستراذيا لها

واما بنو الشرق فهم وان جهل معظمهم اسم هوميروس فضلاً عن وجود
منظومات له الا ان ذوي الاطلاع من متأخريهم قدروه حق قدره كما ان
بعض علمائهم في الزمان الغابر اعظموا شأنه واجلّوه . وان صفة ادبائنا في هذا
العصر شاعرون بالحاجة الماسة الى نقله الى العربية . ويذكرني هذا حديثاً
مع منيف باشا ناظر المعارف العثمانية قال في اثائه « لو ان الشاعر العربي القائل :
كأنني أميروس لدين محمد . . . عمل حقيقة للشرق ما عمل هوميروس للغرب لما تعدنا
الغرب هذا الشوط البعيد » . وقد غاب عنه وعني عرفان ذلك الشاعر . وبما
قاله لي السيد جمال الدين الافغاني في محضر من الادباء : « انه ليسرنا جداً
ان تفعل اليوم ما كان يجب على العرب ان يفعلوا قبل الف عام ونيف . وياحبذا
لو ان الادباء الذين جمعهم المأمون بادروا بادى بدء الى نقل الالياذة ولو
الجأهم ذلك الى اهمال نقل الفلسفة اليونانية برمتها » وسأذكر في باب « الالياذة »
سبب اغفال نقلها الى العربية

ذلك قول عامة المتقدمين والمتأخرين وخاصتهم في هوميروس وشعره . اما
الشعر فلا سبيل الى انكاره لانه موجودٌ يُتلى . واما هوميروس نفسه فقد
قامت طائفة من الباحثين في اواخر القرن الثامن عشر بزعمه وتلف الالماني
وتألبت على انكار وجوده بتاتاً . وما لبث مذهبهم ان انتشر انتشار الشراذم
ما لبث ان خبا خبوه على ما سنسطه في الكلام على الالياذة

قول العرب فيه

ليس في ما بين ابدنا من التأليف العربية ما يشير الى ان ديوان هوميروس
نقل الى لغة العرب . فهو بلا ريب لم يُعرّب وان كان معروفاً عند خاصة

العلماء في بغداد لعهد العباسيين اذ كان يتناشده الادباء من نقلة الكتب المقربين من الخلفاء بأصله اليوناني ونقله السرياني . والظاهر ان الالياذة كانت منتشرة بين الخاصة في بلاد الفرس والكلدان في زمن الدولة العباسية لان ثاوفيلس الرهاوي الذي نظمها بالسريانية كان منجم المهدي ثالث خلفائهم كما اثبتنا في حواشي الالياذة (ن ٢ : ص ٢٦٢) . قال ابن ابي أصيبعة في كتابه « عيون الانباء في طبقات الاطباء » نقلاً عن يوسف بن ابراهيم في ترجمة حنين بن اسحق اثناء تنكُّر حنين وهو عاكفٌ على درس الطب ^(١) « فبُنت خروشي (جارية الرشيد الرومية) ذاك العلام (وهو اسحق المعروف بابن الخصي) وادّبه بأدب الروم وقراءة كتبهم فتعلم اللسان اليوناني علماً كانت له فيه رئاسة فكنا نجتمع في مجالس اهل الادب كثيراً فوجب لذلك حقّه وذمامه . واعل اسحق بن الخصي علةً فانيته عائداً . فاني لني منزله اذ بصرت بانسان له شعرة قد جللته وقد ستر وجهه عني ببعضها وهو يتردد وينشد شعراً بالرومية لأوميرس رئيس شعراء الروم فشبهت نعمته بنفحة حنين وكان العهد بحنين قبل ذلك الوقت بأكثر من سنتين فقلت لاسحق بن الخصي هذا حنين فأنكر ذلك انكاراً يشبه الاقرار فهتفت بحنين فاستجاب لي »

فيؤخذ مما تقدم ان اليونانية كانت معروفة لذلك العهد في بغداد تُقرأ وتُدْرَس حتى في بيوت الخلفاء وان منظومات هوميروس كانت معروفة فيها بين المشتغلين بلغات الاجانب ومعظمهم اذ ذاك من النصارى

واما سائر ما ذكر عن هوميروس في كتب العرب فليس الا شذرات مقتطعة من كتب اليونان المعربة برعاية العباسيين والمؤلفات التي وضعها كبار العرب والمؤلفين من الكلدان كابن ماسويه وابن الخصي وحنين بن اسحق مثال ذلك قول ابن ابي أصيبعة في عيون الانباء : « وكان الشعراء في ذلك

الزمان على ما ذكره حنين بن اسحق اوميرس الخ «^(١) وقوله في ترجمة ارسطوطاليس « ومن كتبه كتاب في مسائل من عو يص شعر اوميرس في عشرة اجزاء.^(٢) وقوله في ترجمة جالينوس عند ذكر الكتب التي اعترض حنين بن اسحق على نسبتها اليه « ومنها كتاب الطب على رأي اوميرس «^(٣) ومن هذا القبيل قول البيروني « اميروس المتقدم عند اليونانيين كمرىء القيس عند العرب «^(٤) ومثله قول ابن خلدون في مقدمته «^(٥) ان الشعر لا يختص باللسان العربي بل هو موجود في كل لغة سواء كانت عربية او عجمية وقد كان في الفرس شعراء وفي يونان كذلك وذكر منهم ارسطو في كتاب المنطق اوميروس الشاعر واثني عليه « ومثله قول ابن ابي أصيبعة «^(٦) قال افلاطون وقد كان مارينون (اغامنون) ملك اليونانيين الذي يذكره اوميروس الشاعر باسمه وجبروته وما تهيأ لليونانيين في سلطانه رثي بشدائد في زمانه وخوارج في سلطانه . و بدرج في هذا الباب قول الشهرستاني «^(٧) اوميرس الشاعر من القدماء الكبار الذي يجربه افلاطون و ارسطوطاليس في اعلى المراتب ويستدل بشعره لما كان يجمع فيه من اتقان المعرفة ومتانة الحكمة وجودة الرأي وجزالة اللفظ « واما الشواهد التي اوردها الشهرستاني من كلام هوميروس في كتاب الملل والنحل والبهائم العالمي في الكشكول فلا شك ان فيها اخباطاً وانتضاباً على نحو ما جرى

(١) عيون الانباء جزء ١ ص ٣٦

(٢) » » » ١ » ٦٩

(٣) » » » ١ » ١٠١

(٤) الآثار الباقية عن القرون الخالية لابن الريحان محمد البيروني الخوارزمي .

طبع باريز ص : ٨٦

(٥) ابن خلدون . باب اشعار العرب واهل الامصار

(٦) عيون الانباء جزء ١ : ١٨٥

(٧) كتاب الملل والنحل جزء ٢ : ١٥

لكتّاب العرب في أكثر ما استشهدوا به من كلام الاعاجم
وقد أكثر أبو الفرج الملقب المعروف بابن العبري من ذكر هوميروس في
تاريخه حتى دون حكايته مع ما جنّ سألّه ان يهجيّه طمعاً في الشهرة من وراء
ذلك العجز فأبى هوميروس فتهدده بالشكوى الى رؤساء اليونانيين فضرب له
هوميروس مثل الكلب الذي نكل الاسد عن مبارزته فقال الكلب « سأمضي
الى السباع فأشعرهم بضعفك » فأجاب الاسد « لئن تعيرني السباع بالضعف
اجب اليّ من ان الوثّ شاربي بدمك »^(١)

وخلاصة القول ان هوميروس كان له شأنٌ مذكور عند ثقلة الكتب من
بطانة الخلفاء ولكن الماس ادياء العرب بأقواله كان الماس ناقصاً بقي منحصراً في
افراد معدودين من كبار الكلدان . واما منظوماته فالثابت انها لم تُعرّب

منظوماته

نقصر الكلام في هذا الباب على الالماع الى ما أنسب لصاحب الالبادة من
الشعر مما ثبت له وبما لم يثبت . واما البحث في شعره من حيث هو واساليبه
وطرائق نظمه وتشابيه واستعاراته وفائدة ذلك للعلم والتاريخ والآداب فنستبقيه
الى الكلام على الالبادة بعيد هذا

ان هوميروس منظومات كثيرة لاغرو ان يكون المفقود منها شيئاً كثيراً .
فان العلماء مازالوا حتى الآن يعثرون حيناً بعد حين على قطع مبثورة في
عاديّات القدماء من تلك القطع المختزنة في دفائن الارض . وان العهد لقريب
بالعثور على مقاطع مكتوبة على ورق البردي في عاديّات مصر مما لم يدرج
في ديوانه . على ان درة تلك القلادة انما هي الالبادة بلا خلاف . بل هي
كانت ولا تزال درة عقد ما نظم الشعراء في كل عصر وبلاد مما تقدم زمن
هوميروس وما تأخر عنه

(١) تاريخ مختصر الدول لابن العبري طبع بيروت ص : ٦١

الاوليسية

ويتلوهما الاوديسية وهي ملحمة تقصر عن الالياذة بضعة آلاف من الايات يغلب على الظن ان الشاعر نظمها في شيخوخته وموضوعها رحلة اوديس اثناء عوده الى بلاده بعد انتهاء حرب طروادة والقصة بأجمعها لا تتناول الا اربعين يوماً ولكن فيها من الحقائق وتنوع المباحث ما يكاد يعادل الالياذة . وهي كشقيقتها في اربعة وعشرين نشيداً ولكنها باعتبار وقائعها تقسم الى اربعة اقسام يشتمل القسم الاول منها على ما حصل لاوديس في منتهى المدة الطويلة التي نزل بها على الالهة كاليفسو في جزيرة اوجيميا وعشاق امرأته ساعون اذ ذاك في تهديد ثروته وتقويض دعائم ملكه وابنه تليماخوس وهو فتى يافع مهتم في احباط مساعيهم حتى اذا اعيتته الحيلة شخص بايعاز آثينا الالهة الحكمة الى فيلوس واسبارطة مستطعماً اخبار ابيه . وفي القسم الثاني وصف مغادرة اوديس لجزيرة اوجيميا وبلوغه بلاد الفايكين حيث نزل وقص عليهم خبره ثم غادرهم الى اثاكة مقرر حكمه . وفي القسم الثالث تفصيل الخطة التي اخنطها هو وابنه تليماخوس في منزل خادمه الامين الراعي افيبوس للضرب على ابدي اولئك البغاة . وفي القسم الرابع وصف انتقامه منهم واستقراره في ملكه

معارضة الاوديسية بالالياذة

ان بين الاوديسية والالياذة شهماً كثيراً في النهج والسياق مما يدل على ان الناظم واحد فكلاهما قائمة على اساس بسيط مرجعه الى موضوع واحد . ففي الالياذة « كيد اخيل » وفي الاوديسية « رحلة اوديس » وعلى هذين الامرين مدار جميع حوادث الروايتين بما تحللها من القصص والتاريخ وما وراء الطبيعة ودونها . وكل واحدة من الروايتين منحصرة الوقائع في ايام قليلة في منصرم اعوام طوال . فالالياذة لا تتناول سوى ستة وخمسين يوماً من حصار عشر سنين والاوليسية لا تتجاوز في مدتها الاربعين يوماً من رحلة اوديس . وكما ان مطالع

الاياذة بل استطراداً بتاريخ ذلك الحصار وما تقدمه وما يليه وبتمثل حالة البلاد بالنظر الى التاريخ والجغرافية والدين والآداب والاخلاق والعادات فكذلك يحيط مطالع الاوذيسه علماً بما لقي اوديس في تلك الرحلة منذ نزل بكاليبسو فشغقت به وامسكته في جزيرتها سبعة اعوام ويقف على حالة البلاد التي اقبلته الافئدة اليها وينزل الى اعماق الجحيم ويصعد الى اعالي السماوات ويطوف حول الارضين تطواف الشاهد البصير . وكلناهما متأسكة الاجزاء متراسة المعاني لانقرا نشيداً منها الا انست به نفس سائر الاناشيد . ومع هذا فقد يعترض على وحدة الناظم بما بين المحتمتين من التباين في قوة التركيب وحدة التصور وجزالة اللفظ فان الاياذة في كل ذلك فوق شقيقتها . وانما هو اعتراض مردود بثبوت ان الاياذة منقذمة على الاوذيسه نظماً الشاعر في ابان عمره ومثيلته على نفاذتها ومادته بمعظم غزارتها ولكن في الاوذيسه من اصابة المرنى وسداد الرأي ورسوخ الحكم وسعة العلم ما لا يقصر عما في الاياذة

سائر منظومه

واما سائر المنظومات المعزوة الى هوميروس فسواء ثبتت له او لم تثبت فلا تزبده رفعةً وشأناً بل خير له ان لا تكون له . والراجع عند اهل التحقيق انها من غير نظمه وان نسب اليه هيرودوتس بعضها « كحرب الضفادع والنبيران » و « حرب الزراير » وجماعة « الكركوفة » وهي قصائد لا تتجاوز المئات من الايات وليس فيها شيء مما يدل على انها من نتاج تلك القريحة اليالة والذهن المتوقد . ونسبها الى الاياذة والاوذيسه كنسبة بعض قصائد المتنبي المنظومة في صباه والمثبتة في اول ديوانه الى سائر قصائده الرائعة . وقد ذهب ارسطوطاليس الى ان هوميروس نبغ في الشعر الهزلي نبوغه في الشعر القصصي . واستدلوا على ذلك بالمنظومة « مرجيتس » وهي قصيدة يصف فيها الناظم رحلة مرجيتس الغني المتفطرس ولم يبق منها الا اجزاء متقطعة

ومما ينسب اليه ايضاً ثلاثة وثلاثون مزموراً نرّم فيها بمدح الآلهة وقص
 فيها بعض اخبارهم وترسل بالابتهاال الى افلون وعطارد (هرس) والزهرة
 وذيميتير والمريخ (آريس) واثنين وهيرا وهرقل قلب الاسد واسقليبيوس
 الاله الطب وهيفست الاله النار وفوسيد وزفس والشمس والقمر والارض
 وهلم جرا

وقد نسبوا اليه ايضاً بعض مقاطيع واحاجي في ايات قليلة والاظهران
 تلك المقاطيع والزبور واشباهها مما ألقى بدويان هوميروس لجهل روايتها
 اسماء اصحابها



اللياذة

تمهيد

الإلياذة أو الإلياس نسبة يونانية الى الإيون عاصمة بلاد الطرواد وهي الملحمة التي نحن بصددھا وضعھا هوميروس على اسلوب بسيط وبنائها على موضوع واحد هو « غيظ اخيل او احتدائه » ونهج بها نهجاً متناسقاً قص في اثناثة حوادث متسلسلة لانتشعب وقائھا بتعدد الاشخاص مہما كثرأوا وكثرت . فهي بهذا المعنى سلسلة واحدة من اولھا الى آخرھا وهو مذهب معظم الرواة والقصاصين من القدماء ولا سيما الشرقيين لميلهم الى البسيط من القصص بخلاف رواة الاورويين في العصر الحديث فانهم يفرعون الحوادث ويكثرأون من تدخل الاشخاص بوقائع متشعبة مما يؤول في نظرهم الى زيادة تفككة القارىء ولعل المتأخرين مصيرون برأيهم هذا في الزمن الحاضر وخصوصاً لانهم بعد انتشار فن الطباعة اصبحوا في غنى عن استظهار افاصيلهم على نحو ما كان القدماء يحفظون رواياتهم حرفاً حرفاً عن ظهور قلوبهم . ومعلوم ان البسيط المتناسق اسهل حفظاً من المركب المتشعب

ولا بد لنا قبل بسط موضوع الإلياذة من الاماع الى حرب طروادة تلك الحرب التي خلد هوميروس ذكرھا باقتطاع شذرة منها موضوعاً لاناشيده كانت مملكة طروادة اثناء تلك الحرب ممتدة من جنوبي اسيا الصغرى الى الهليسينطس وهو مضيق الدردنيل وملكھا فريام وقاعدتها اليون وتدعى ايضاً طرويا (او طروادة) وقد عفت اثارها منذ قرون ولكنه قد يؤخذ مما توصل اليه بالبحث انها كانت واقعة في سفح الجبل القائمة عليه الآن قرية بونارباشي

اما بلاد الاغريق فكانت ممالك صغيرة تتحالف احياناً وتشتاق اخرى وبينها وبين بلاد الطرواد صلة تجارة ونسب . وحدث ان منيلاوس ملك اسبارطة غاب عن عاصمته في مهمة وان فارس بن فريام أوفد برسالة الى اسبارطة فنزل ضيفاً على منيلاوس وهو غائب وما زال بهيلانة امرأة فارس حتى استهوها فأحبته ووافقته علي الفرار معه الى بلاده . فقامت الاغريق وقعدت لذلك النبأ . ولما أعتبهم الحيلة في استخلاص هيلانة نأهبوا للحرب واستنصرخوا جميع قبائلهم ففزع اليهم القاصي والداني وعقدوا لاغاثموني اخي منيلاوس وملك ميكينيا . فكانت الرئاسة اليه منذ نشوب الحرب الى ان خبت جذوتها بدمار اليون . فساروا جيشاً كثيفاً يعيشون في بلاد الطرواد يخربون المدائن ويقتلون الرجال ويسبون النساء وينهبون الاموال الى ان بلغوا اليون العاصمة فحصروها واقاموا على حصارها عشر سنين . فساءت حال الفريقين ونفدت الارزاق وبادت المقاتلة وكاد الاغريق يثنتون الى اهلهم ويقنعون بسلامة من بقي منهم لولم يوافهم داهيتهم اوديس بخدعة مكنتهم من فتح اليون

موضوعها

تناول هوميروس اياماً قلائل من السنة العاشرة لحصار اليون وبني عليها منظومته وشرع فيها بقوله :

ربة الشعر عن اخيل بن فيلا أنشدبنا وأروي احنداماً ويلا
اشارة منه الى انه سيدور حول ذلك الاحندام منذ انقد الى ان خمد . وهو
موضوع يكاد يحسبه شعراؤنا تنقياً لبساطته ويعجبون لقريحة علقته به فأنتجت
نحواً من ستة عشر الف شطر او شعر مع ان معلقة امرئ القيس ومطلمها
بني، يجموع اوسع وموضوع اجمع تقصر يحماتها عن مئة بيت . وانك مع هذا
اذا طالمت اللياذة كلها لانكاد ترى فيها حشواً ولغواً بل لانيالك ان تستزيد
منها في مواضع كثيرة

وَجُعِلَ الْقِصَّةُ أَنَّهُ كَانَ فِي جَمَلَةِ السَّبَايَا فِتْنَةً جَمِيلَةً وَقَعَتْ فِي سَهْمِ أَخِيلَ
عَنْزَةَ الْاَغْرِيقِ فَانْتَزَعَهَا مِنْهُ اِثْنَانِ زَعِيمِ الزَّعْمَاءِ وَاسْتَخْلَصَهَا لِنَفْسِهِ فَعَظُمَ الْأَمْرُ
عَلَى أَخِيلَ وَكَادَ يَطْشُ بِأَغَامْنُونَ لَوْلَا أَنَّ اِثْنَيْنِ الْإِلَهَةِ الْحَكَمَةَ هَبَطَتْ مِنَ السَّمَاءِ
وَصَدَّتْهُ قَسْرًا . فَانْكَفَأَ عَنْهُ وَاعْتَزَلَ الْقِتَالُ هُوَ وَعَشَائِرُهُ . فَخَمِيَ وَطِيسُ الْحَرْبِ
بَيْنَ الْاَغْرِيقِ وَالطَّرَوَادِ وَأَخِيلَ فِي عَزَلَتِهِ يَحْرَقُ غَيْظًا . فَاشْتَدَّتْ عَزِيمَةُ الطَّرَوَادِ
لَاخْتِجَابِ أَخِيلَ فَتَكَلَّمُوا بِالْاَغْرِيقِ فِي مَوَاقِعَ كَانَتْ الْغَلْبَةُ فِي مَعْظَمِهَا لَهُمْ . فَلَمَّا
ثَقُلَتِ الْوُطْأَةُ عَلَى الْاَغْرِيقِ . أَوْفَدُوا الْوُفُودَ اسْتَرْشَاءً لِأَخِيلَ فَمَا زَادَ إِلَّا عِتْوًا
وَكِبْرًا . فَوَقَعَتْ هَيْبَةُ هَكْطُورِ زَعِيمِ الطَّرَوَادِ وَابْنِ مَلِكِهِمْ فَرِيَامَ فِي قُلُوبِ الْاَغْرِيقِ
وَمَا زَالَتْ لِنُتْوَالِي لَهُ الْغَلْبَةُ بَعْدَ الْغَلْبَةِ حَتَّى كَادَ يَحْرِقُ سَفَائِنَهُمْ وَيُرْدِمُ خَائِبِينَ .
وَكَانَ لِأَخِيلَ صَدِيقٌ حَمِيمٌ هُوَ فُطْرُقُلُ . فَقِيَّ جَمْعُ بَيْنِ كَرَمِ الْخِلَالِ وَبِسَالَةِ الْإِبْطَالِ
صَحِبَ أَخِيلَ فِي مَعَزَلِهِ وَهُوَ مَعَ هَذَا يَتَلَطَّى أَسْبَى لِنَكْبَةِ قَوْمِهِ وَيَسْتَفْزِ أَخِيلَ لِلْاِخْذِ
يَيْدِهِمْ وَأَخِيلَ كَالْحَجَرِ الْأَمِيمِ لَا يَرِقُّ وَلَا يَلِينُ . وَلَمَّا اشْتَدَّتِ الْإِزْمَةُ عَلَى الْاَغْرِيقِ
وَكَادَ يَقْضِي عَلَيْهِمْ جَعَلَ فُطْرُقُلُ يَنْتَقِبُ كَالطُّفْلِ فَأُذِنَ لَهُ أَخِيلُ أَنْ يَتَقَلَّدَ سِلَاحَهُ
وَيَحْمِلَ عَلَى الطَّرَوَادِ بِجُنْدِ الْمُرَامِدَةِ قَوْمِ أَخِيلَ . فَحَمَلَ عَلَيْهِمْ حَمَلَةً مَزَقَتْ شَمْلَهُمْ
وَرَدَّتْهُمْ عَلَى أَعْقَابِهِمْ وَإِذَا بِهِ خَرَّ قَتِيلًا أَمَامَ هَكْطُورِ فَدَارَتْ الدَّائِرَةُ بِمَوْتِهِ عَلَى
قَوْمِهِ فَوَلَّوْا مَدْبِرِينَ وَهَكْطُورُ يَضْرِبُ فِي أَرْدَائِهِمْ . وَلَمَّا عَلِمَ أَخِيلُ بِمَوْتِ فُطْرُقُلِ
قَتِيلًا تَسْعَرُ حَزْنًا عَلَى حَلِيفِ وَدِهِ وَالتَّبَهُّبِ حَقْدًا عَلَى الطَّرَوَادِ وَتَحْوِلُ غَضَبِهِ مِنْ
عَنِ الْاَغْرِيقِ إِلَيْهِمْ وَنَهَضَ لِالْاِخْذِ بِالنَّارِ فَصَالَحَ اِثْنَانِ وَاغَارَ عَلَى الطَّرَوَادِ فَبَطِشَ
بِهِمْ يَطْشُ الْأَسْوَدَ بِالْحِمْلَانِ فَلَاذُوا بِالْفِرَارِ وَتَحَصَّنُوا فِي مَعَانِلِهِمْ مَا خَلَا هَكْطُورُ
فَأَنَّهُ بَرَزَ لَهُ فَقَتَلَهُ أَخِيلَ وَمِثْلَ بِهِ . وَلَكِنَّهُ مَا لَبَثَ أَنْ سَكَنَ جَأْشُهُ وَخَبَا غَيْظُهُ
فَانْقَلَبَ ذَلِكَ الْغَيْظَ رَفَقًا وَعُطْفًا إِذْ رَقَّ لِشَبِيَّةِ فَرِيَامَ فَأَلْقَى إِلَيْهِ بِجَنَّةِ ابْنِهِ وَسَيَّرَهُ
أَمَنًا فَانْتَهَتْ الْقِصَّةُ بِسُكُونٍ وَسَلَامٍ

نظمها وتناقلها

إذا لزم من تماسك اجزاء اللياذة ان تكون منظومة واحدة فلا يلزم ان تكون نظمت وأنشدت جزءاً واحداً . ولا يؤثر على مجموعها ان تكون أنشدت في فطر واحد او اقطار مختلفة فهذا نقلها العربي وما هو بالشيء المذكور ازاء الاصل اليوناني وقد نُظم في اربع من قارات الارض . ولا فرق ان يكون الشاعر نظمها تطريباً بمانيها او تطلباً بأغانيها . تلك جميعها مباحث لا فعل لها في جوهر اللياذة فليس لنا هنا ان نطيل النظر فيها . وانما يجب النظر في طريقة اتصالها على سمعتها من السلف الى الخلف

ذهب برتلي سنت ابلير^(١) الى ان اليونان كانوا يكتبون لعهد هوميروس وهو قول لم يؤيده أثراً حتى الساعة . ومع هذا فعلى فرض صحة هذا المذهب فان الكتابة عندهم كانت في زمن طفولية لانكاد نسمع الا لتدوين ما عظم من حوادث التاريخ والا خلقت ولو أثراً ضعيفاً كما خلقت في مصر وبابل . فلا ريب اذاً انها انما حفظت اولاً في اذهان الرواة فتناقلوها جيلاً عن جيل وقد يُستغرب تناقل اللياذة في اول امرها استظهاراً على ما فيها من كثرة الايات واتساع المباحث وتنوع الاحاديث . على انه يتضح لدى التروى ان ذلك الاتساع كان من سمات حفظها وعلوقها في ذاكرة المشدين . وهو ثابت ان الانشاد مهنة كانت ولا تزال شائعة بين اجيال شتى من الناس . وكان للرواة والمشددين منزلةٌ يحسدون عليها ولهذا تطال اليها كل ذي علم واسع وذاكرة نيرة . وكثيراً ما كانت باب رزق لكل ضرير كفت نظره فتحوّل نور بصره الى بصيرته فادخرت في محفوظها ما تقصر عن رسمه اقلام الخطاطين ذكر سقراط وافلاطون وغيرها ان المشدين كانوا يتهافون الى مجتمعات الناس في اثينا وسائر مدن اليونان فينشدون ما حفظوه من اللياذة وغيرها

(1) Barthélemy Saint-Hilaire, Iliade d'Homère traduite en vers français.

وكان قيام هؤلاء المنشدين بين العامة والخاصة من لوازم كل احتفال وطني وعيد ديني . فتقام لهم في أثينا وسافس ونيوس وأرخمينا ومدائن أخرى أسواق كسوق عكاظ ومربد البصرة يتناظرون فيها وتعدُّ لهم الجوائز السنية فيحضرها المبرز منهم ويحرص عليها حرص الفائز باكليل الفار بعد الانتصار . ولطالما كان يمنع الواحد منهم الى التخلي ببطل معين او رواية مخصوصة فيفي العمر بالقائها حيناً بعد حين على ما هو اليوم شأن القصّاصين في مصر وبر الشام والافطار العجمية . ويؤخذ على ذلك دليل من نفس هوميروس اذ انطق أوديس في الاوديسية (ن ٩-١٢) بما يربو على الفين ومثني بيت نفسه واحداً . على انه لا يلزم مما تقدّم ان راوياً واحداً ينشد اللياذة كلها او يحفظها لهذا الغرض وقد اسهب متفرد^(١) وغروت^(٢) وغيرها في ذكر الادلة الساطعة على امكان بقاء اللياذة معفوفة في الازمان قبل شيوع الكتابة مما لا متسع لنا لنقله . وحسبنا ايراد شيء من الادلة الحديثة منها وما يتصل بأزماننا مما يرتاح اليه قراؤنا ولا سيما العرب منهم

العميان وأنشاد الشعر

بحث ثوريل^(٣) في الاغاني اليونانية في الاعصر الاخيرة فقال في مقدمته « انها لا تزال على ما كانت عليه في سالف الزمن والغريب انها بقيت مهنة العميان وهي مهنة تجلبهم الى الناس بل تجعل لهم مقاماً ذا نفع بالنظر الى حالة الامة واخلاقها وتصوراتها وشأنهم التنقل من بلد الى آخر فيطوفون اطراف بلاد اليونان وجزرها وهم استظهار جميع ما وسعه ذهنهم من الاشعار والاناشيد القديمة والحديثة . فكلمهم يعرف منها شيئاً كثيراً ويبلغ ما يحفظه بعضهم الى حد الغرابة والاعجاز . فاذا ذكروا هذه الاغاني فانما ادخروا كنزاً ثميناً

(١) Mitford, History of Greece p. 185.

(٢) Grote, History of Greece Vol. II p. 145.

(٣) Fauriel, chants populaires de la Grèce moderne. 1824.

يطوفون به فيلقونه بضاعة ذات قيمة وحيثما حلوا اجتمعت الناس اليهم فيأخذون في الانشاد بما وافق المقام ويتمشون بما ينفعهم به مستعمون . وم في الغالب يؤثرون الانشاد بين عامة الناس لان العامة اكثر اقبالا عليهم واقل تعنتا في انتقاء المواضيع — ولا يزالون كما كانوا لعهد هوميروس يتفنون على نغم القيثارة او الكنتارة وم فئتان فئة تنشد تحفظها من شعر الشعراء وهي الفئة الكبرى وفئة قليلة تنشد من تحفظها ومنظومها وهي ارفع منزلةً واوسع جاهاً . وهكذا فان هؤلاء المطربين هم الآن كما كانوا في القدم رواة الاخبار والتواريخ وشعراء الامة »

حفاظ الشعر عند سائر الامم وخصوصاً العرب

قال غريم^(١) « ان الالمان كانوا يسلكون هذا المسلك وان الاناشيد الجرمانية كانت تنشد كانشيد اليونان على نغم القيثارة »
ومن قول فوريل ايضاً^(٢) « ان الروليات والقصص كانت تنشد في فرنسا على هذا النمط في القرنين الثاني عشر والثالث عشر وكان الراوي اذا اراد الانشاد دعا الجماعة الى استماع اغنية تاريخ جميلة (une belle chanson d'histoire) ثم يتغنى على نغم شبابة عربية ذات ثلاثة اوتار واذا اخذ فيه العياء ظل بنغم زمناً بلا انشاد . تلك كانت الوسيلة المثلى لالتقاء الروايات والافاصيص »
ونقل الكسندر شدزكو^(٣) « ان حفاظ العجم يتلون لك من شعر شعرائهم ما لا تنكاد تصدق ان ذاكرة تعبه لكثرتهم فقد يظل المنشد يتغنى باشعار الشهامة (وهي الياذة الذرس) نهارةً كاملاً » وما ادراك كم بيتاً يقال في نهارة

(1) Grimm, Deutsche Heldensage, p. 373

(2) Romans de chevalerie, Revue des deux mondes, XIII p. 559

(3) Alexander Chodzko, specimens of the popular poetry of Persia, London 1842. Introd. p. 13

اما العرب فلم يكن في أمة من ام الارض شأنٌ للانشاد ارفع منه عندم وهذه اخبار عكاظ والمربد تملأ الاسفار بصرف النظر عن اخبار الشعراء المتبينين في كل اصقاع البلاد العربية لاهمة لهم الا انشاد الشعر . وهذه اخبار الخلفاء وقد كان ما يجيزون به الشعراء من ابواب النفقة الطائلة مما لا يبقى معه ريب ان انشاد الشعر كان الضالة المشودة والمخفرة التي يتسابق اليها الربيع والوضع واذا طالعت اخبار الشعراء المترجمين في كتاب الاغانى وغيره رأيت بعضهم كهوميروس اميين لا يقرأون ولا يكتبون بل ربما احتاج ابلغهم الى قارىء صغير كما فعل طرفة ابن العبد والمتلس اثناء شخوصهما الى عمرو بن هند ملك الحيرة اذ اضطرا الى استرضاء غلامٍ حدث ليقراَ لهما كتاباً وكلاماً من فحول الشعراء (شرح اللياذة ص : ٤٤٩) وهو لاء اصحاب المعلقات والمجهرات والملمحات كان فريقٌ كبيرٌ منهم أمياً

واما مبلغ الذاكرة عندم فما لا يفوقه شيء في اخبار اليونان والرومان والافرنج . وفي اخبارهم ما لو حُذف منه شيء كثير لربا باقيه على مرويآت اليونان قديمهم وحديثهم . فاذا علمت ان ابا العلاء المرعي سمع محاوره اسرائيليين بالعبرية وهو في شأن غير شأنهما ثم طلب بعد مدة مدبدة للشهادة فأعاد تلك المحاوره وهو لا يفقه من العبرية حرفاً - اذا علمت ذلك فما ظنك نعي ذاكرته من الشعر لو توخى الحفظ - واذا قيل لك ان اللياذة مؤلفة من زهاء ستة عشر الف بيت فيصعب الاخذ بقول القائلين انه امكن استظهارها فما بالاك لو سمعت ما ذكروا عن غرائب حافظه حماد الراوية اذ امتحنه الوليد بن يزيد ووكل به من يسمع انشاده فأثد تباعاً الفين وتسعمائة قصيدة من شعر الجاهلية . اولو قيل لك ان الاممي كان يحفظ ستة عشر الف ارجوزة كاملة ما خلا القصائد والمقاطيع واخبار العرب بدوم وحضرم . وهذا قولٌ منها أنس فيه من المبالغة لا يخلو من صحة بعضها كافٍ لاثبات ما تنوخواه هذا والي من يعتقدون انخطاط قوى الذاكرة وارتقاء قوى الخيلة في

ازماننا هذه بناء على الناموس القاصي بترقي القوى البشرية وانحطاطها بكثرة المزاولة وقتلها . ومع هذا فالحافظة مهما ولدت خاملة لا تلبث ان تقوى بالمثابة على الاستظهار فثقلها في تدرجها من الضعف الى القوة مثل يد النجار والحداد وقلم الكاتب . وفي عصرنا هذا من حفاظ التوراة والانجيل والقرآن مئات والوف عرفت بعضهم بالذات . ولقد طالما اضطرت في حين من الزمن الى مراجعة خبر او آية في التوراة والى جانبي المرحوم المعلم داود الحاج فكنت اذا ذكرت له طرفاً مما أريد اشارة فوراً الى السفر والفصل وكثيراً ما كان يعين العدد فأنتصح الكتاب فاذا هو كما قال . وحفظ القرآن منتشرون في كل صقع من بلاد الاسلام ومنهم الجمل الغنير من كفي في البصر كرواة سائر الامم . ويقال مثل ذلك في حفظ الانجيل من المسيحيين ولا سيما وعاظ الانجيليين

اما رواة الشعر فهم في البلاد الشرقية اكثر منهم في اقطار الغرب حيث قضت الكتابة على الاستظهار القديم . وقد شهدت بنفسي مصداق قول شذركو في منشدي الفرس . فاذا جلست الى الواحد منهم وهو ينشد شعر الفردوسي او جلال الدين الرومي او قصص كلستان سعدي شمرّاً ونثرّاً لظننته يتلو كتاباً يتصفحه حرفاً حرفاً واذا جلت في بادية العرب وسمعت منشديهم ينشدون على نعم ربابهم الوقا من الاشعار قلت تلك كنارة هوميروس وهولاء لا اولئك هم المنشدون الذين ذكرهم سقراط وافلاطون ومثفرد وغروت وفوريل وغرم وشذركو

ولقد تيسر لي اثناء تجولي بينهم ان التقطت منهم قصائد شتى جمعتها في ديوان سامل منتخباته بالطبع وكثيراً ما كنت اسمع القصيدة من غير راو فاذا هي هي وليس بالامر اليسير بازاء ما تقدم تحفوظ زجالي مصر وقوالي لبنان وشعراء اهل الارياض في اسبانيا والبرتغال . فقد استبقت الذاكرة بضع قصائد بل مطالع من معني اللبنانيين مما علق بها في الصغر منذ بضعة عقود من السنين فاستشدها بعضهم في الصيف الماضي فاذا هي عندهم على حالها لم تزد ولم تنقص وقد ذكر كتاب الافرنج كثيرين ممن عنوا بحفظ كتاب او منظومة فما

لبثوا ان ادركوا بغيثهم كما كولي (Macaulay) الذي أنشد نصف منظومة ملتن الانكليزية في الفردوس الغابر . واذا ساغ لي ان اذكر لنفسي ولرفاقي في الصغر مثلاً من ذلك قلت اننا كنا نتسابق الى حفظ ملحمة ملتن المذكورة حتى تيسر لي مرة سرد نشيد كامل منها ونصف الثاني مع قسم غير يسير من منظومة سيدة البحيرة لواتر سكوت . وكان استاذنا المرحوم المعلم بطرس البستاني يشوقنا الى حفظ الفية ابن مالك وما زال بي حتى استظهرتها واستنشدني منها مائتي بيت تباعاً في حفلة امتحان

وليس ما اذكره في هذا الباب على سبيل الاستطراد شيئاً مذكوراً بازاء تحفوظ الرواة الذين لامهم لم الا اخزان الشعر والقصص في حوافظهم فالمنظومات فيها كالتناع المتضود في حانوت حافل بأصناف المنسوجات ينشرون منها ماشاوا ابان شوا على نية ان يطووه الى موضعه . وكلما نشروه مرة زاد زهاء ورواه واذا تلقاه احدهم عنهم فائماً يتلقى رسمه والاصل باق في ملكهم لاتبلغ يد مشتر او سارق . فأمثال هؤلاء هم الذين استبقوا للغف منظومات هوميروس الى ان كتبت

جمعها وكتابتها

اذا علمت كيف تهافت الحكماء والعظماء على تلقي اللياذة وتلقيها للناس يوم لم يكونوا يكتبون وعرفت كيف اكبت الحفاظ على ادخارها تبادر الى ذهنك انه لم تكد الكتابة تنشر في بلاد القوم حتى اقبلوا على جمعها وتدوينها . وان لنا في الاثر امثلة اخرى مما تلي وانتشر قبل ان يجمع في كتاب ليحفظ ويُنقل او يُبد فاهمل . وليس هذا خاصاً بالشعر بل قد تُناقل الحكم والروايات النثرية قرونًا طويلاً . وهكذا حفظت تواريخ الجرمان والبكنديناف ومنظوماتهم قرونًا قبل ان يدون منها شيء في كتاب ^(١)

(1) Grote, History of Greece Vol. II p. 149

Mariners accounts Vol. II p. 377

وهو معلوم أيضاً ان القرآن على غزارة مادته وتشابه آياته انتشر ورسخ في حوافظ الضحابة كاتبهم وامثهم بل ربما كان ارتخ في ذهن الاتي

وليس لدينا شيء مما يمكن معه تعيين الزمن الذي بوشر فيه بكتابة الابادة . ولا شك ان فيسيستراتس كان من صفوة المشغولين بهذا العمل الخطير كما تقدم (ص : ٢٣) حتى لقد عثروا في بعض مخطوطات رومية على اسماء اربعة من الشعراء استعان بهم على ضبط منظومات هوميروس وهم أونو مكريشس وزوفيرس وأريفيوس وكنيكيلوس . ولكن الظاهر ان نسخة فيسيستراتس لم تكن النسخة الاولى وانه شرع في كتابة تلك المنظومات منذ اواسط القرن السابع ق . م . اي قبل نحو قرن كامل . ولا رب ان من ولي صولون الى زمن فيسيستراتس جمعوا منها نسخاً مما ذكره علماء مدرسة الاسكندرية أو اغفلوه . بل لعل الكتابة في زمن صولون نفسه كانت لتسع الى مثل هذه الغاية . وان جميع معاصري فيسيستراتس اثناو الثناء الجليل على ما فعل . ولكن الغريب ان علماء الاسكندرية لم يذكروا نسخته في جملة ما حسبه من النسخ التي كانت بين ايديهم . فاما انها لم تتصل اليهم وهو محال مع شهرتها . واما انهم كانوا يعلمون انها انما كانت نسخة تقدمتها نسخ كثيرة فأغفلت في جملة ما أغفل وهو الاظهر . وكانت في الاسكندرية اذ ذاك نسخ شتى نقلت عن تجموعات ارغس وخيوس . (ساقس) واكريت وقبرس وغيرها من مدائن اليونان مما يدل على سعة الانتشار . فعمد علماء الاسكندرية الى تلك النسخ ومن جملتها النسخة التي كتبها ارستوطاليس للاسكندر وقابلوها بعضاً على بعض ثم وضعوا النسخة التي تداولتها الابدي الى هذا الزمن . وكانوا رطاً من فحول العلماء بل كانوا اعلم ابناء زمانهم كزبدودوتس الانسي وأرسطوفانس البيزنطي واعلمهم طراً أرسطرخس السامثراقي وهو الذي قسم كلاً من الابادة والاوديسية على ما قيل الى اربعة وعشرين نشيداً^(١) على عدد حروف الهجاء عندهم

القول في سلامتها من التحريف والتصحيح

لم يُعْنِ البشر في زمن من الازمان بنسخ كتاب وتحيصه وحفظه ونشره
عنايتهم بالايادة واختها الاوذية ولا يستثنى من هذا الاطلاق الا الكتب التي
رُفِعَتْ عليها أُسُسُ الاديان كالنوراة والانجيل والقرآن . ومع هذا فليست ممن
يقول بسلامة الايادة بجميع اجزائها من كل تحريف وتصحيح او زيادة ونقصان
واي كتاب اجمع الناس على انه لم تعبث به قطُّ بدُّ كاتب ولم تنسبُ جاحثة
زمان . أفليس في بعض نسخ النوراة عباراتٌ تختلفُ عنها في نسخ اخرى .
وانَّ منها أسفاراً كاملة يعدُّها فريقٌ قانونيةً وبكر ذلك فريقٌ آخر .
أوليس من يقول بضياغ بضعة اناجيل واختلاط استغفار اخرى من العهد الجديد .
ومن ينكر عناية الخليفين ابي بكر الصديق وعمر بن الخطاب في جمع اجزاء
القرآن في صحفٍ مكتوبة ومبلغ جهدها وجهد الخليفة عثمان بعدها في ضبط
قراءته والنظر في كل آية من آية حتى اذا رأى عمر ان آخر سورة التوبة
مفقود ظل يبحث عنها حتى وجدها مع ابي خزيمة الانصاري وفعل فعله عثمان
اذ فقدت آية من الاحزاب فالتمسها ووجدتها مع خزيمة بن ثابت الانصاري .
وهل سد ذلك افواه المعترضين من بعض فرق الغلاة والمعتزلة . أو لم يتواتر
ايضاً ان بعض كتبة الوحي لنبى الاسلام كعبد الله بن ابي سرح في اول اسلامه
كانوا يعمدون الى تبديل كلام بآخر

ولكن النبي كان حياً فأثبتوا انه كان يضرب على ايدي اولئك المحرّفين ويردُّ
الكلم الى مواضعه . اما الايادة وقد تناشدها الرواة نحواً من قرنين ولا ضابط
لها سوى اذهان المتشددين فلم تكن تتمُّ قوةً بشرية قادرة على حفظها من اولها
الى آخرها على ما نطق بها هوميروس مهما بُدِّل في سبيل ذلك من العناية
والهمة . بل ربما لوبعث هوميروس نفسه وانشدها مرة اخرى لما تما لك عن تغيير
حرفٍ وتبديل شعر . على انه لا ريب ان التحريف والتصحيح قليلان جدّاً في جميع

ما اتصل بنا منها لما رأيت من عناية القوم بها اللهم الا أن تكون هناك اجزاء
مفقودة برمتها مما لا يدخل تحت هذا الحكم . ومع هذا فارتباط اجزائها بلا انقطاع
بدل على انه ان كان ثمة مفقود فهو قليل . واننا الآن موزدون استجلاء لهذا البحث امثلة
بما ذكره الشراح وما لم يذكروه من الدخيل والساقط والمكرر والمغلق

الدخيل

ذكر هوميروس في النشيد الثامن انه عند غروب الشمس تحاجز الجيشان
فانكها كل الى معسكره والطرواديون على بيته من الفوز في غدم لما أوتوه من
ابناء الغيب فاقاموا ليلهم ينتظرون بزوغ الفجر لينقضوا على اعدائهم . ثم وصفهم
ووصف نيرانهم وقال : (ص : ٥٤٧)

فبين السفين الراسيات وزئس لوامع نيران بذاك المعرس
توج لدى اليون في الف مقبس بوجعها خمسون في كل مقبس
ودونهم بيت العجال جياهم وقوف لدى ذاك القيصم المكس

وهنا في بعض النسخ اربعة ابيات مفادها انهم ضحكوا بالضعايا فلم تقع لدى
الآلهة موقع قبول لما استقر في نفوسهم من كراهة اليون عاصمة الطرواد وملكتها
وملته . فذهب بعض الشراح وذهبنا مذهبهم الى ان هذه الايات دخيلة فاغفلوها
واغفلناها لان فوز الطرواد في ما يلي يدل على انها في غير موضعها بل هي مناقضة
للمعنى على خط مسنقيم لان زفس كبير الآلهة كان في زمن مولادة للطرواد
وفي النشيد الثالث عشر يوعز فوليداماس الى هكتور . زعيم الطرواديين ان
يجمع اليه زعماء الجيش ويشاورهم في الامر فيقول الشاعر :

تلقاه هكتور قولاً مصيباً وقال لفوليداماس تحبباً

وهنا في بعض النسخ بيت يقول ان هكتور وثب الى الارض من مركبته
وهو لا شك دخيل من غير نظم الشاعر لان سياق الحديث يدل على ان الطرواد
غادروا مركباتهم وزحفوا مشياً على الاقدام

هذا وان في الليادة بذمة آيات لا أرى لما عملاً أصلاً ولو خبرت
لخفتها ولكنه لا سبيل الى ذلك لانها مثبتة في كل النسخ . مثال ذلك
قول إريس اذ انتدھا زفس برسالة الى هيرا واثنين بعد ان بآتمهما قوله كجاري
العادة قالت لاثينا: (ن ٨ : ٥٤١)

وأنت إباشر الكلاب وقاحةً أتلقين بالرنح الثقيل إبا الوري
فانها تجاوزت حد مهبتها وفامت بكلام بندي، لم ينة به زفس ولم يثنى
للشاعر ان اى بامثاله فضلاً عن انه كلام لا يجوز ان يوجه الى اثينا ربّة الحكمة
وحيثما ذكرها هوميروس فانه يذكرها بالمعظيم والتبجيل
ومثل ذلك قوله بلسان فطرقل في الشيد السادس عشر (ص : ٨٥٢) متهمكاً
على فديون وهو هو قتيلاً من مركبته الى الارض :

وهكطور صاح به قائلًا : فيا للباقة كيف يجري
فلو من سفينة واثنًا الى اليم غاص للجة بصر
لصاد حليلاً ولو صدع النوى بكفى الجاهير شر الطوى
وفطرقل هذا على بسالته وعزته مثال الحلم والحصافة والدعة فلا يصح ان
ينطق بمثل هذا التهم على قتيل انقضي امره . ولا سيما انه قبل آيات اتمر صاحبه
مريون لمخاطبته عدواً بكلام فظ فقال له : (ص : ٨٤٥)

علام اخي ذا الكلام المهين وأنت بلوتك سامي النوى
أنزع أن حديد الكلام يصد الطراود يوم الصيدان
فماذا بدافعهم عن قتيل حواليه تفتك لأم بلام
ولن يرجعوا عنه حتى يضاف صريعاً لذك الممام ممام
فللحرب فعل وللسلم قول وهذا اوان الوغى لا اللغا

الساقط

ويقابل هذه الزيادة نقصان قليل في ايراد بعض الروايات مثال ذلك قصة

بليروفون فانها مبتورةٌ بترًا فسواءً التقطها هوميروس من التوراة فمثل به يوسف الصديق او تناولها من مصدر آخر فلا يأتي المطالع على آخرها الا وهو متطلع الى اسباب انحراف الآلة عن ذلك الرجل البار وقد اخفنا بهذا البحث في موضعه (حاشية ص: ٤٥٣)

المكرر

وهناك ابياتٌ مكررة قد يمكن وضعها في ثلاث مراتب :

١ ما كان واجب التكرار كالبلاغ الذي يلقى الى الرسول فيؤديه كما ألقى اليه وهو كثير

٢ ما كان جائزة وهو اما مقصود من الشاعر لبلاغته واما دخيل بقلم النساخ في احد موضعيه لكثرة تغني الناس به وانباؤه على المعنى في الموضعين .
مثال ذلك وصف اصطدام الجيشين في النشيد الرابع اذ يقول : (ص : ٣٧٥)
تَدَفَّقَتِ الاجنادُ أَيْ تَدَفَّقِي الى الحرب تجري فيلقًا إثر فيلق
كشائر امواج البحار تهبُّها من اللجج انواء بفير ترفق
بدفع بعضا بعضها فوق لبعها الى حيث فوق الجرف بالعنف نلتقي
فبعض ابيات هذه القصيدة مكررة في مثل هذا الموقف في النشيد الثامن (ص : ٥٢٠)

ومثل ذلك قوله في وصف هكتور وهو مقبل على الاعداء : (ن ١٥ : ص ٧٨٢)
افلن هاتيك المراتم مانح وهكتور الابلاء والحرب جانح
كهر عتي فاض مطعمه على مرابطه بيتتها وهو جامح
ويضرب في قلب المفاوز طامحا الى حيث وجه الارض بالنيل طامح
يروض فيه إثر ما اعتاد نفسه ويطرب ان تبدو لديه الضاحح
ويشمخ مختالا بشائق حسنه يطير واعراف النواحي سوابح
وتجري به من نفسها خطواته الى حيث غصت بالحجور المسارح

فهذه الايات بعينها واردة بوصف فارس في النشيد السادس (ص : ٤٨١)
 ٣ ما كان مكروهاً والاجر به ان يُعدَّ من باب الدخيل كقول هيرا
 وهي تستمد رافة زوجها زفس بالاغريق : (ن ٨ : ٥٤٣)

ولكننا نرثي لحال الاغريق يُييدهم المقدور تحت اليلامق
 اطعنا فلا تأتي الكفاح وانما نثمهم بالرأي خوف البوائق
 فهذا كلام سبقت اثينا فخطبت به زفس في تنس النشيد (ص : ٥١٨)
 فما بقي فعل لاعادته

واغرب من هذا تكرار خطاب اغامنون في النشيد التاسع وهو الذي
 يقول في مطلعہ

أحبائي والاقبال والصيد خلتي رماني زفس في حبائل آتيا
 فهو خطاب القاه بنفسه في النشيد الثاني (ص : ٢٥٢) وقصد به هنا غير
 ما قصد هناك ولعل ما قاله في هذا الموضع مما فقد اصله فتموض السآخ عنه بايات
 سابقة حسبوها تليق بالمقام

المعلق

ولقد أغلق علي فهم المراد من تغالفة اثينا لابنيها زفس تغالفة بلغت حد العصيان
 وهي ربة الحكمة والساداد تعرف انها لا قبل لها به ويشق عليها الخذلان فلا تأتي
 امرأ يورثها الندم فكيف قامت بعد هذا تهديد وتوعد بكلام يملؤه العنوة ثم
 ما لبثت ان استلأمت وتدججت بالسلاح لتخوط في سلك مقاتلة نهاها زفس عن
 الاخذ بيدهم فصعدت بالامر وقالت « اطعنا فلا تأتي النزال » ثم خالفت قولها
 وانتقضت عليه انتقاضاً كاد يودي بها (ص ٥٣٧ وما بعدها) - وبهذا لو كانت
 هذه الرواية في بضعة ايات اذاً ليتسر لي ان التمس للشاعر عذراً فاجزم بكونها دخيلة
 ولكنها مندججة في الرواية اندماجاً ولا سبيل الى افرازها منها الا اذا اخلت نظام سياق
 الحديث فلا بد اذاً من ان تكون من نظم الشاعر ادرجها هنا لامي غمضت علي حكمة

وخصوصاً ان الشاعر يتوخي الحقيقة في كل اقواله مريحة كانت او رمزية ويرى في كل معانيه الى بث حكمة ونشر فضيلة وليس في هذه الرواية شيء من ذلك . على انه اذا صح انتقادنا فليس بعجيب ان يشذ الشاعر هذا الشذوذ في مظنة واحدة من منظومة تملأ هذا المجلد الفغم

وعلاوة على ما تقدم ربما لا تخلو اللياذة من الفاظ بل من ابيات لعبت بها ابدي السآخ ولكنه ليس في شيء منها ما يشوه وجه تلك الخريدة العذراء فلا يزيدنا نقاد العهد الا بهاء ورواء فهي كزهره هوميروس وقومه لتوالى عليها الاعقاب وتنفضي الاحقاب وهي هي تلك الفتية العذراء ربّة الجمال الخلاب

الرأي الولفي

او القول في كونها منظومة واحدة او منظومات شتى

نالت الاحقاب على اللياذة والناس يتناشدونها ويتناقلونها وهم مُحبّون يبالغونها وانتساقها مُكبرون ذكاء تلك القريحة السائلة التي تجرّ منها ذلك المنهل العذب . فلما كان القرن الثامن عشر قامت عصابة من العلماء وانكرت على هوميروس انشاء اللياذة وما يتبعها من سائر شعره وقالت بل هي قصائد متفرقة لشعراء كثيرين رواها الرواة وعني بجمعها المشغفون بمطالعة الشعر وكان من نتيجة قولهم هذا ان هوميروس رجل وهمي خلقته تغيّلات الشعراء

ذلك ما يدعى في عرف الافرنج بالرأي الولفي نسبة الى ولف العالم الالماني وان لم يكن هو السابق الى بث ذلك المذهب . وانما نُسب اليه لانه كان اشدّ دعائه وتيسر له نشره في زمن ثوران افكار وانتفاض على كل كبير . وقد سبقه اليه افراد ذوو شأن في عالم الادب فلم يكن لكلامهم شيء من الوقع

بدأ الخوارج على هوميروس والياذة وسائر منظوماته بنشر دعوتهم في اواخر القرن السادس عشر وفي مقدمتهم كازوبون ^(١) الفرنسي فانكر وجود هوميروس

(1) Casaubon, 1559-1614 .

وكون اللياذة من نظم شاعر واحد فلم يكذباً بعباً بقوله احد الى ان مات فدفن مذهباً معه ثم بُعث ذلك المذهب على يد هيدلين فسـ اوبنيك^(١) فكان اشد من سلفه . وكأنه نبه افكار العلماء الى بحث جديد فحذا بعضهم حذوه واشهرهم مواطنه پيرو^(٢) وود^(٣) وبنيتلي^(٤) الانكليزيان وتبعهم فيكو الايطالي^(٥) فأرعى بكتابته على جميع من تقدمه . ولكن صاحب القدر المعلى في هذا الفهار انما كان ولف الالماني^(٦) فتشدد الحملة وما كاد ينشر مقدمته على الشعر الهومييري في اخريات القرن الثامن عشر^(٧) حتى فشا مذهب في المانيا وانتشر منها الى اقطار اوروبا فهدم اركان عظمة هوميروس من أسسها وعم القول بين جميع المشتغلين بأداب اليونان ان هوميروس انما هو هيـ بن بية الاغريق راوية لم تلده انى وانما ولدته قصائد الشعراء المدرسة اسماؤهم في غواض الغيب . وان ما ينسب اليه من المنظوم ليس الا مجموع قصائد عني بجمعها في زمن فيسستراؤس في القرن السادس قبل المسيح . واشتد أزر ولف والذاهبين مذهب بروح ذلك العصر المتطلع الى التشبث بكل رأي جديد . والرأي الى تفويض كل مذهب تقادم عليه العهد من اصول الدين الى اصول التاريخ حتى قواعد الانشاء . فنسج على منواله بعض العلماء كمين الالماني في مقدمته على اللياذة^(٨) وشايه زيهير الدانمركي^(٩) وهردر^(١٠) وغذفري هرمن^(١١) وولم ملرو كثيرين غيرهم ومعظمهم من الالمان مع ان

(1) Hédolin, Abbé d'Anbignac, 1604-1672.

Conjectures académiques sur l'Illiade, Paris 1715.

(2) Perrault, 1615-1686.

(3) Wood, 1692-1695.

(4) Bentley, 1661-1742.

(5) Vico, 1668-1744-Milan 1837.

(6) Wolf, 1757-1824.

(7) Prolegomena, 1795.

(8) Heyne, Leips. 1802.

(9) Niebuhr, 1776-1831.

(10) Herder, 1744-1803.

(11) Hermann, 1806.

الناغين في ذلك البوق كانوا في بدء الامر من الفرنسيين وكانهم ارادوا ان ينكروا على رجل فرد الاستثناء بتلك السلطة الفكرية فوزعوا على عامة الشعراء كما أنكروا على الملوك والحكام الاستثناء بالسلطة الحاكمة فنهضوا الى نوزيعها على الامة

ولم ينقض العقدان الاولان من القرن التاسع عشر حتى خمدت ثورة الافكار وانثنى العلماء الى اعادة البحث وامعان النظر ثم ما لبث ذلك المذهب ان تلاشى او كاد علي يد جماعة من فطاحل العلماء وفي مقدمتهم اثنريد ملر^(١) فانه لم يقصر بحثه على الفلسفة والخيال بل تعهد بنفسه جميع المواقع المذكورة في شعر هوميروس وغيره من كتيبة الاقدمين وكتب تاريخاً مطولاً لآداب قدماء اليونان توفي سنة ١٨٤٠ وهو يشتغل فيه . وقد اثبت بما جمع من الادلة وجود هوميروس وان اللياذة من نظمه . ولم يكن ولكن بأقل من ملر تفعلاً في هذا البحث فانه كتب الاسفار الطوال بتاريخ اليونان ووصف آدابهم وافاض في الشعر الهومييري^(٢) فتداعت على يده ويد ملر دعائم المذهب الولني . ولكن الذي قوضها نقوضاً انما كان غريغور نيتش وله في تاريخ اليونان المجلدات الضخمة والحجج المسندة الى البيئات^(٣)

وهكذا فان الالمان الذين شتوا هذه الغارة اثاروا من جماعتهم من تصدع لدفعها بسواعد اشد وادلة افوى . ومع هذا فلم يزل بينهم من يقول بالرأي الولني مع ان معظم علمائهم ومحققي الانكليز والفرنسيين ومُشايبي فيكو الايطالي قد نبذوه منذ طويل . وان المقام ليضيق عن ذكر اسمائهم جميعاً فضلاً عن ايراد ادلتهم فنجتزئ بالاشارة الى بعضهم ممن اشتهر بولوج هذا الباب كالاستاذ

(١) Ottfried Muller, 1797-1840.

(٢) Welker, der epische Cyklus, 1885-1849.

(٣) Gregor Nitzsch, 1790-1861.

بلاكي^(١) في كتابه « هوميروس واللياذة » والاسقف ثروول^(٢) وغروت^(٣) في « تاريخ اليونان » ، وغلادستون^(٤) في كتابه « هوميروس وعصره » ، وغينيو في مقدمة المعجم الهومييري^(٥) ولويديفوست في حواشي ترجمة اللياذة^(٦) وبرتين في « المسألة الهومييرية »^(٧)

وليس لنا في هذا المقام الضيق ان نفصل الادلة التي اوردوها ، ومع هذا فلا بد من القاء نظرة مجملة على اللياذة لاستجلاء ما اذا كان يصح القول بكونها من نظم غير واحد من الشعراء

علما بما تقدم في ذلك سيرة هوميروس ورأي المتقدمين والمتأخرين فيه انه لم يبق عمل للرب في نظر المحققين ان شاعرا يلعب بهوميروس نبغ في القرون الغابرة ونظم اللياذة والاذيسية وقد اجمعت النصوص التاريخية والاثار العادبة على انه كان بمنزلة يقصر عن ادراك شأوها سائر الشعراء فما بقي من ثم سبيل الى انكار وجوده . وانما بقي علينا ان نعلم ما اذا كانت اللياذة كلها من نتاج تلك الفرقة الوفاة

وحدتها

لقد علم المطالع اللبيب من سياق كلامنا ولا سيما من بحثنا في سلامة اللياذة من التحريف والتصنيف والزيادة والنقصان اننا اذا انكرنا على ولف مذهبه لانتظر في الانكار الى حد الاخذ بمذهب الدكتور شليمان^(٨) الالمانى الذي اثبات حقيقة الكلي والجزئي فيها واسناد كل ذلك الى

- (1) Professor Blackie, Homer and the Iliad.
- (2) Bishop Thirwall, History of Greece.
- (3) George Grote, History of Greece.
- (4) Gladstone, Treatise on Homer and the Homeric age, 1898.
- (5) Guignault, Notice sur Homère.
- (6) Leprévost, Notes sur l'Iliade.
- (7) G. Bertin, la question Homérique 1897.
- (8) Heinrich Schliemann, Ithaque, le Péloponnèse et Troie, Paris 1869;
Trojanische Alterthümer 1874;
Atlas Trojanischer Alterthümer 1875.

المكتشفات الاثرية . فاعتقادنا اذاً مقصور على ان هوميروس هو ناظم اللياذة
وانه هو ناسج بردها وناظم عقدها من اولها الى آخرها بصرف النظر عن الحقائق
التاريخية البحتة وما قد يتخللها من ساقط ودخيل

قال غروت في « تاريخ اليونان » : ^(١) « ان تعداد القبائل في الشيد الثاني
لا يمكن الا ان يكون جزءاً من كل اي انه لابد ان تكون فيه اشارة الى
حوادث مقبلة والا فاذاً أخذ منفصلاً فلا لذة فيه للسامع والاذن لاشك تمل
توالي تلك الاسماء والاعلام ما لم تكن النفس مرتاحة الى انه يرى بها الى
الاشارة الى وقائع تعقبها على الاثر . وان في آثار القوم ما يثبت ان ذلك
الجدول الجغرافي كان حتى في ايام صولون شائعاً شيوفاً عاماً حتى قيل ان صولون
نفسه عمد الى تحشية شعره فيه ليتسنى له ربح الخطر الذي عقد رهانه بينه
وبين الميغارين كما ان الميغارين اضافوا اليه شعرًا بقوي حجتهم . ومن ثم
يتضح ان اليونان كانوا قد ألفوا قبل فيسبيستراثوس بزمن طويل سماع اللياذة
منظومةً واحدةً متناسقة الاجزاء متتابعة المباني »

وهو قول لاشك سديد في بابه ولكنه لا يدفع حجة القائلين انه اذا صح
ان تكون اللياذة على سلامتها في ذلك الزمن قد لا يصح ان تكون انصلت
اليها على تلك السلامة . فدفعاً لهذا الاعتراض حسبنا ان توجه نظر المطالع الى ما اسلفنا
عن عناية الاقدمين بحفظها نقيّةً من الشوائب ولا سيما في باب « جمعها وكتابتها »
واننا موردون في ما يلي تحليلًا موجزاً لتلك المنظومة بل تشريحاً لتلك الجسم
المتناسكة فقراته المترابطة عضلاته يتضح منه انه لا بد من ان تكون منظومة واحدة
لشاعر واحد . وهو بحث لم يتصل بنا نظيره في ما طالعناه من كتب القوم

تحليلها وتشريحها

الاشخاص

خذ اللياذة وتصفح اية صفحة شئت منها واقراً حتى يقع بصرك على بطل من

(1) Grote, History of Greece, Vol II p. 157.

ابطالها سواء كان من مغاوير الكفاة او من عرض الجند ثم انتقل الى معجم الاعلام وانظر في الصفحات التي ورد فيها ذكر ذلك الرجل واقرأ ما وُصف به فيهن جميعاً فتبين انه هو هو حتى تكاد تنطق باسمه قبل ان تبلغه مهما تباينت المواقع وتباعدت الاناشيد

فهذا اخيل يبدو لك لاول وهلة قرماً عبداً وشهماً حقوداً وولياً ودوداً وصارماً عتياً ترسم حسنانه وسيثانه في تخيلتك من تلاوة اول جزء من اول نشيد وتعلم انه الفتي الغضوب بُنيت اللياذة علي وصف غضبه فلا نقرأ نشيداً منها سواء ظهر فيها ذلك البطل او لم يظهر الا وتشعر انه لا يزال تعندماً بسعير الحقد والغليظ الى ان يتيسر للشاعر تهيمته الاسباب المؤدية الى اخماد تلك الجذوة في آخر الكتاب فاذا به كما نستلزم دواعي السيادة والكرامة ساكن الجاش على رفعة نفسه وقد جمع في صدره من كرم الخلال ما يكاد يضيئ عنه ارحب الصدور وليس في الكتاب كلمة عبارة واحدة يشذ بها الناظم عن هذا المرمى وهيئات ان يتفق هذا التناسب لغير ناظم واحد

ثم انظر الى مكطور فهو حيناً رأيته حامي الدمار دقاع المارزوماً حزوماً مقدماً عن غير طيش ورعاً عن صدق عقيدة ذا ذكاء ونيرة يتمسك من دينه بالحق بمجهوداته وينبذ ما دون ذلك من خرافات القوم . يعلم انه عماد قومه فيسير سير الزعيم المأموم ويحسن الذود والكر والابلاء ولا يفتأ على المثال الذي صور به الشاعر حتى يذهب شهيد الدفاع ويموت ميتةً يحسد عليها .

واذا انتقلت من هذين الزعيمين الى سائر ابطال اللياذة وتأملت كل رجالها ونسائها رأيت ان الشاعر رسم لكل رسم لا ينفرد فيه بشيء عن الوضع الذي وضعه له سيان ذلك في اول الكتاب وآخره

فاغاضمون الامير الخطير والقائد الكبير

وانياس البطل الوريع والخليف الباسل

واباس زب بأس فعّال غير قوّال

وذوبميد الفقى المقحام يهون له نزق الشباب ركوب الاموال
ونسطور الشيخ الحكيم حنكته صروف الايام
واوذبس الداهية الدهاء والبلية الصباء
وفطرقل الفقى الكريم واغلل الحميم
وفريام الملك الصبور والمهرم الوقور
وفاريس العاشق المتأنق
واندروماخ الزوجة الامينة
وايقاب الام الحنون
وهيلانة الفتاة الغالب هواها على قواها الشاعرة بسوء المصير
واذا نظرت بعد ذلك الى غير من تقدم ممن كثر ذكره او قلّ تهيأت
لك النتيجة نفسها
فاغينور في النشيد الرابع هو نفسه ذلك الخراب في النشيد الحادي والعشرين
وانطيلوخ في النشيد الرابع هو نفسه ذلك الشاب المزوم المتسرّع في النشيد
الثالث والعشرين
وقل مثل ذلك في ماخاوون وطبة وهيلينوس وعرافته وفينكس وصداقته
ومريون وامانته وهلم جرا . وقد تأتي على تلاوة اسم ذكر بطريق العرض فلا
نرى له شأناً خاصاً ثم اذا أعيد ذكره بعد مئات او آلاف من الايات
رأيت على صفته لم يتغير بشيء عما ذكر به للمرة الاولى وقد لا يرد ذكره سوى
مرتين او ثلاث . مثال ذلك أذميت وافريميدون وافروطسيلات وانفياش واقطور
واقلونيّس واكلاس والقميد وامفياخس وثرسيلوخ وثواس وامثالهم كثيرون

الاعلام الجغرافية

ثم اذا تناولت البلدان والجبال والوهاد والبحار والانهار رأيت انه اتبع
تلك الخطة فما ناقض نفسه بكلمة مما وصف به بلدة او علماً جغرافياً ودونك

بعض الامثلة :

فأرسية لاصق ذكرها بنهر سليس وزعيم جندها اسيس بن هرطاقس في
النشيد الثاني وفي الالف الاولى من ايات الليادة وهي ونهرها وزعيمها بعد
اربعة آلاف بيت في النشيد الثاني عشر

وبهراسا هي البلدة الكثيرة الانعام وهي موصوفة بذلك في النشيد الحادي
عشر في منتصف الكتاب ويتكرر ذكرها بنفس الوصف في النشيد الثالث
والشرين اي بعد نحو من خمسة آلاف بيت عربي او ثمانية آلاف شعر يوناني
وتيندس البلدة المقدسة الموالية لآفلون وهي كذلك في غير موضع

وان المجال ليضيق عن امثلة ما تقدم فانها تفوق الحصر وقد توخينا في
الامثلة الثلاثة السائفة الذكر بلاداً قليلة الشهرة فاذا كانت وحدة المرمى فيها
هذه فما بالك بالمدن الشهيرة كالليون

وقل مثل ذلك في البحار والانهار كالاقيانس وزنثس والاسكندر وكل
ما في الليادة من بيس وماه

واذا اردت اجمالاً سهلاً لهذا التفصيل نغذ القسم الجغرافي في النشيد
الثاني واقتطع منه اية مملكة شئت من ممالكهم واسماء زعمائها ثم تصفح المعجم
فاذا رأيت تلك الاسماء قد تكررت ذكر شيء منها فانما يتكرر بما لا يشد عما مر
امامك هذا اذا لم ينطبق عليه كل الانطباق ولو فصلت بين الموقعين الاناشيد الطوال

ارتباط اجزائها

ثم اذا تأملت تماسك اجزاء الليادة وارتباطها ببعضها ببعض رأيت ان ناظم
النشيد الاول انما هو ناظم النشيد الاخير فكأنما هي مرقاة يصعد بك صاحبها درجة
بعد اخرى حتى تستقر في آخرها وأنت متبين كل ما وراءك فاذا بدأت بخصام
اخيل واناء منوت تطاعت الى ما وراء ذلك الخصام فيسطه لك الشاعر بسطاً
يزيد ايضاحاً كلما خطوت خطوة . فهناك تجدال وخشية قتال وحنق واعتزال



اللياذة - ارتباط اجزائها

ووساطة رجال وينتهي الامر بما ترتاح اليه .نفسك شأن القصص الذي يروي
لك خبراً واحداً بنفس واحد

واذا امنت في تواد اخيل وفطرقل بدا لك من خلال الفصول الكبار
صديقان حيمان يتوادان فيتراقان فيغضب احدهما لغضب الآخر فيتواليان في
السراء والضراء واذا مات احدهما فلا تنقضي احزان الآخر حتى انقضاء حياته
وكل ذلك بمحدث طويل نخله احاديث اطول تكاد تشط بقائل واحد عن
تلك الخطة المرسومة فما الظن لو تعدد القائلون

وقس على ذلك جميع حوادث اللياذة

واذا رجعت بعد هذا الى اعظم مظنة لاعتراض المعترضين وهي الصاق
النشدين الاخيرين باللياذة رأيت انهم انما اتوا باوهن الحجج كما اثبتنا مسهبين
في مقدمة النشيد الثالث والعشرين (ص : ١٠٥٣) فلا نسوق البحث هنا الا
في ما لم يسبق لنا ذكره في ذلك الموضع

خذ الالعاب في ذلك النشيد وانظر الى ارباب كل ضرب من غروبها تر
انها لم تلتصق باللياذة الا لكونها جزءاً طبعياً منها . وان المبارزين فيها لم
يكن يضح سواهم لوقوف كل منهم موقفه

ففرسان السباق افيل وهو الذي قيل في خيله في النشيد الثاني (ص : ٣٠٣) :

أجود الخيل عندهم تلك احجا رلدى ابن ابن فيرس افميل

قد تساوت قدياً وسناً ولوناً وجرت كالطيور فوق الطلول

وذويمذوله مطهما آنياس وقال عنهما الشاعر في النشيد الخامس (ص : ٣٩٩) :

وامض وانتذ مطهمي آنياس خير ما في الدنيا من الافراس

والحق نسبتها هناك بيجياد زفس ابى الآلهة . ثم لما ابرز الشاعر ذويمذ في

حلبة السباق اعاد تلك الذكرى

ومنيلاوس وهو زوج هيلانة واخو اغامنون والمتسبب بحرب طروادة

وانطيلوخس بن نسطور الفتي الباسل صديق اخيل

ومربون الحوذى الماهر . وهم جميعاً أجدر الفرسان بخوض ذلك الميدان
وانّ ما قيل في السباق يمكن اطلاقه على النضال والطعان والحضر
والصرّاع وغيرها

فلسفتها وآدابها

واذا امعنت النظر في فلسفة الشاعر وخلائقه وآدابه رأيت انه رعى فيها كلها
الى امور خاصة برجل واحد فهو وان جارى ابناء زمانه في كثير من عاداتهم
ومعتقداتهم فقد خالفهم في امور اخرى لسلامة في ضميره ونظير بعيد في تربيتهم .
وهو حيثما جازاهم فلا يخوف في مجاراهه وحيثما خالفهم فقد راعى ما انطبع عليه
من آداب النفس التي جعلته ارقى اهل زمانه : — فعصره عصر فسق وبغور
وقد شجبهما حتى في نفس الآلهة (ص : ١١٠٧) وزمنه زمن بطش بالاسرى
وقد طعن بقتلتهم (ص : ١٠٦٦) وحسبك في هذا الباب ان تنصفح المواضع
التي افاض بها بمدح المرأة وأقى على اطراء صفات الامهات والزوجات والبنات
والاخوات حتى السيئات في قرن كانت المرأة فيه من جملة المتاع وساعة تُتشرى وتباع
وهناك أدلة كثيرة افاض بها الشراح بالنظر الى التاريخ واللغة مما يضيّق
دونها المقام

سبب الريب

ولا بد لنا في ختام هذا الفصل من كلمة بشأن منشأ الارتياب في آراء
كثيرين من الكتبة والمؤرخين
ان مظان الريب كثيرة في الكتب القديمة التي بين ايدينا ووجوه الاعتراض
دائمة في بعضها حتى بتعذر في بعض الاحاين ارجاعها الى اصل معلوم او
مؤلف معين . وعندنا من امثال ذلك كتاب الف ليلة وليلة وقصة عنزة العبي
واشباههما ولهذا تطرفت زمرة من المشتغلين في التاريخ والآداب الى انكار كل

قديم وبث الرب حتى في وجود مسميات واشخاص تكرر ذكرها في التاريخ وثبت وجودها ثبوت الشمس في رابعة النهار . فهل نعجب بعد هذا اذا تصدت فئة منها الى انكار هوميروس وقد انطوت عليه آلاف الاعوام وهذا فوريل ^(١) الباحث في آثار القدماء ينكر على الفردوسي هوميروس الفرس نظم الشهنامة والفردوسي ابن الامس بالنسبة الى هوميروس وشهنامته قبله الفرس في غدوهم وآصالم واذا سألت اصغر صغير فيهم فصل لك تفصيلاً كيف نظمت ولن نظمت وما كان من امر ناظمها بجهاته وبعد مماته

اللياذة ومعارف عصرها

اذا قال الشغراء ما احرى هوميروس ان يكون امير الشعراء قال العلماء وما احرانا ان نتخذ ديوانه خزائن نضد فيها معارف عصره من علمٍ وادبٍ وصناعةٍ وتاريخٍ فقد صرف الادباء نظرم عن جميع من تقدم من شعراء امته ولقبوه ابا الشعر واتخذ العلماء والمؤرخون اقواله حجة يرجعون اليها في استقصاء علوم القدماء

وليس في الامكان بسط الكلام على جميع ما افاضوا به في هذا الباب وانما نلّ به المأمور موجزاً مع ايراد امثلة بسيرة نظنها وافية بالمرام . وتترك البحث في الشعر وادبه الى ما يلي من النصول

اللياذة والتاريخ

لا شك ان هوميروس استقى من موارد طمس الزمان ذكرها فنقل ولا نعلم عمن نقل ودون حوادث كثيرة مما اثبتتها الاثر وما لم يثبتها ولكن ثبوت البعض يرجح في الظن ثبوت الكثير مما بقي . وقد اشرنا في الشرح الى نبذ من الحوادث التاريخية التي لم يذكرها المؤرخون . فهو بهذا الاعتبار اول

(1) Fauriel, l'origine des epopées chevaleresques, 1836.

المؤرخين في قومه . وان هيرودوتس الملقب بابي التاريخ يستمد من معارفه ويستشهد بقوله كلما أغلق عليه امرٌ واضطر الى اثبات حجة . واذا رجعت الى مؤلفات جميع المؤرخين من اليونان والرومان والافرنج رأيتها مرصعة ترصيعاً بالشواهد الموميرية مما يثبت لك علو مكانته في التاريخ

اللياذة والجغرافية

اذا قيل ان هوميروس هو اول مؤرخ قيل ايضاً ان قدمه في الجغرافيا ارسخ ومنزله ارفع فهو واضع هذا العلم وعلمه الاسنى اذ تعهد بنفسه معظم المواقع التي ذكرها ووصفها وصفاً لم يسبقه اليه المتقدمون ويكاد المتأخرون بقصرون عن الاتيان بمثله . وحسبك الرجوع الى القسم الجغرافي لتعلم انه لم يكن لجغرافي ان يلم المامه بهذا الفن حتي اليوم . وان اسطرابون ابا الجغرافيا بعده يعترف له بالفضل والسبق^(١) وجميع مباحثه مؤيدة بشواهد من الشعر الموميري حتى لقد يمكن اعتبار جغرافيته شرحاً لمتن ثلاثة ارباعه في اللياذة واكثر باقيه في الاوديسية . وقد حدا في حب الاستطلاع يوماً الى عدد الشواهد التي اخذها اسطرابون من منظومتي هوميروس فاذا بها مئتان وتسعة واربعون بيتاً من اللياذة ومئة واثنان عشر بيتاً من الاوديسية ما خلا الايات المكررة في عدة مواضع وما ادراك ما يمكن ان يكتب من الشرح على هذا المتن الطويل

اللياذة وسائر العلوم

أفردت في معجم اللياذة باباً لكل من العلوم التي طرق هوميروس ابوابها والحقته بهذا الكتاب وعيئت فيه الصفحات التي ورد فيها ذكر العلم المراد ارشاداً للمطالع

وسترى منه ان اللياذة اشبه بدائرة معارف جمعت بين سطورها جميع

علوم العصر

الطب

فاذا اخذت الطب مثلاً رايت موميروس أَلَمْ بجميع علومه من جراحة وتشريح وفسيولوجيا وبحث في النبات والعقاقير والصيدلة والعلاج ووصف الامراض والاوبئة

الفاك

واذا طلبت الفاك وعلم الهيئة ذكر لك كلاً بلغه منها علم زمانه فوصف السماء والابراج وتطرق الى التنجيم فبحث في تأثير طولع النجوم . وذكر الظواهر الجوية وفعلها في الاحياء

الحرب

واذا تطلعت الى الحرب والفنون العسكرية افاض لك بتفصيلها افاضة تُدهش لها فصل لك مواقف الجيوش وحركاتها بهجومها ودفاعها وزحفها وتمبثتها . وابان لك اسباب الظفر ووجوه الاندحار . ووصف اركان الحرب والتمرين العسكري والحرس والكمين والمبارزات . وبحث في الاسرى والاسلاب والبدل العسكري والتدريس والجواسيس وديوان القضاء في المعسكر والعيون والارصاد والطلائع . وبين احوال الحصار واقامة الحصون وحفر الخنادق . ولم يغفل عن ذكر الخيم والمضارب وارزاق الجند واطاعه . ولم يغادر شاردة الا قيدها حتى الراية والنيران والرقص الحربي والالعب العسكرية

ثم فصل لك انواع القتال واصناف الاسلحة والدروع فوصف الشكّة والخلود والمغافر والتروس والرماح والسيوف حتى القنوس والمخازف والنجارة

السياسة والحكومة

واذا تطرقت الى السياسة بحث لك في الحكومة والملوك وسلطتهم وما يعرض

لهم وعليهم . وموقفهم تجاه الرعية وبالعكس . وحذر من الفوضى . وذكر خدع السياسيين وجبلهم . وأشار الى الشرائع والمجالس والخراج والاقطاعات . واحاط باحوال الوفود والسفراء والتحالف والتعاهد والخطابة في الرعية

الدين

واذا رغبت في الوقوف على دين القوم اسهب لك بذكر معبوداتهم ونسبتهم الى العباد ونسبة الخلق اليهم . ووصفهم فرداً فرداً بين ذكر . واثني واوضح صفة كل منهم بنفسه وبالنسبة الى زملائه وحياناً لك مزايام كباراً وصغاراً . وقسمهم الى طبقات ودرجات مع بيان منزلة كل طبقة على حدة . واثني على ذكر العبادات والصلوات والفضايا والادعية . ووصف الروح ومصيرها وبحث في عالم الارواح وسائر ما يتطلع اليه الراغب في الوقوف على احوال العبادة في ذلك الزمان

الفنون وسائر الاعمال

وقل مثل ذلك في الفنون الجميلة من نقش وغناء وموسيقى وتصوير وكل منقول ومعقول من معارف الانسان واعماله كالحرث والزراعة والتجارة والمعاملات حتى العرافة والعيافة والكهانة وتفسير الاحلام

اللياذة والصنائع

وكان هوميروس عني عناية خاصة بصناعات زمانه فاسهب بوصف الكثير منها اسهاباً تخال اذا قرأته انه كان ينتمي الى كل فريق من الصنائع
فبينما تراه وشّار سفن اذا به صانع مركبات وبينما هو تجار حاذق اذا به بناء ماهر ومهندس . ثم تخاله صيقلأ وحداًداً وحفاًراً ونقاشاً وخرطاطاً وصباغاً وصائناً . وليس هو باعمال النساء اقل الماما منها باشغال الرجال وحسبك من هذا تطريزه وغزله ونسجه وحياته



سبب حياتها وخلودها

لم يكن هوميروس اول من نظم الملاحم او منظومات الشعر القصصي ولا
مبتدعاً لطرق انشادها واساليب ترصيعها بشواهد العلم والتاريخ . فتلك سليقة الفتها
امته واكثر الامم في غوامض ايام البداوة والجاهلية . وقد حسبوا لمن تقدم
من شعراء اليونان سبعة منظومة كملحمتيه منهما الياذنان الكبرى والصغرى
واوديسية واحدة وقد بادت جميع تلك المنظومات ولم يبق على مكافئة الزمان
سوى تينك المنظومتين فقد بقيتا كلولتين برأفتين في قلادة الادب وكسفا
باشعتهما سائر ما بقي من نظائرها وخلدنا لليونان مجداً لا يحويه لقادم العصور
وكرور الدهور

ولم يشع شيوعهما بين البشر شيء من المنظوم والمنثور الا كتب الدين ولا
تزالان كما كانتا منذ ثلاثة آلاف عام في المقام الاول بين نتاج القرائح
وليس ما تقدم من ابداعهما خلاصة العلم والسياسة وتوابعهما من اسباب ذلك
البقاء في شيء فان طلاب العلم ولا سيما في العصور الغابرة فئة ضعيفة تطلب
العلم من ابواب اخرى لتلقنها من كتب وضعت لها . والعلم كل يوم في شأن
يتقلب ويتغير وينحط ويرتقي فما صالح منه في الامس لا يصلح في الغد وما
كان منه في اليوم صواباً ساطعاً اصبح بعده خطأ فادحاً . فلا بد من ان تكون
ثمة اسباب ثابتة مغرسها في النفس ومنبتها في القلب لا تتغير بتغير زمان ولا
تتأثر بترق وحضارة

فان هوميروس انما نقر على اوتار الافئدة فأثارها . ونفخ في بوق الارواح
فاطارها . ومزج الحقيقة بالخيال مزجاً يخيل لك انها تألفا فبحالها . وسبر اعماق النفس
في سذاجتها . وتحرقى الفطرة في بساطتها . وهاج العواطف والشعائر وتكلم بجلاء
لا تشوبه مسحة التكلف فأسهب موضع الاسهاب واوجز موضع الابهاز ومثل تمثيلاً
ناطقاً وفصلاً تفصيلاً صادقاً عن عقيدته واخلاص

واذا اضفنا الى ذلك بلاغة الشعر وتناسق النظم ودقة السبك ورقة المعنى والسهولة والانسجام ذهبت عنك غرابة ذلك الخلود
قال غيزو (١) « وان ما يرى في شعر هوميروس من مزج الخير بالشر والضعف بالقوة . واتحاد الافكار والمشاعر بمظاهر مختلفة . وتنويع الافكار والاقوال . وبسط احوال الطبيعة والافئدة على انماط متباينة كل ذلك يث الاميال الشعرية بما لا يماثل مثيل لان فيه اس كل اساس وحقيقة الانسان والعالم » - وعندي ان من اقوى عوامل البقاء في اللياذة والاذبسية مع استجماع ما تقدم من الاسباب ان بذورها وفدت من كنف صالحة على ارض صالحة اذ نظمنا بلغة سهلة في عصرها فلم يكن يفتق فهم شيء من معانيهما على اقل الناس علماً فشغف بهما القوم وتناولوها وتناقلوها وحرصوا على ادخالها لانهما مستودع الجمال والمرة حريص على استبقاء كل جميل

انتشارها ونقلها من اليونانية الى سائر اللغات

اللاتينية

كان انتشار اللياذة بين اليونان كانتشار نور الشمس عند بزوغها فساكن يبرق منها بارق من فم الشاعر حتى يتهاوت عليه كل رفيع ووضيع . ثم ما لبث ان تطرق هذا التهاوت الى الرومان فنقلوها الى لغتهم وترنموا بانشادها وشد شعراؤهم على النقاط دررها . وتحذت معانيها حتى اقاموا على تلك المعاني دعائم منظوماتهم الكبرى وفي مقدمتهم قرجيليوس كبير شعراء اللاتين

الهندية والفارسية

وقد روى اليانوس المؤرخ (٢) ان الهنود نقلوها الى لغتهم وان ملوك الفرس كانوا يتغنون بها بالفارسية . ولعل الفردوسي استمد منها كثيراً من معاني الشهامة واتخذ اللياذة مثلاً لمنظومته الغراء

(١) Guizot, Cours d'Histoire moderne, 7me Vol. I p. 285.

(٢) Aelian, l. 12 Cap. 48.

السريانية

ولم تكن سائر الامم اقل شغفاً بها فعلق بها السريان كغيرهم ونقلها ثاوفيلس
الرهاوي الى لغته شعراً (انظر ص : ٢٦٥)

لغات الافرنج

ولا تسل عما كان من علق الافرنج بها فقد نقلت مراراً شعراً ونثراً الى
كل لغة من لغاتهم حتى صارت اشهر كتاب عندهم جميعاً وطبعت كل ترجمة
منها مراراً عديدة

واشهرها ترجمة جيزارتي^(١) ومنتي^(٢) الى الإيطالية . ومُنْبِل^(٣) الى
الفرنسوية . وفوس^(٤) الى الألمانية وپوپ وچاپمن وكوير^(٥) الى الانكليزية .
واصدق هؤلاء النقلة منتي وهو وپوپ ابانهم شعراً

اغفال العرب نقلها الى لغتهم

كان العرب من احرص الملل على علوم الادب واحفظهم للشعر واشغفهم
بالنظم ومع هذا فلقد يأخذك العجب لبقاء اللياذة متعجوبة عنهم وهي منتشرة
هذا الانتشار بين قبائل الارض ومنظومة بلغة سامية كلغتهم يتناشدها
الادباء المقيمون بين ظهرانهم في مقر الخلافة العباسية

وان لذلك اسباباً اذا تبينناها زال العجب لاغفالها في ماسلف مع وضوح
الحاجة الماسة الى تعريبها في هذا العصر . وان مرجع تلك الاسباب الى ثلاثة :
الدين واغلاق فهم اليونانية على العرب وعجز النقلة عن نظم الشعر العربي

(١) Cesarotti.

(٢) Monti.

(٣) Monbel.

(٤) Voss.

(٥) Pope, Chapman, William Cowper.

الأيادة والنصرانية

اشرنا فيما مرّ الى اقبال أم اوروبا على الشعر الهومييري وقتلنا (ص : ٢٤)
لم يثقل اقبالن فتور الا عقود اعوام معدودات في بدء النصرانية . فاذا
خذل المسيحيون هوميروس وهو معروف عندهم وبذوا شعره وهو متلو في مجالسهم
فما احرى المسلمين في اوائل الاسلام ان يطرحوه ولا اثر له في اذهانهم ويعرضوا
عن اقواله وهم لا يعرفون منها شيئا

كان هوميروس في ذروة مجده في الممالك الرومانية عند انتشار الدين
المسيحي فكان لا بد من نقويض اركان الوثنية وهي ممثلة اصدق تمثيل في
الشعر الهومييري فبات اغفال ذلك الشعر ضربة لازب لحداثة عهد المسيحيين
بدينهم ولزوم اخذهم به موردا صافيا لا تشوبه اساطير السلف من عبدة الاوثان .
ولكن بعض الدعاة غالوا في اتخاذ الطرق المؤدية الى تلك الغاية فاتهموا
هوميروس بابتداع البدع وتحريف آية التوراة ليصوغ منها ما وافق مذاهب
قومه من القصص المستنبطة منها كقصص الطيطان وطاردم من الجنة وتلبس
فرسيس بصورة موسى في أول امره . ومماثلة بليروفون ليوسف الصديق . وامثال
ذلك مما اشرنا اليه في الشرح . ولهذا كانوا ينادون بتعريبها خشية من ان تفسد
عقيدة الناشئة المنتصرة . وكان من لوازم قولهم ان هوميروس لم يكن الناقل
لخرافات الاولين بل الواضع لها المنادي بها

تلك كانت الحال بين عامة المسيحيين . واما علماؤهم كالقديس ايرونيوس^(١)
فما زالوا مكبّين على تلاوة اشعار هوميروس معجبين ببلاغتها وسمو معانيها
وما رسخت قدم النصرانية في البلاد حتى افرجوا عن هوميروس والأيادة
وسائر منظوماته فانطلقت تلك الخرائد من عقلاها وبرزت بجلل قشبية فعادت
الى اختلاب الالباب في مجالس الآداب

(١) Saint Augustin, Confess. l. I. cap. 140.

اللياذة والاسلام

وانّ ما قيل عن النصرانية في نشوءها يصدق على الاسلام في قرونه الاولى
اذ لا ريب ان ائمة الامة لو فرضنا وقوفهم ذلك الحين على تخويات اللياذة
لما ارتاحوا الى بثها بين العامة لئلا تكون من مفسدات الايمان
وزد على ذلك ان العرب لم يكادوا يخرجون من مهابة البداوة حتى ملكوا
الامصار وانتشروا في سائر الاقطار واسسوا الممالك الكبار . وما استقر الملك
للامويين في الشام حتى بدت لهم الحاجة الى استخراج كتب العلم . وما نوطدت
دعائم الدولة العباسية في العراق حتى نظم الخلفاء مجالس النقلة لتعريب علوم
المتقدمين من الفرس والهنود واليونان . فلاح لم انهم اخرجوا الى العلوم منها الى
الشعر والادب وكانت حاجتهم الكبرى الى علم الطب ثم الى علم الكلام للمناضلة
عن الدين فعمدوا الى تعريب طب ابقراط وجالينوس وفلسفة ارسطوطاليس
ونظائرهما واغفلوا اللياذة وجميع ما يجري تجريها من كتب الشعر والادب
ثم انه ليس في لغات الارض لغة يربو شعرها على الشعر العربي ويزيد
شعراؤها عدداً على شعراء العرب وهم جميعاً مخلصو الاعتقاد في شعرم
ورعين في تعبده فلا يخالون في الامكان وجود شعري اعجمي يجاري قصائدهم
بلاغةً وانسجاماً ودقةً واحكاماً

فهذا ايضا كان من دواعي تقاعدهم عن الاقبال على شعر الاعاجم اكتفاء بما
لديهم من درر ذلك البحر الزاخر

على انني اعتقد انه لو طال زمن عظمة الدولة العباسية او لو تأخر زمن
تبوء المأمون اربكة الخلافة جيلين لكانت بعض مقاطيع اللياذة نثلى الآن في
اندية الادب . ولا يطعن بهذا القول قيام دولة الاندلس بعد حين واشتغالها
في الادب فان الامويين الاندلسيين تفتنوا بأداب العرب ورقوا درجات في
مرقاة الشعر ولكنهم لم يضاهاوا العباسيين في بغداد بشيء من اقبالهم على النقاط فلسفة

الاعاجم وتعريب كتبهم
وبعد هاتين الدولتين لم تقم للعرب دولة حريصة نظيرها على اختزان العلوم
من مخاضها وادخار الاداب من مناشئها . فان كلاً من دولة الفاطميين بمصر
ودول المغرب كانت منصرفة الى مشاغل اخرى فضلاً عن قلة النقلة في ازمائها
من المتضلعين في لغات الاعاجم فوق لغتهم

نقلة العرب

وهناك ايضاً حاجزان طبيعيان وقفنا عقبةً مماء في وجه تعريب اللياذة
شعراً في القرون الاولى ولعلمهما لا يقلان شأنًا عن حواجز الدين او يزيدان وهما
اولاً ان معربي الخلفاء كابن الخثمي وابن حنين وآل بختيشوع لم يكونوا
عرباً وان تفقهوا بالعربية على انسانيتها فلم يكن يسهل عليهم نظم الشعر العربي
وهم انما كانوا ينظر العرب علماء اكثر منهم ادياء وان كانوا حريصين على اداب
لغاتهم حتى حلوا جيد السريانية بقلادة اللياذة منظومة شعراً كانوا يترغنون به
في مجالسهم . ولا يشذ عن هذه القاعدة الا قليلون معظمهم من الفرس الذين
تفرغوا لاداب العرب فبرزوا فيها كابن المقفع وهؤلاء ايضاً لم يكونوا في
عداد الشعراء

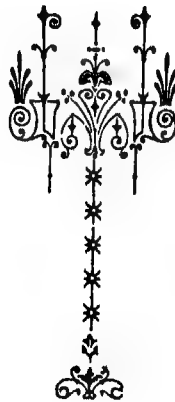
وثانياً ان شعراء العرب انفسهم لم يكونوا يحسنون فهم اليونانية فلم يكن فيهم
من يصلح لتلك المهمة

وان قيل ان عجز النقلة عن الاجادة في نظم الشعر العربي لم يكن مانعاً من
تعريب اللياذة ثراً كما عُرِبَت الشهامة الفردوسي قلنا ان الارتباط بين الفرس
والعرب كان اكثر منه بين العرب واليونان وشتان بين ناظم اللياذة وناظم
الشهامة . فذلك من عبدة الاصنام وهذا من ادياء الاسلام . ومع ذلك فلم يبق بين
العرب من تجرد لتعريب الشهامة الا بقيام ملك يحسن فهم العربية والفارسية
طرب بتلاوة الاصل فأراد ان يطرب امته بتلاوة التعريب فوسّع بالرزق على

رجل نوسم فيه الكفاة وهيئات ان يتيسر ذلك في غير تلك الحال (١)
ثم انه لا يخفى ان الشعر اذا ترجم نثراً ذهب رونقه وبهت رواؤه . والظاهر
ان هذا الحكم انطبق على تعريب الشهامة فأهملها الناس والا فما ذهبت ضياعاً
وبقيت اثرًا بعد عين نقرأ عنها في كتب التاريخ وليس في الادباء من روى لنا
منها حديثاً مذكوراً

وخلاصة القول انه مهما يكن من الحوائل التي كانت تصد الادباء عن نقل
اللياذة وتحول دون ابرازها للعامة فما بقي لتلك الحوائل اثر في زمننا بل صار من لوازم
العصر لباسها حلّة عريضة تجاري بها لغتنا لغات ابناء الحضارة وخصوصاً
ان ما فيها من اساطير دين الوثنية قد باد اثره فصار من المحنوم ان يبقى خبره
عبرة للمعتبر

(١) نقل شهامة الفردوسي الى العربية النجيب بن علي البغدادي الاصبهاني نثراً
للكل المعظم عيسى بن العادل ابي بكر الابوي واتم ترجمتها سنة ٦٧٩ (كشف الظنون)



التعريب

حكاية العرب في تعريب الياذة

سألني الملم الفخير من اصدقائي الادباء كيف عربت الياذة وما حداني الى تعريبها فكتبت الفصل الآتي ولعله لا يخلو من فائدة لمن قضى عليه ان يسير في مثل هذه العقبة

كلفت منذ الصغر بمطالعة الشعر القصصي ولا سيما ما تعلق منه بالخيالات وعبادات الاندمين . ولما كانت لفتنا تكاد تكون خلواً من ذلك الشعر وفروض الدروس تستنزف الوقت ولا تبقي معها بقية لقراءة ما شذ من مثل ذلك عن معيناتها فتحول دون اسقاء المياه من مواردها كنت اللقط ما سقط عرضاً من افواه الاساتذة او ورد شاهداً في كتب التدريس . فاجتمعت لدي نبتة ضمنتها بعض قصائد لثقتها ولم أتم العقد الثاني من اعوام الحياة . ولا يطالبني المطالع اللبيب باهتله من تلك القصائد فحسبي هزه نفسي بي دون هزه اذ لا اتمالك من الضحك كلما خطر على البال شيء مما علق في الذاكرة . فهناك يوم مخبط اخلطت فيه آلهة الكلدان بآلهة اليونان والرومان وأنزلت معبودات مصر موضع معبودات الهند والصين واشتبه الذكور بالاناث والتبست الاعلام الافرنجية بالاسماء اليونانية على نحو ما دون الكتبة في كثير من اخبارهم عن ام القرون الخالية . وهذا ولا بدع بشأن كل كاتب تطاول الى فن دخله من غير ابوابه فلما حكمت نفسي واصبحت متصرفاً مطلقاً في استعمال اوقات العطلة ادركت انني لم اعرف شيئاً مع سابق الظن بسعة الاطلاع فانتهيت الى حيث كان يجب ان ابدي . فعمدت الى تلك المنظومات ولم اكن بعد قرأت شيئاً منها قراءة صحيحة ما خلا « الفردوس الغابر » لما نأى وقرأت جميع ما وصلت اليه كل كتاب بلغته اذا كنت من قرائها والا فترجمته الى لغة اعرفها

وكنيت كلما قرأت منظومة من المنظومات القديمة والحديثة زاد إعجابي بالإلياذة لأنها وإن كانت أقدم عهداً فهي لا تزال أحدث من رونقا وإبهماً رواة واكثرهم جلاءً وأوسمهم مجالاً وأبلغهم جميعاً . نسج صفوة الشعراء على منوالها فلم يلفروا شأواً وما واستنقوا من بحرهما فملاً وبجاءهم ولم ينقصوها شيئاً

فقلت ما أخرى لفتنا العربية أن تحوز مثلاً من هذه الدرة القيمة فهي أولى بها من تناولها من ملل الحضارة . فليس في شعر الأفرنج ولغاتهم ما يوفر لها أسباب البروز بحجة أجل مما تهبثه معذرات لفتنا . فالشعر اليوناني بلغه قرية إلى الفطرة كلفتنا والبحث في جاهلية قوم كجاهليتنا . وليس في شعراء مائة من الملل من انطبقت معانيهم على معاني الإلياذة بالحكمة والوصف الشعري كالمتقدمين من شعرائنا

فناجيتي النفس بتعريبها مع علمي بخطورة الموقف ووعورة المسالك وطول الشقة وقلت تلك ملهة تقضى بها اوقات الفراغ . فإذا فجع الله وفسح في الاجل زففتها إلى القراء . والا فلا اقل من ان اروض نفسي بها وهي خير ما تروض به النفوس . وعزمت منذ نظمت اول بيت منها على ان لا اغادرها حتى آتي على آخرها

تعريب الأصل

فقطعت لنفسي خطةً وقلت لانظمن منها امثلةً من حيث اتفق لي واعرضها على الادباء فانتم ما يكون من وقعها في النفوس واتبين مواطن الخلل فغير لي ان اتبينها قبل التوغل في العمل . فتوكلت على الله وعمدت الى ترجمة فرنسية منها كانت بين يدي والقيتها الى جانب ترجمة انكليزية واخرى ايطالية وفتحت الكتاب الفرنسي من تليد الاول فاذا باخيل واغاممنون يتخاصمان واخيل ينهال على اغاممنون بالسباب والشتيمة فنظمت الايات التي مطالها :

يا مليكاً بنشوة الراح مُثَقِّلٌ ٠٠٠ (ص ٢٢٢) فعربتها على الطريقة المألوفة في النظم وكانت اول ما نظمت من الإلياذة . وذلك في اخر ايام سنة ١٨٨٧ بمصر القاهرة . ثم فتحت الكتاب من تليد الثاني فاذا بي في معترك عفيف في اول النشيد الخامس عشر فنظمت القصيدة التي مطالها :

تجاوزت الطرود حد الخنادق يصلهم فيها حسام الاغارق
فكانت قصيدة طويلة توثقت بها من اتساع اللغة للمعاني والقوافي ونهجت
فيها نهجاً جديداً مما كنت اعددته في ذهني وستراه مفصلاً في باب « النظم
في التعريب »

ثم فتحت الكتاب من ثلثة الاخير فاذا بي في الصفحة الثالثة من النشيد
الثالث والعشرين فرجعت الى اوله ونظمت منه نحو مئة بيت رجزاً مصرعاً
ومقتني على أسلوب استحسنه وحببته وافيًا برامي لتعريب كل النشيد على سياقه
فعلت جميع ما جمعت لدي من القصائد الثلاث بسوداتها وجعلت اعرضها
على من زارني وزوته من الادباء والشعراء ممن اُلف الشعر المصري ومن نشأ
على انتهاز الشعر القديم فاستحسنوا وجاملوا فردت بما ملتهم نشاطاً . وانست من
بعضهم رية وخشية علي من الملل والقنوط لوفرة ما يتبع هذا العمل الشاق من
العناء القادح وكثرة ما يستلزم من النفقات لو مثل بالطبع وليس قرابة العريية
وطلاب امثال هذا الكتاب ممن ينشط على المجازفة بمثل تلك النفقات وشق
النفس وضياح الاوقات : — على ان ذلك كان اقل ما تجزع له نفسي اذ
اقدت وليس بي جشع للربح من وراء هذا العمل بل انا راض بالخسارة لو
حصلت ليس ذلك ترفعاً عن الكسب ولكن لغرام في النفس تستسهل الصعب في سبيله .
فقلت لقد حان اذاً اوان الشروع فرجعت الى اول نشيد واخذت في النقل
تبعاً حتى اكملته ونظمت نصف النشيد الثاني . وكنت اثناء النظم اقبال الترجمات
بعضاً ببعض فارى فرقاً يصعب عليّ معه تبين الرجحان لنسخة دون اخرى .
فاوقفت النظم وقلت لا بد اذاً من الرجوع الى الاصل اليوناني اذ لا يصلح
النقل من غير اصله

وكانت معرفتي باليونانية قاصرة اذ ذاك لا تكاد تتجاوز القراءة البسيطة
وبعض اصول ومفردات لاثني غليلاً . فاخذت ابحت عن استاذ يروي غلتي
فأرشدت الى عالم من الاءاء اليسوعيين وأبلغت انه متضلع باليونانية

تضامه بالفرنسية . وكنت اعلم ان الآباء اليسوعيين لا يسهمون في الفهم لالقاء دروس خاصة خارج مدارسهم فكان لا بد اذاً من رضا الاستاذ واذن الرئيس فوفقني الله الى الحصول على الامرين فشكرت لهما هذه المنة وجعل استاذي بلقني اصول اللغة ويشرح لي فصولاً من الالياذة وانا مكب على الدرس متفرغ للاستفادة . وبعد ان قضيت معه اشهرًا وعلمت منه انه يسعى ان يستقيم الدرس وحدي وان اتناول تعريب الالياذة من اصلها مع الاستماعة بكتب اللغة ونفاسيرها فارفته شاكرًا ولبثت مدة اجهد النفس بالمطالعة ثم استأنفت التعريب

وكان بنفسي شيء مما عرّبت من النشيد الاول والثاني فرجعت الى امعان النظر فيه ومقابلته على اصله فرأيت خللاً جلياً في التصحيح والتصحیح فكنت لا اجمع عن تغيير البيت والبيتين وربما اعدت نظم مقاطيع برمتها . ولم يقع لي شيء من هذه الاعادة في سائر الاناشيد الا ان يكون في استبدال فقرة او شطر بغيرها او تغيير قافية بأخرى مما يقع لكل ناظم . وفي ما سوى ذلك كنت اجهد النفس باحكام البيت على قدر الاستطاعة قبل كتابته

ولم اكد استقر في مصر حتى حدا بي حادي الاسفار التي الفتها منذ الصبا فبرحت القاهرة سنة ١٨٨٨ وفي النفس شغف بها وحنين اليها . فانتحيت في التطواف الى العراق بعد ان طرقت الهند واطراف العجم فألفت فيها زهاء سنتين اضطرت الى طي الالياذة في معظمها ولم يتسن لي العود اليها الا بضعة اسابيع . على انني لم اجتمع بأديب منها الا عرضت عليه شيئاً من منظومها وادبها العراق مولعون بسماع الشعر

ثم شخصت الى الاسنانة واتخذتها مقاماً طيباً لبثت فيه سبع سنوات كنت كثير التنقل في اثنائها بين الشرق والغرب فيوم بسوريا وسنة باوروبا وامركا والمراجع الى الاسنانة . وكانت الالياذة رفيقي حيثما توجهت اخلس الاوقات خلصة فلا تفرغ اليد من عمل الا عدت اليها . ولطالما رثت الاسابيع والاشهر وهي طي الحجاب ثم هبت بها من رقبتها وعادت العمل وكثيراً ما حصل

ذلك في رؤوس الجبال وعلى متون البواخر وقطارات سكك الحديد فهي بهذا المعنى وليدة اربع اقطار العالم .
 وكنت حيث حلت اتوخى الاستفادة من اهل ذلك المحل ولا سيما في الاستانة حيث هيا لي حسن التوفيق ان اتعلت ببعض ادباء اليونان عشاق هوميروس والياذنه كاستافريدس ترجمان السفارة الانكليزية وكاروليدس احد اساتذة كلية خلكي اليونانية بالاستانة وبعضهم من قراء العربية فكنت اشاورهم في بعض ما التبس وأغلق وهم لا يضحون واقرأ لهم اجزاء من المنظوم العربي فذروهم هزة الطرب مستبشرين بتعريب اعظم منظومة لاعظم شعرائهم وهكذا ظللت بين وقوف ومسير الى اول صيف سنة ١٨٩٥ فخرجت بمائتي الى مصيف فنار باغچه في ضواحي الاستانة وظللت فيها اربعة اشهر فرغمت في نهايتها من عناء التعريب

كتابة الشرح

علي اني منذ شروعي في النظم كنت اطمح الى ما وراء ذلك اذ لو عرضت الالبابذة على قراء العربية عارية من الشروح لما خالوها الا هيكلًا شعريًا لا تربو فائدته علي شيء مما بين ايديهم من الدواوين وما اكثروا في لغتنا فرأيت ان اعلق عليها شرحًا انبهيح فيه اسلوبًا جديدًا لم ينتجه احد من المشراح بغية ان يأنس القارئ العربي بالرجوع في نظره الى اخلاق امته في جاهليتها وبعض حضارتها والمشهور من اساطيرها وشبائنها والمأثور من آدابها وعاداتها ومناهج شعرائها وادبائها ومواقف ملوكها وامرائها وساستها وزعمائها والاعجاب باتساع لغته في الوضع لكل معنى من المعاني النظرية مع عجزها في الحال عن تأدية بعض الاوضاع العصرية وجميع ما يتناول وصف حالة العرب ولنتهم وحالتهم الاجتماعية . كل ذلك بالمقارنة والمقابلة مع ما كان من نظيره في الامم الغابرة ولا سيما في ام اليونان . ويرتاح المطالع الافرنجي من قراء لغتنا الى الولوج في باب لا اظن احداً ولجه من قبل فيبحث وينقب ويسترشد فيرشد على ما جرى عليه

في سائر الشؤون ونحن عن معظم ذلك غافلون
ولهذا لم يكن لي بدء من مطالعة الاسفار الطوال والمجلدات الضخمة من كتب
العرب والاعاجم في الادب والشعر والتاريخ . واذا القيت نظرك علي باب الشواهد
في المعجم في ذيل الكتاب ورأيت انني اضطررت الى الاستشهاد بمئتي شاعر عربي
بين جاهلي وتغضرم ومولّد فضلاً عما نقلته من شعر الاعاجم عذرتني على ما اضعت
من الوقت في شرح الكتاب اذ ربما قرأت ديوان الشاعر كله طمعاً بيت واحد: —
ولو جمعت الزمن الذي صرفته في النظم لما زاد عن نصف مثله مما صرفته في
تدوين الشرح

وفي اوليات سنة ١٨٩٦ دعاني داعٍ حثيث الى القاهرة والنفس تشنقها
فانهزمتها فرصة وانقلبت بعائلتي اليها ولكن اموراً هامة حالت دون تمثيل الكتاب
بالطبع اخصها اشتغالي بعمل شاقٍ آخر هو « دائرة المعارف » . ولكنني كنت
اخشس اوبقاتٍ يسيرة ارتب الشرح في اثائها حتى انتهيت منه عام ١٩٠٢
فباشرت الطبع

ولست بمعتذرٍ لابناء وطني عن انقضاء كل هذا الزمن قبل نجاح العمل الاخير
فقد ألفنا التآني والمطل وان الواحد منا ليسرع في طبع مئتي صفحة فتمر الاغوام
ولا يمتها . على ان ابن الغرب تعتريه الدهشة لمثل هذا التراخي وهو في بلاده
لا يكاد يسمع بتأليف كتاب حتى يراه مطبوعاً نداوله الايدي . فمثل هذا
اللائم اقول ان الحالة عندنا على خلاف ما تعهد فليس في بلادنا شركات تأخذ
على نفسها طبع الكتب على نفقتها فتعد المال والرجال . بل لابد عندنا وان
توفرت النفقات ان يتولى المؤلف في مثل هذه الاحوال طبع كتابه بنفسه . وان
استعان بصديق او غيره علي مراجعة مسودة فلا يغنيه ذلك عن ان يكون هو
المصحح المنقح . واذا زدت على هذا ان دواعي صحة الجسم تلبيني كل سنة الى
ايقاف العمل بضعة اشهر اذ اضطر ان ابرح مصر الى لبنان او غيرها من بلاد
الله اتضع اني اسرعت في طبع الاليادة مع ابطائي في إعدادها

المجم والمقدمة

وفي منصرم ربيع السنة الماضية (١٩٠٣) كان النزاع من طبع اليازة وشرحها فحملت الكتاب معي الى لبنان حيث قضيت الصيف وانتهرت فرصة النزاع والراحة لكتابة المجم . وحالما وصلت القاهرة في آخر الصيف اخذت في انشاء هذا الفصل وسائر فصول المقدمة : — وهكذا فقد كان النزاع من هذا الكتاب حيث كان الشروع فيه اي في القاهرة مصر . وارانني كما اسلفت لك لم اذخر وسعاً في تعبير تعريبيه وتثنيته ولم آل جهداً في تطبيق شرحه وتنسيقه فان احسنت وفيه منتهى جهدي فذلك من حسنات الاجتهاد والاغسي ان افته باباً يليه من وفقه الله الى سبيل السداد

اصول التعريب

لقد جرى الكثيرون من نقلة لغات الافرنج الى العربية على اصول ابتدعوها لانفسهم فشطوا باكثرها عن منهج الصواب . فاجروا قلمهم بل هو جرى بهم مطلق العنان يحبر ما يريد دون ما اراد الواضع . فمن متصرف بالمعنى يزيد وينقص على هواه فيفسد النقل ويضيع الاصل . ومن متسرع يضر بدقائق من وقته للتثبت من مراد المؤلف فيلتبس عليه فهم العبارة فينقلها على ما تصورت له لاول وهلة فتعكس عليه المعاني على كره منه . ومن ما سغ يلبس الترجمة ثوباً يرتضيه لنفسه فيقلب بالمعاني على ما يطابق بغيته ويوافق خطته حتى لا يبق الاصل اثرًا . ومن عاجز يجهد النفس ما استطاع وهو وان اجهداها ما شاء غير كفوء لغرض هذا الباب

ثم يقوم هؤلاء الكتاب ويسمون ما كتبوا تعريباً واولى بهم ان يسموه تضييماً او اخضراراً او معارضةً او مستقاً

ولكنهم جميعاً اولى بالعدر والعفو من فئة اخرى يأتي الواحد منها على الكتاب فينقله كله او بعضه ثم يعرضه على الناس تأليفاً من نتاج قريحته . وهؤلاء هم

السَّرَقَةُ الدِّجَالُون

على ان لدينا والحمد لله رهطاً من ذوي الذمة والعلم يتوخون الصدق ويحرمون
الضبط والاحكام ويحيدون الرسم فيأتي مثلاً صادقاً . فاذا نقلوا قالوا نقلنا واذا
تصرفوا قالوا لغرض تصرفنا وان ضمنوا قالوا لامر ضمننا وان عارضوا قالوا لسبب
عارضنا فهو لاء اذا صحت كفاءتهم هم الذين يجب ان يصدق خبرهم وبقتنى اثرهم

معربو العرب

واذا رجعنا الى النقلة الاوائل رأينا ان زمرة كبيرة منهم كانوا من هذا
الفريق الاخير وهم على تفاوت اجادتهم في تأدية المراد من قصد الفائدة الحقة
وتوخى الصدق والدقة

وقد سلكوا في التعريب مسالكين نقلهما اليها العاملي في الكشكول عن الصلاح
الصفدي قال :

« وللترجمة في النقل طريقان احدهما طريق يوحنا بن البطريق وابن الناعمة
الحصبي وغيرها وهو ان ينظر الى كل كلمة مفردة من الكلمات اليونانية وما تدل
عليه من المعنى فيأتي الناقل بلفظة مفردة من الكلمات العربية ترادفها في
الدلالة على ذلك المعنى فيثبتها وينقل الى الاخرى كذلك حتى يأتي على جملة
ما يريد تعريبه . وهذه الطريقة رديئة لوجهين احدهما انه لا يوجد في الكلمات
العربية كلمات تقابل جميع كلمات اليونانية ولهذا وقع في خلال التعريب
كثير من الالفاظ اليونانية على حالها . الثاني ان خواص التركيب والنسب الاسنادية
لا تطابق نظيرها من لغة اخرى دائماً . وايضاً يقع الخلل من جهة استعمال
المجازات وهي كثيرة في جميع اللغات . الطريق الثاني في التعريب طريق حنين
ابن اسحق والجوهري وغيرها وهو ان يأتي الجملة فيحصل معناها في ذهنه ويعبر
عنها من اللغة الاخرى بجملة تطابقها سواء ساوت الالفاظ ام خالفها . وهذا
الطريق اجود ولهذا لم تحتاج كتب حنين بن اسحق الى تهذيب الا في العلوم

الرياضية لانه لم يكن قيمًا بها بخلاف كتب الطب والمنطق والطبيعي والالهي فان الذي عربه منها لم يخرج الى اصلاح »

وان هذين الطريقين اللذين اشار اليهما الصلاح الصندي منذ زهاء ستة قرون هما المذهبان المعول عليهما في النقل حتى يومنا وليس وراءهما مذهب ثالث في التعريب الصحيح . اما الطريقة الاولى فهي كما قال رديئة اذا اريد بها استيعاب محصل المعاني وهي ايضا انها تذهب بطلاوة التركيب فلا تبقي لها اثرًا ولا تصالح للكتب التي لتداولها الايدي من الخاصة والعامة ولا ترناح اليها نفس مطالع . ولما تجد قارئًا يقوى على استتمام صفحة منها . ولكنها مع هذا مفيدة لطالب اللفظ دون المعنى ولهذا جرى عليها بعض كتاب الافرنج في بعض التاليف المراد بها تعليم اللغات وانتعجوها في نقل كثير من كتب الادب والشعر كنظومات هوميروس وفرجيليوس اذا اريد بها افادة طلاب اليونانية واللاتينية دون طلاب الالياذة والانياذة . ويشترط لصحة فائدتها امران اولهما ان يكتب الاصل بلغته ومردقًا في اللغة المنقول اليها . — والثاني ان يكون بازائها ترجمة اخرى على الطريقة الثانية التي هي طريقة حنين لاستجلاء المعنى والّا اخلطت المعاني على المطالع وغاب عنه فهم قوة العبارة لان الجمل على الطريقة الاولى تأتي نغلة التركيب مقلوبة الوضع فما يجب تقديمه في لغة يجب تأخيرها في اخرى وما يجب اثباته في الاصل يجب تقديمه في النقل ولم جراً . فلا طلاوة ولا احكام ولا اعراب ولا انجمام

اما الطريقة الثانية فهي التي عول عليها الجمهور لحصول الفائدة فيها من الوجه المطلوب وهو نقل المعاني ورسمها رسماً صحيحاً ينطبق على لغة النقل ومشرّب نرائها . فاذا قرأ المطالع فيها كتاباً معرباً فلما هو يقرأه عريباً ولا يقرأه أعجمياً كما يحصل في الطريقة الاولى ولهذا يصح ان يقال ان طريقتنا انما هي طريقة حنين بن اسحق والجوهري

مسلك المعرب في تعريب الالفاظ

علمت مما تقدم ان المعرب تحرى الصدق في النقل مع مراعاة قوام اللغة وعسى ان يكون ممن كُتب لهم التوفيق . واقول زيادةً للايضاح اني وطنت النفس علي ان لا ازيد شيئاً علي المعنى ولا انقص منه ولا اقدم ولا اؤخر الا في ما اقتضاه تركيب اللغة . فكنت اعمد الى الجملة سواء تناولت بيتاً او بيتين او اكثر او اقل واسبكتها بقلب عربي اجلو رواءه علي قدر الاستطاعة ولا انتقل الى ما بعدها حتى يخيّل لي اني احكمتها

ولما كان الشعر العربي يختلف طولاً وقصراً باختلاف اوزانه كان لا بد من حصول التفاوت في النسبة بين عدد ابيات الاصل وعددها في النقل . وليس في اليونانية شطرٌ وبيتٌ كالعربية فكل شطر منها بيتٌ تامٌ كالرجز في عرف بعض العروضيين اذ يعنبرون كل شطرٍ منه بيتاً كاملاً . ثم انه كثيراً ما يحصل الترابط فيها بين بيتين واكثر بما لا يجوز اتيان نظيره في العربية . ولهذا لم يكن في دائرة الامكان ان يُنقل البيت اليوناني بيتاً او شطراً عربياً . اذ كلما كثرت اجزاء بحر الشعر العربي زاد اتساعه لاستيعاب المعاني فالطويل والبسيط مثلاً يستوعب البيت منهما ما لا يتسع له السريع والمنسرح . وهذان تامّان يستوعبان ما لا يتسع له المجزؤ من سائر الابحر . فهذه النسبة يمكن اعتبار كل بيت من الطويل والبسيط بمثابة زهاء بيتين من الاصل اليوناني و يقرب منهما الكامل التام وكل بيتين من الخفيف والسريع والمنسرح والرجز والمقارب والمتدارك والوافر والرمل واحداً الكامل مقابل ثلاثة ابيات من اليونانية . فجاءت الابيات العربية بين العشرة والاحد عشر الف بيت نقلاً عن اصل عدده بين الستة عشر والسبعة عشر الف بيت

وكنث اثناء مطالعتي ترجمات الافرنج انكر اموراً كرهت ان ينكرها غربي علي فاجتنبتها . مثال ذلك تصرف البعض منهم تصرفاً غريباً فيبدلون معنى

بآخر ولنظة بغيرها ولم في ذلك اعدار نافهة اشترنا اليها في مواضعها . واغرب
من هذا ما يقدمون عليه من الحذف والاضافة فقد رأيت في بعض المواضع
اياتا كثيرة قضا عليها بالحذف واياتا كثيرة حسنت لم انفسهم اضافتها حتى ان احدهم
حالك من اربعة ايات اربعة وثلاثين بيتا ضمها معاني لم تخطر على بال هوميروس

المحافظة على الاصل

فكان معظم همي ان لا احجف مثل هذا الاحجاف فلم انصرف بشيء من
المعاني وحافظت على الالفاظ ما امكن فان حذفت لنظة فهي اما من مكررات
الاصل التي يحسن تكرارها في لغتها ولا يحسن في لغتنا واما من الالفاظ التي
يمكن استخراجها من المعنى وقد يمكن ان تكون من الالقاب والكنى التي يستغنى
عن ايرادها كل حين . وان زدت لنظة فهي اما مما يقتضيه سياق التعبير العربي
واما قافية لا تزيد المعنى ولا تنقصه . وان قدمت او اخرت فكل ذلك في
فسحة قصيرة يقتضيا السبك العربي وكان هذا اعظم قيد قيدت به نفسي

اجتناب الوحشي والحوشي

ثم اني اجتنبت ما امكن حوشي الكلام ووحشي طمعا بان لا تحقره
الخاصة ولا يفتأ فهمه على العامة . واذا اضطرت الى اثبات كلمة لفوية فتلک
اما لنظة وضعية لا يمكن استبدالها بغيرها واما قافية لا يمكن العدول عنها واما
تعبير ليس ما يفضل في الكلام المأنوس

الالفاظ التي لا مرادف لها في العربية

وليت هذا منتهى الاشكال في تعريب الالفاظ فقد اعترضت لي الفاظ
وتراكيب وصنية بعضها غير مألوف في العربية وبعضها لا يقابله مرادف اصلا
فاضطرت الى انتقاء الفاظ يمكن اطلاقها على المعنى المراد ونهت عليها . والى نهج
اسلوب في التراكيب الوصفي لا يختل معه نظام العربية ودونك امثلة يسيرة
من ذلك :

لآلهة اليونان طعامٌ وشرابٌ يعبر عنهما بلنظتين لا مرادف لهما في العربية
فعبّرت عن الشراب بالكوثر والسبيل كما اوضحت في الشرح (ص : ٩٣٥)
وعبّرت عن الطعام بالعنبر لان هذا لفظها باليونانية (Αμφορια) وهو عندهم
طعامٌ وطيب بان واحد كما اوضحت (ص : ٧٤٧)

وعند القوم آلهة وشبه آلهة كثيرون لا شبه لهم عند العرب فلم توضع
لم اسماء خاصة بهم . فحيثما اتيت على لفظة من مثل هذا رجعت الى معنى اللفظة
اليونانية وعربت بما رادف ذلك المعنى او قاربه فدعوت ربان الغناء ومنشدات
الآلهة « القيان » والقينة في العربية الجارية المغنية . ودعوت ربان اللطف
البهجات والخرائد فاللفظة الاولى اخذاً عن مفاد المعنى واللفظة الثانية
تشبيهاً بالكلمة اليونانية التي تماثلها في اللفظ (Χερειες) كما اوضحت في الشرح
(ص : ٧٥٦)

واما الموصوفات العلوية الموضوعة لمعنى معين فقد سميتها باسمائها التي تنطبق
عليها في العربية فسميت الالهة الفتنة « فتنة » ورب الهول « هولاً » والاه
الشقاق « شقاقاً » والساعات « ساعات » والصلوات « صلوات » وهلم جرا

التراكيب الوصفية

وفي الالباذة تراكيب وصفية ملازمة لكثير من اعلامها وقد يكثر تكرارها
فيها الى حيث يكره ذلك في العربية كوصف اخيل بخفة القدم ووصف
هكطور بهز الخوذة والقول في نسطور انه راعي الشعب وفي زفس انه ابو
الآلهة والبشر . ففي مثل هذه الاحوال خفت التكرار وانتفيت الفاظاً حسبها
خفيفة على السمع العربي فقلت طيار الخطى وهياج التريكة وما اشبه

تعريب الاعلام

ثم انه لم يكن بالامر السهل تعريب الاعلام بما لا يبيح الذوق العربي
وخصوصاً اني اعلم ان قارئ امثال الالباذة لا بد ان يستثقل في اول الامر توالي

اعلام اعجمية لم يألف سمعه شيئاً منها . ولكنه اذا تتر من تلاوتها اولاً لا يلبث ان يألفها بعد تلاوة قصيدة او بعض قصيدة

وقد كانت لي هذه الاعلام في النشيد الاول عشرة في سبيل احكام النظم فكان لابد من وضع اصول اعتمد عليها في سائر الاناشيد وليس في كتب العرب ما يماثل هذه الاصول . وان في كتاب سيبويه باباً للتعريب ولكنه اقتصر في معظمه على تتبع بعض الالفاظ مما استعمله العرب من اعلام الاعاجم وغيرها والنظر في ما ألحق منها بالبناء العربي كجهنم وجوزب ودينار وديباج ويعقوب واستحق وما لم يلق به ككركم وخرم وخراسان

وجميع ما كتب الفلجاني في شفاء الغليل وابو حيّان في ارتشاف الغريب من اسان العرب والتمالي في فقه اللغة والسيوطي في المزهرة وغيرهم من طرق هذا الباب لا يكاد يمتدّى الالفاظ الفارسية وقليلاً من غيرها وتوصله ايضاً انه لم يضع العرب قواعد مطردة يمكن الرجوع اليها في مثل هذه الحال . واذا اردنا القياس على ما جاء في الكتب العربية من الاعلام اليونانية زادت المعضلة اشكالاً فان ايدي النساخ قد لعبت بها كل ملعب هذا فضلاً عن انهم لم يجروا بها على نمط معلوم في زمن من الازمنة الا في احوال معمورة واسماء مشهورة . وزد على هذا ان اكثر اعلام الالفاظ غير المذكور في كتب العرب . ولا ريب عندي ان العربيين والمؤرخين تونخوا ما يمكن حسن التطبيق في تعريب الاعلام ولكن عدم جريهم على خطة واحدة وسنّ معلوم ذهب بذلك الجهد ضياعاً فقالوا مثلاً ارسطاطاليس وارسطوطاليس وارسطاليس وارسطوليس وبتروه ايضاً فقالوا ارسط . وقالوا اسقليبيوس واسكولايوس واسكليبي واسقولاوب وامثال ذلك كثيرة في النثر فما بالك لو نظمت شعراً

تلاعب النساخ

واما تحريف النساخ وتصحيحهم فما لا يدركه حصر فكثيراً ما نقرأ فيلقوس

وفيلثوس وفيلنوس وقيلبوس وقنلتوس ويكون المراد فيلثس ايا الاسكندر . وثقرأ
بودنطه وتيرنطه وبيرنطه وبورنطا والمراد البيزنطية . وخذ اي كتاب شئت من
كتب التاريخ من البيروني والمسمودي الى ابن الاثير وابن خلدون حتى المقرئ
وانظر فيه الى الاعلام اليونانية فيشكل عليك ارجاعها الى اصلها
وكثيراً ما ترى الاسم الواحد مكرراً في صفحات وهو في كل صفحة بهجاء
تختلف عما قبله وما بعده فاذا فتحت القرواني طبع بغداد صفحة ٢٣٦ وقرأت
انطياقوس ثم رأيت ابطيحش بالباء والحاء ص : ٣٦٩ فما ادراك ان المراد بهما
الطيوخوس اذا لم تكن هناك قرينة ترشدك
ومن بلاء النسخ ايضاً تحويل الفكر من علم مشهور الى علم مشهور فتضيع
فائدة الرواية بحملتها كقولهم في يوليوس قيصر بولس او بولوس واين بولس
من يوليوس

ولا يصح ارجاع اللوم في خطأ النساخ الى المؤلفين والمؤرخين الا حيث
اجتزأوا بالنقل من نسخ مصعفة والا فلا ريب ان القاضي الفاضل مثلاً لم
يفسد شيئاً من الاسماء الافرنجية في ما كتب عن الصليبيين فلم يقل الاستبارية
والاستنارية كما نقل ابن الاثير وابن خلدون بل قال الاستبالية على لفظها
الافرنجي (hospitaliers)

عوداً الى تعريب الاعلام

بقي عليّ ان اذكر الاصول التي جريت عليها في تعريب الاعلام :
جرت للافرنج عادة في نقل كثير من الاعلام اليونانية عن الاصل
اللاتيني دون اليوناني ولا سيما في اسماء المعبودات . فاذا ارادوا اثينا الالهة
الحكمة قالوا مينرفا بلفظها اللاتيني واذا ارادوا فوسيد او فوسيدون الاله البحار
قالوا نبتون . والسبب في ذلك ان معبودات الرومان كانت تماثل معبودات
اليونان من اوجه شتى . ولها عند كل من الفريقين اسماء توافق روح لغته .

ومعانيها . واذ كان الافرنج اقرب عهداً بالرومان وقد تناولوا اسما . معبوداتهم عن اللاتينية على ما دونها فرجيليوس وغيره من الشعراء والكتّاب اطلقوا تلك الاسماء على الاعلام اليونانية ايضاً . لماثلتها لها في المفاد . على ان كثيرين من تحقيقهم قد اخذوا يرجعون الى الاصل وبذكرون كل علم باسم لفته

وحكذا فعلت في تعريب المعبودات فسميت كل معبود باسمه اليوناني وان كان بعضها ذكره في كتب العرب . فقلت زفس ولم اقل زاو يش كما قال ابو نواس ولا المشتري وان ورد بهذا اللفظ في كتب العرب . وقلت هرس ولم اقل عطارد وقلت آرس ولم اقل المريخ كما قال العرب او بهرام كما قال العرب والفرس . وذلك لان مشتري العرب وعطاردهم ومريخهم وبهرامهم هم غير امثالهم عند اليونان وليس لهم في كتبنا وصف معين ينطبق على المفاد اليوناني . ولم اتوسع في شيء من هذا الباب الا باسم عفروذيت فقد اطلق عليها اسم الزهرة لغرب الشبه بين الزهرتين في اساطير القومين

وفي سائر الاعلام حفظت الاصل اليوناني مع مراعاة صحة اللفظ العربي على قدر الامكان

وتابعت العرب في الاسماء الشائعة فابقيتها على حالها فلم اقل أَلِكْسَنْدَرُ او اليكسندروس على ما يقتضيه اللفظ اليوناني بل قلت الاسكندر لاجماع العرب على كتابته بهذا الهياء

وجاريت الافرنج وكثيرين من كتاب العرب بزيادة حرف الهاء في اوائل الاسماء المبتدئة بحرف علة ثقيل فقلت هوميروس وهلمس وهيرا وهيبا كما قالوا هيروودس وهيروودوس وهيرقل وهيلانة مع انه لو روعي رسم الحروف اليونانية وعلم انه لا هاء فيها لوجب ان يقال ايروودس وايروودوس وارقل وايلانة . على ان العرب لم يراعوا ذلك في كل الاحوال ولهذا قالوا اميروس واسنيودس بدل هوميروس وهسيودس

ومثل ذلك يقال في زيادة العين في اوائل نحو عشرة اسماء فان ذلك يقرّبها

الى اللهجة العربية فاخف علينا ان نقول عسقلاف من ان نقول اسقلاف وعفروذيت بدل افروذيت .

وجاريت الافرنج وبعض العرب ايضاً في بتر بعض الاسماء ولا سيما الطويل منها فقلت طرطار بدل طرطاروس وطفطام بدل طقطامبوس ومربوت بدل مربونس واسكندر بدل اسكندريوس وفوسيند بدل فوسيدون كما قال العرب هرقل بدل هرقليس وتيوفيل بدل ثيوفيلوس وخصوصاً ان ملازمة هذه السين للاعلام اليونانية كملازمة الحركة والتنوين للمعرفة والتكرة في الحركة العربية غنى عنها .

الحروف التي لا مقابل لها في اليونانية

وليس في اليونانية طاء ولا قاف ومع هذا فمما كثيران جداً في الاعلام اليونانية واللاتينية المعربة فقالوا النطيفونس والنطيوخس وقبرس وقسطنطين وقيصر بدلاً من انتيفونس وانتيوخس وكبرس وكستنتين وكيسار . واخالم احسنوا بالنظر الى انطباق تعريبهم على اللهجة العربية . فجاريت من سلك هذا المسلك وقلت بالطاء طروادة وطرنا وطيطان وامثالها . وبالقاف قرونس وقبريون وقلبارس . وربما اجتمع الحرفان كما في طقفير

ويقال مثل ذلك في الصاد فهي ليست من حروف اليونانية ومع هذا فقد قلت صوقوس كما قالوا صولون وصوفياً

واليونانية خلوة من حرف الدال فكل دال فيها ذال فراعيت في هذا الباب جودة اللفظ وحافظت على ابقاء معربات المتقدمين على حالها فقلت الاسكندر والاسكندر وداماس ودردانيا بالدال وذريون وذبر وذفوب بالدال

الحروف التي لا مقابل لها في العربية

وفي اليونانية حروف ليست في الهجاء العربي كالفاء B فهي مقام الباء في الحروف السامية وموقع هذه اي ثانية في الحروف فكما عبر اليونان بها

عن بائنا نخلو لفتهم منها يجب ان نعب عنها بالباء نخلو لفتنا من حرفهم ويشمل هذا التعريف جميع الالفاظ التي يدخل هذا الحرف بهجائها وهي كثيرة كباينا وبريسا وبورس وبرياس .

وفيها حرف آخر لا مقابل له في العربية وهو الباء الفارسية II فقد اخترت لها الفاء لقرب نخرجها اليها فقلت فريام وفطرقل وفوذالير كما قالوا فرسيس وافلون وفيداس . ومن معربي القدماء من اختار لهذا الحرف الباء العربية فقالوا بطرس بخلاف كثيرين من معربي السريان الذين يقولون فطرس فعولت على هذا الوجه الا حيث وقع تكرار الحرف او ثقل اللفظ بالفاء فارجمته الى الباء وقلت فينبس وبلفونة وأولنب ولم اقل فينبس واولف وبلفونة

ولا فرق في اليونانية بين الجيم والغين فيعبر عنهما فيها بحرف واحد I^٢ تفرجه بين الغين العربية والجيمين اي الجيم المصرية والجيم السورية فقد اخترت ان اعبر عنها بالغين فقلت غلاطيا وخرطينة الا في احوال قليلة رأيت فيها الجيم اوقع في الاذن سواء كان مصرياً او سورياً كجبرنيا ومجيس

تنافر السين والثاء

والثاء والسين كثيرتان في الالفاظ اليونانية وقد تجتمعان معاً فيشكل على العربي لفظها اذا كان اولهما ساكناً . ففي مثل هذا قلبت الثاء تاء فكُتبت اغستين بدل اغشين . واثقل من ذلك اللفظ اذا وقعت الثاء بين سينين نحو منسشيس فكُتبتا منستس . واما اذا كان الساكن الثاني فاني ابقيته على حاله لسهولة لفظه اذ لا يصعب مثلاً ان يقال ثسطور

الباء والثاء

ومع اني تحاشيت الباء الفارسية والفاء اليونانية في النظم فلم اتحاشها في الشرح فالعربية واليونانية لفتان قديتان وللنقلة فيهما اوضاع رأيت ان لا اتمدأها في الشعر الا فيما لم يطرقوا بابه رغبة في استبقاء الصيغة النطرية على حالها .

واما الشرح فهو بلسان عصري وقد اضطرت فيه الى ايراد اعلام قديمة وحديثة وقع فيها هذان الحرفان فأبقينهما على حالهما دفعا للبس كما يفعلون مثلاً في اليونانية الحديثة اذا اوردوا علماً افرنجياً احد حروفه الباء وهي ليست موجودة في لغتهم فيعبرون عنه بحرفين МП وليس من ذلك شيء في اليونانية القديمة

طريقة ابن خلدون

وقد تعرض للقارىء اثناء مطالعته كتب الاعاجم حروف كثيرة لا نظير لها في العربية فكان قدماء الكتاب من العرب يكتبونها بما يقارب لفظها من حروفهم وهو نقص غير خاص بالعربية ولكنه يتطرق الى كل لغة من سائر اللغات ومنشأه من التباين في النطق بالحروف بين لغة واخرى . فهما كانت الصور التي يرسم بها الافرنجي اكثر حروف الحائتي وبعض الحروف العربية كالحاء والعين والقاف والضاد فليس بالامر السهل عليه ان يتلفظ بها على وضعها العربي . ومع هذا فقد اتخذ لما بعض الكتاب المحدثين صوراً فارقة تميزها بالرسم دفعا للاشكال كأن يفعوا نقطة فوق حرف *h* ليشيروا انها في الاصل قاف وليست كافاً . ونقطة فوق حرف *h* او تحته ليشيروا انها حاء وليست هاء . و *d* منقوطة يعبر بها عن الضاد . واذا ارد بها الطاء الحقوا بها حرف *h* . والعين ساكنة يعبر عنها بضممة . ومتحركة بحرف حركتها مع الضمة المذكورة وهما جراً وليس كتاب المعصر باول من انتبه الى هذا البحث فقد قال ابن خلدون في مقدمته :

« ليست الامم كلها متساوية في النطق بتلك الحروف فقد يكون لامة من الحروف ما ليس لامة اخرى والحروف التي نطقت بها العرب هي ثمانية وعشرون حرفاً كما عرفت ونجد للعبرانيين حروفاً ليست في لغتنا وفي لغتنا ايضاً حروف ليست في لغتهم وكذلك الافرنج والترك والبربر وغير هؤلاء من الهجم . ثم ان اهل الكتاب من العرب اصطلموا في الدلالة على حروفهم السبعة باوضاع حروف مكتوبة متميزة باشخاصها كوضع ألف وباء وجيم وراء وطاء الى آخر

الثنائية والعشرين واذا عرض لهم الحرف الذي ليس من حروف لغتهم بقي سهلاً عن الدلالة الكتابية مغفلاً عن البيان وربما يرسمه بعض الكتاب بشكل الحرف الذي يليه من لغتنا قبله او بعده وليس ذلك بكافٍ في الدلالة بل هو تغيير للحرف من اصله . ولما كان كتابنا مشتملاً على اخبار البربر وبعض النجم وكانت تعرض لنا في اسمائهم او بعض كلماتهم جروف ليست من لغة كتابتنا ولا اصطلاح اوضاعنا اضطررنا الى بيانهم ولم نكتف برسم الحرف الذي يليه كما قلناه لانه عندنا غير وافٍ بالدلالة عليه فاصطلحت في كتابي هذا على ان اضع ذلك الحرف العجمي بما يدل على الحرفين اللذين يكتنفانه ليتوسط القارىء بالنطق بين تخرجي ذينك الحرفين فتحصل تأديته . وانما اقتبست ذلك من رسم اهل المصحف حروف الاشمام كالصراط في قراءة خلف فان النطق بصاده فيها مجتم متوسط بين الصاد والزاي فوضعوا الصاد ورسموا في داخلها شكل الزاي ودل ذلك عندهم على التوسط بين الحرفين فكذلك رسمت انا كل حرف بتوسط بين حرفين من حروفنا كالكاف المتوسطة عند البربر بين الكاف الصريحة عندنا والجيم او القاف مثل اسم بلكين فاضعها كافاً وانقطها بنقطة الجيم واحدة من اسفل او بنقطة القاف واحدة من فوق او ثنتين^(١) فيدل ذلك على انه متوسط بين الكاف والجيم او القاف وهذا الحرف اكثر ما يجي في لغة البربر . وما جاء من غيره فعلى هذا القياس اضع الحرف المتوسط بين حرفين من لغتنا بالحرفين معاً ليعلم القارىء انه متوسط فينطق به كذلك فنكون قد دللنا عليه ولو وضعناه يرسم الحرف الواحد عن جانبيه لكننا قد صرنا من نخرجه الى نخرج الحرف الذي من لغتنا وغيرنا لغة القوم فاعلم ذلك والله الموفق للصواب بنبه وفضله»

ذلك ما أشار به ابن خلدون منذ خمسة قرون وهو مقتبس من كتابة اهل

(١) قال ابن خلدون « بنقطة الكاف واحدة من فوق » لانه مغربي واهل

المغرب بنقطون القاف بنقطة واحدة من فوق والقاف بنقطة من اسفل . وورد

ذلك بقوله « او ثنتين » للدلالة على نطق القاف في غير بلاد المغرب

المصحف فلم يعبا الكتاب بكلامه أو لم يشعروا بحاجة ماسة إليه اذ كادت تنطوي صحف التعريب في العصر المتأخرة . على ان ابناء العصر اخذوا يشعرون بتلك الحاجة فجعل بعضهم يميز بين رسم الحروف الاعجمية المجتعة وليس عسيراً علينا ان نستمد من الفرس كثيراً من الحروف التي ليست في اوضاع العربية فسدّ مسدّ ما نقص عندنا من حروف الافرنج لان النارسية على ما لا يخفى اقرب بوضعها ومنشأها الى لغات الغرب منها الى اللغات السامية . فلما عدل الفرس بعد الاسلام عن حروفهم التهلوية الى الحروف العربية رأوا ان حروفها لا تؤدي جميع منطوق اللفظ بلسانهم فزادوا من عندهم حروفاً لما نقص عن مدلول لفظهم في لغة العرب فرسموا الباء والميم وفرقوا بين الميم والزيم وبين انكاف والگاف وزاد الترك الكاف الخرساء

ولا يفوتنا المطالع اللبيب اننا اذا اشرنا باستعمال هذه الحروف فانما اشير بها في الاعلام الاعجمية المترتبة ليس الا . وهي على كل حال لا تصلح في الشعر اذ يجب ان يبقى على صبغته العربية . ولهذا استعملتها في الشرح دون المتن على ان النقص ليس كله في الحروف الصحيحة ولكنه يتشعب ايضاً الى الحركات او حروف العلة الافرنجية فالحركات العربية ثلاث فقط يقابلها ثلاثة حروف علة وليس منها شيء ينطبق على لفظ e, o و u و u و e وامثالها ما هو شائع في لغات الغرب

ولبعض كتاب الترك طريقة حسنة في الدلالة على حركات الفاظهم التي لا يمكن التعبير عنها بالحركات العربية . ذلك انهم يخذون من النخبة فتحين ثقينة وخفيفة . وكذلك من الكسرة كسرتين . ومن الضمة اربع ضمات اثنتين ثقيلتين واثنين خفيفتين يسمون واحدة من كل من الثقيلتين والخفيفتين مبهمة والآخرى مقبوضة . وباختلاف رسم هذه الحركات قائمة او منخبة او مقبوضة فوق الحرف او تحته تجتمع لديهم ثلثاني حركات يستعملون بها التعبير عن جميع ما يقضيه منطوق لسانهم

وليست العربية في حاجة الى شيء من ذلك للدلالة على منطوق الفاظها
فحركاتها كافيةٌ وافيةٌ . ولكن الحاجة فيها الى ما يمثل بعض منطوق اللغات
الاعجمية كما تقدم

ولقد وضع الشيخ ابراهيم اليازجي منذ بضع سنوات اربع حركات تمثل بعض الحروف
الفرنسية وهي : u و ou . وقد جرى فيها على الجمع بين حركتين او ثلاث مراعيًا بذلك
مخارج الحركات كما راعى ابن خلدون مخارج الحروف

وان في استعمال هذه الحركات مع الحروف الفارسية سهلاً كبيراً للدلالة
على اصل كثير من الحروف الاعجمية . وقد لا يصعب مع التوسع بها قليلاً
والاصطلاح على اوضاع لسائر حروف الاعاجم التي لانظير لها في العربية والفارسية
ان يتوصل كتاب العرب الى الدلالة على منطوق جميع الحروف في سائر اللغات وان
كان النطق ببعضها يظل مستحيلاً على من لم يألف قراءة اللغة المعربة اعلامها
والتلفظ بحروفها الاصلية . وعلى كل حال لا يجوز الاكثار من هذه الاصطلاحات
ولا يسوغ استعمالها الا في احوال خاصة

النبر

وقد راعيت النبر اي موقع المد في اللفظة (accent) ما امكن فقلت مثلاً
آرس ولم اقل اريس الا حيث اضطررتني ضرورة الشعر ورجائي ان يكون
ذلك قليلاً

التصرف بالحروف والحركات

ولم اتصرف في الحروف والحركات الا فيما ندر ووجيتي في ذلك تقريب
اللفظة لمسمع القارئ العربي دون ان اعبت بمادة الاصل كما قلت مثلاً صفة
تعريباً لاسم انثى اصلها صفيثا وسفيو

واما حروف العلة التي نعبر عنها بحركات فقد تماشيت تغييرها عن مواضعها
كما وقع في كثير من كلام العرب في الشعر ولا سيما المولدين منهم كقول ابن هاني :

وَمَحَّتْ بِنُو الْعَبَّاسِ مِنْكَ عَزِيمَةً قَدْ كَانَ يَعْرِفُهَا الْمَلِكُ الْمَرْقُلُ
وَكَانَ حَقُّهُ أَنْ يَقُولَ مَرْقُلٌ فَقَلْبَتُهُ الْقَافِيَةُ وَأَمْثَالُ هَذَا كَثِيرَةٌ فِي شَعْرِ
الْمُتَنَبِّيِّ وَإِنِّي نَمَامٌ وَغَيْرُهَا

الالفاظ المعربة من اليونانية

وقد نهيت على الكلمات اليونانية الاصل كالاسطول والمينا والليمان والنوقي .
وما يشبه في كونه يونانياً كالعفريت والعنبر وما يشابه اليونانية كالخربرة
هذا جل ما توخيته احكاماً لتعريب الالفاظ وحاشا ان ازعم الفلاح بكل
ما توخيت او ادعي الصلاح بكل ما تحربت . ولكنه لا يربني ان ادعي اخلاص
النية وصدق الاجتهاد فقد اتيت ما اتيت وانا واثق من نفسي انها لم تدخر
جهداً في هذا السبيل

النظم في التعريب

لا بد للشارع في تعريب منظومة كالالياذة او نظم ملحمة على مثالها من
ان يقف طويلاً ويتردد برهة قبل ان يعين اوزان منظومته وقوافيها . وليس
لنا في اوضاع السلف اصول نرجع اليها في مثل هذه الحال . وهيئات ان
يتسنى وضع مثل هذه الاصول فينقيد كل بحر من بحور الشعر باباً من ابوابه او تميمين
كل قافية من القوافي لمعنى من المعاني . فقد نظم العرب كل معنى على كل بحر وكل
قافية واجادوا . والفريضة الجيدة نقادة خيرة اذا طرقت باباً افتتح لها ملء
رغبتها فنقع على البحر والقافية وهي لا تعلم من اين تأتى لها ان تقع عليها وانما
هو الشعور الشعري يدفعها الى حيث يجب ان تندفع

فالشاعر المجيد اذا تصور امرأ فانما يتصور له ذلك الامر على كماله فتنبه
له السليقة جمال الشكل كما هيأت له جبال المعنى فيجتمع له احكام التناسب
بين اللفظ والمعنى والوزن والقافية . فكل بيت بنى عليه قصيدته فهو الاساس

الذي يصح ان يستند اليه ويبنى عليه

ولا يخرج عن هذه القاعدة الا الشعر المنظوم لاغراض معلومة ودعت الحاجة الى تقييده بقيود لا مناص له منها كالاراجيز المنظومة في العلوم وبعض الموشحات والالغاني المربوطة بانغام معينة فالشاعر مقيد فيها بنمط لا يتيسر له العدول عنه الى غيره

وفي ما سوى ذلك فالشاعر مطلق اليدين يتصرف بالشعر كيف شاء وله ان يرتضي ما تيسر له من الاوزان والقوافي وهي في الغالب تبرز له من نفسها بشكلها الانيق وقوامها الرشيق

على ان قريحة الشاعر وان كان تبيهاً ليست كيد النسايج تنطلق في العمل ايان حركها العامل . فقد يضطرب الجنان وينحبس اللسان والذهن وقاد . وقد يكون القلم سيالاً فيجف فيه المداد . فالامساك عن النظم في مثل هذا الاعتقال خير من اجهاد النفس فلا يلبث العقال ان ينحل من نفسه . واذا طال الخمول فليشجذ الشاعر قريحته بتلاوة جيد الشعر فهو كالجللاء للسيف الصدي .

ولكنه قد يحصل خلاف ما تقدم فنتراكم المعاني وصورها وتندفق التخييلات تدفقاً يكاد يذهب بها شتاتاً فيتبهاً للشاعر رسم مطلعه بيتين او اكثر على ابحر مختلفة فيبحر في الاختيار ويميل الى الاسترشاد

اوزان الشعر وابوابه

ولهذا رأيت ان اذكر في ما يلي ما تيسر لي استخراج من شعر العرب بالنظر الى ترابط بحور الشعر بمواضيع وابوابه . فقد راعيت هذا الترابط في بعض الاناشيد فادت تلك المراجعة الى فائدة يحسن التعويل عليها في بعض الاحوال ولا شك ان العروضيين نظروا الى ابحر الشعر من هذه الوجهة ولكنهم لم يزدوا على تسميتها باسماء تنطبق توسعاً على مسميات مواضيع القصائد المنظومة عليها فقالوا هذا طويل وذاك بسيط وذلك خفيف أو سريع وهلم جرّاً ووقفوا عند هذا الحد

ولكنه يستفاد من هذه التسمية ان لكل بحر ساحلاً يقف عنده ويرشد
اسمه اليه فاذا قلنا هذا بحرٌ طويل علمنا انه لا يسوغ ان ننظم عليه الاهازيج
والموشحات والاغاني واذا قلنا هذا بحرٌ مقتضب او مجتث علمنا انهما لا يصلحان
للمنظومات علي اطلاقها ولا يصح فيهما تدوين الروايات والتواريخ
ولو اردنا ان نضع اصولاً وافية لهذا البحث لوجب ان نرجع الى منظوم
نوايغ الشعراء ونقابل بين ابوابه وبحوره فتظهر لنا اغلبيّة كل وجه في كل بحر .
وهو بحث طويل لا يتسع له هذا المجال

فحسبنا اذاً فتحاً لهذا الباب ان ننبه اليه ونذكر موجزين خلاصة ما انضح
لنا بالتطبيق والمقابلة

فالطويل بحرٌ خضمٌ يستوعب ما لا يستوعب غيره من المعاني ويتسع للفخر
والحماسة والنشايه والاستعارات وسرد الحوادث وتدوين الاخبار ووصف الاحوال
ولهذا ربا في شعر المتقدمين على ما سواه من البحور لان قصائدهم كانت اقرب
الى الشعر القصصي من كلام المولدين . خذ مثلاً لذلك معلقات امرئ القيس
وزهير وطرفة ولامية الشنفرى وقصيدة عبد يغوث الحارثي التي مطلعها :

ألا لآلئوماني كفى اللوم ما ييا فما لكما في اللوم نفع ولا ليا

والبسيط يقرب من الطويل ولكنه لا يتسع مثله لاستيعاب المعاني ولا يلين
لينه للتصرف بالتراكيب والالفاظ مع تساوي اجزاء البحرين . وهو من وجه
آخر يفوقه رقةً وجزالةً ولهذا قلّ في شعر ابناء الجاهلية وكثّر في شعر المولدين .
مثال الشعر الجاهلي قول نأبط شرّاً :

يا عيّد ما لك من شوق وايراقٍ ومن خيالٍ على الابواب طرّاقٍ

وقول عبدة بن الطبيب :

هل جبل خولة بعد الهجر موصولٌ ام انت عنها بعيد الدار مشغولٌ

ومثال شعر المولدين قول ابن زريق :

لا تعذليه فان العذل يوجعه قد قلت حقاً ولكن ليس بسمعه

وقول ابي تمام :

السيف اصدق انباء من الكتب في حذر الحدة بين الجدة واللعب
والكامل اتم الاجر السباعية وقد احسنوا بتسميه كاملاً لانه يصلح لكل
نوع من انواع الشعر ولهذا كان كثيراً في كلام المتقدمين والمتأخرين وهو اجدود
في الخبر منه في الانشاء واقرب الى الشدة منه الى الرقة ومنه معلقنا عنتره وليد
وقصيدة الحادرة قطبة بن جرويل :

بكرت سُميَّة بكرة فتمتع وغدت غدوً مفارق لم يربح
واذا دخله الخدز وجاد نظمه بات مطرباً مرقصاً وكانت به نبرة تهيج
العاطفة كقولهم :

بادمية نُصبت لمتكفٍ بل ظبية اوفت على شرف
بل درة زهراء ما سكنت بجرأ ولا اكتفت ورا صدف
وهو كذلك اذا اجتمع فيه الخدز والاضمار كقول الخليل السعدي :
ذكر الزباب وذكرها سقم نصبا وليس لمن صبا حلم
وقول الحارث الشكري :

لمن الديار عفون بالحبس آباتها كهارق الفرس
والوافر ألين البحور يشتد اذا شدته ويرق اذا رفقته وأكثر ما يجود به
النظم في الفخر كملقة عمرو بن كلثوم وفيه تجود المراثي ومنها كثير في شعر المتقدمين
والمتأخرين كقول الخنساء :

يذكرني طلوع الشمس صخراً واذكره لكل طلوع شمس
وقول المهمل :

اهاج فداء عينك ألا ذكرك هداً فالدموع لها الحداد
وحسبك من شعر المولدين مرثية ابي الحسن الانباري :
علو في الحياة وفي المات لعمرك تلك احدى المعجزات
ومرثية المتنبي :

نعدُّ المشرفة والموالي ونقتلنا المتنون بلا قتال
والخفيف اخف البحور على الطبع واطلاها للسمع يشبه الوافر لينا ولكنه أكثر
سهولة واقرب انسجاما . واذا جاد نظمهُ رأيتهُ سهلاً ممتنعاً لقرب الكلام المنظوم
فيه من القول المنشور وليس في جميع بحور الشعر بحرٌ نظيره يصح للتصرف
بجميع المعاني ومنه معلقة الحارث بن حلزة الشكري
والرمل بحر الرقة فيجود نظمهُ في الاحزان والافراح والزهرات ولهذا لعب به
الاندلسيون كل ملعب واخرجوا منه ضروب الموشحات وهو غير كثير في الشعر
الجاهلي واكثرهُ في مثل ما تقدم ومع هذا فلعنرة فيه شيء من الحماسة وللحارث
الشكري قصيدة وصفية اخبارية ابداع فيها ومطامير :

عجبٌ خولة اذ تنكرني ام رأت خولة شيئا قد كبر
والسريع بحرٌ يندفق سلاسة وعدوبة يحسن فيه الوصف وتمثيل العواطف
ومع هذا فهو قليل جدّا في الشعر الجاهلي ومنه قول الخنساء :
وصاحبٍ قلت له صالح انك للغيل بمسقط
والمنقارب بحرٌ فيه رنة ونغمة مطربة على شدة مأنوسة وهو اصلح للعنف
منه للرفق ومنه قصيدة بشامة بن عمرو :

هجرت أمانة هجرا طويلا وحملك النأي عبأ ثقيلا
وقصيدة ربيعة بن مقروم :

من آل هند عرفت الرسوما بُجمران فقرأ أبت ان تريا
والفرس بصرة عونه كالرجز وعليه نُظمت شهامة الفردوسي
والمحدث او متدارك الاخنش بحرٌ اصابوا بتسميته الخبب تشبيهاً له بجنب الخيل
فهو لا يصلح الا لنكتة او نغمة او ما اشبه وصف زحف جيش او وقع مطر
او سلاح وهو قليل في الشعر القديم والحديث
والرجز ويسمونه حمار الشعر بحرٌ كان اولي بهم ان يسموه عالم الشعر لانه
سهولة نظمهُ وقع عليه اختيار جميع العلماء الذين نظموا المتنون العلمية كالنحو والفقه

والمنطق والطب فهو اسهل الجور في النظم ولكنه يقصر عنها جميعاً في ايقاظ
الشعائر واثارة العواطف فيجود في وصف الوقائع البسيطة وايراد الامثال والحكم
تلك هي الابجر العشرة التي نظمت عليها الالياذة فقد ترى النشيد كله مجزأ
واحداً وقصيدة واحدة وقد تعدد فيه الابجر والقصائد على مقتضى ما تراءى لي
من سياق الكلام

واما الابجر الستة الباقية وهي المضارع والمقنضب والمجثث والمزج والمديد
والمسرح فالاربعة الاولى منها لاتصلح لقصرها لمثل الالياذة ولا يجود نظمها
في ما خلا الاناشيد والتواشيح الخفيفة . والمديد قل من ينظم عليه وهو ثقیل على السمع .
والمسرح لم يتفق لي نظمته في الالياذة لغير سبب مقصود

القوافي

القوافي والاوزان اليونانية والافرنجية

اذا سمع العربي لفظة « شعر » علم فوراً ان المراد به بالنظر الى اللفظ الكلام المقفى
الموزون ورسخت في ذهنه القافية رسوخ الورن . وليس الامر على هذا الاطلاق
في سائر اللغات اذ ليس في اليونانية ولغات الافرنج ابجر وتفاعيل فانما هذه من خصائص
لغة العرب ومن هذا حذوهم من ابناء الشرق كالسريان والفرس والترك . واما
بنو الغرب فلم اقبسوا واوزان خاصة بهم . فالقياس عبارة عن عدة الاجزاء
او المقاطع التي يتألف منها الشطر او البيت والغالب فيها ان تكون اثني عشر
مقطعاً وهو ما يسمونه بالاسكندري نسبة الى اسكندر دوبرناي وهو اشبه شيء
برجز العرب . وهذا القياس البسيط يقوم عند الافرنج مقام جميع ابجر الشعر
وتفاعيله عند العرب . واما الالياذة وما جرى نبرها من الشعر اليوناني ففيه
الوزن تزيد اجزأؤه وتنقص بحسب التفاعيل فهناك اسباب خفيفة وثقيلة
تنأف منها اوتاد مجموعة ومفروقة تقوم مقام التفاعيل العربية والاساس في كل
ذلك طول المقطع او قصره وكون حرف العلة القائم مقام الحركة في العربية

ممدوداً أو غير ممدود . وبعبارة أخرى يراعى في المقام الاول موضع النبرة من اللفظة
واما القافية فليست من لوازم الشعر في كل اللغات فالفرنسوية لا يصلح
شعرها بدون قافية والانكليزية فيها الشعر المقننى وغير المقننى ومثلها الايطالية
والالمانية . فهذا الاعتبار نُقلت الايلاذة الى لغات الافرنج بالشعر المقننى كترجمة
يوب والشعر غير المقننى كترجمة مُنتي . واما الاصل اليوناني فهو موزون غير
مقننى وقافية كل بيت قائمة بنفسها لا تراعى فيها المائلة لاية قافية كانت من
القصيدة او الشيد

القوافي في لغة العرب

والعربية لا يصلح شعرها بدون قافية لانها لغةٌ قياسية رثانة يجب ان
يراعى فيها القياس والرنه . وفيها من القوافي المتناسبة ما ينعذر وجود نظيره في سائر
اللغات فلا يسوغ لها ان تبرز عطلاً مع توفر ذلك الحلي الشائق . فاذا
اقتصر الافرنجى على صوغ شعره كالجزء العربي لكل شطرين قافيتان متناسبتان
ينتقل منهما الى غيرها واضطراً الى تكرارها بعد حين او لو اختار ان يعرّي
شعره من القوافي بتاتاً فمذره في ذلك ان لغته هكذا خلقت . بل لو اجهد نفسه
في مواضع كثيرة لتعذر عليه تعزيز قافيتين بثالثة . والشاعر العربي بخلاف
ذلك فان كثيراً من ضروب القوافي تنهال عليه انهبال الغيث واذا انجبت
فلا تنجس الاقصير باخ او لقرع باب ضيق او لتجاوز الحد في اطالة القصيدة
المنظومة على قافية واحدة

تناسب القوافي والمعاني

وقوافي الشعر كبحوره يجود بعضها في موضع ويفضله غيره في موضع آخر
وحسبك دليلاً ان جميع قراء الشعر يطربون لبعض القوافي دون البعض
الآخر واذا نظم شاعرٌ واحد قصيدتين على بحرٍ واحد بمعنى واحد ونفس واحد
فلا ريب ان القافية الغناء تميل بالسامع الى اثارها على اختها . ولا ريب ان

اختيار قافية القصيدة ابعد مثلاً من اختيار بحرهما وذلك بنسبة ما يربو عدد القوافي على عدد البحور والمرجع في ذلك الى سلامة النوق وغزارة المادة . فالقرمحة الجيدة في غنى عن اصول توضع لما بهذا المعنى لو فرضنا من الممكن وضع مثل هذه الاصول فعي من نفسها نفع على القافية والبحر بلا جهد ولا تردد . ومع هذا فلا بأس من ايراد بعض ملاحظات لتراءى للناظم اثناء النظم وللقارئ اثناء المطالعة

الشعر كالنظم الموسيقي والقافية رسته او قراره فخيماً جاد النغم وتناسق الى منتهاه حسن وقعه في الاذن وانشرح له الصدر وطربت له النفس . فكل نغم اطرب ارباب الصناعة وذوي الاذن السمتة فهو الحسن وهكذا الشعر فلا يحسن وقعه في نفوس قرائه وساميه ما لم يكن جيداً وقد يستهان بالمعنى البليغ لضعف قافية او وقوعها في غير موضعها

القوافي الضيقة والثقيلة

واول ما يجدر بالشاعر اجتناب القوافي الصعبة الضيقة فانه يضطر معها الى استعمال الكلام المنبوذ والوحشي المهمل ويضيق في وجهه باب التصرف بالمعاني على ما يتصورها فيعضل عليه النظم وعلى قارئه الفهم . ولنضرب لذلك مثلاً نايغة من نوايغ الشعراء ابا الطيب المنيني . نغذ قصيدته التي مطالعها :

أُـمـسـأـوِـرُ ام قرن شمس هذا ام ليث غاب يقدم الاستاذ

وقابلها بمعظم شعره فيبدو لك من استغلاق العبارة والتكلف ما يحملك على الظن انها ليست من نظمه لو لم تكن مثبتة في ديوانه . وان اردت برهاناً اقرب فانظر في محبوكات صفي الدين الحلي وكأها منظومة في باب واحد واقرأ الثانية واخاتية والظاائية وان كنت صبوراً جلدًا فأتم قراءتها من اولها الى آخرها وقل لي بعد ذلك رأبك فيها

ففي مثل هذا المأذق الفيق يضطر الشاعر الى اتخاذ جميع البيت لثمة للقافية مع ان الغرض من القافية ان تكون لثمة للبيت مندجّة في معناه . فاذا كره في القافية

وهي كلمة واحدة ان تكون حشواً للبيت فكم يكره ان يكون جميع البيت حشواً للقافية ما لم يكن مبنياً عليها لغرض مقصود
رنة القافية

وكما ان العرب نظموا جميع المعاني على جميع البحور فقد كان هذا شأنهم في القوافي فلم يقيدوا قافيةً بباب من الابواب وخير للقوافي ان تبقى مطلقة يتخير منها الشاعر ما شاء فتأتيه ارسالاً . فان سلم ذوقه جاءته منقادة طوعاً فحلت محلها والا فلا يسلم الذوق كرهاً

ولكنه يجوز للباحث ان يلقي نظره على منظومات الشعراء ويمحصها بالنقد والمقابلة . فاذا فعلنا ذلك بدا لنا مثلاً : ان القاف تجود في الشدة والحرب . والبدال في الفخر والحماسة . والميم واللام في الوصف والخبر . والباء والراء في الغزل والنسيب . وانما هو قول اجمالي اذا صح من باب التغليب فلا يصح من باب الاطلاق . لان مناسحي التحول من نعمة الى اخرى في قافية الحرف الواحد اكثر من ان تحصى . فنغمة الراء مضمومة تختلف عنها مكسورة ومفتوحة . وهي وما قبلها متحرك غيرهما وما قبلها ساكن او معدود بحرف علة . ورنتها في بحر تختلف عنها في بحر آخر وهكذا الى ما لا نهاية له

وغاية ما يقال في هذا الباب ان المعاني الشعرية كالآلئ المنثورة لا مرشد الى احسان نظمها في سمطها خير من سليقة الناظم فان جادت الصنعة بهرت البصر والا جاءت ركماً بعضها فوق بعض وذهب خلل بنائها بنضارة رواثها

جوازات الشعر

ليس المقام مقام بحث في بيان اللغة وعروضها ونوع هذا فلا بد لي من ايراد نبذة يسيرة في ما رأيت اجتنابه واتيانه من الجوازات الشعرية استتماماً لبيان النهج الذي نهجته في التعريب

لو اراد الشاعر ان ينجح لكل خطأ يرتكبه في النظم بشاردة من شوارد

شعر العرب لما عدم سبيلاً الى التخلص من معظم ما يتورط فيه عجزاً وجهلاً . على
ان الطويل الباع القويم البراع تأبى نفسه ان يتوراك على شذوذ فارط وقدح
ساقط ولو كان صاحبهما من شيوخ الشعراء كمرىء القيس وزهير بن ابي سلمى . —
فاي شاعر تجيد يرتقي جزم المضارع بنير جازم بناء على ورود ذلك في معلقة
زهير بقوله :

وان سناه الشيخ لاحلم بعده وان الفقى بعد السفاهة يحلم
ومن يقبل على ايراد المتناورات في شعره افتداء بيت فذى لامرء
القيس اذ قال :

غداثها مستشترات الى العلى تضل العقاص في مثى ومرسل
بل من يقدم اليوم على قبض مفاعيلن الاولى من احد شطري الطويل
كما جاء في الشطر الثاني من بيت امرء القيس باخر لفظة «عقاص» — ومثله
قول طرفة :

أمن كالواح الاران نصاتها على لاحب كأنه ظهر برجد
وقول الشنفرى وقد قبضها في الشطر الاول

غدا طاوياً بعارض الريح هافياً يحقوت باذئاب الشباب ويمسل
ولا تخلو قصيدة من شعر الجاهليين من مثله . جاز لم ذلك لنغمة كانت لم
في تلاوة الشعر يضيع معها الفرق في الطويل بين مفاعيلن ومفاعلن . وليست
للمولدين تلك النغمة الا في شيء من انشاد اهل العراق ويضارعهم بها الفرس في
انشاد الشعر العربي والفارسي اذ يثرؤن على ياء مفاعيلن مرّاً خفيفاً فلا يشعر
بجذورها اذا حذفت وقد يسكنون اللام ولا حرج

وقد ضبط العروضيون جوازات الشعر ولكن لكل ناظم ضعفاً من وجه
فتكثر استباحته في ضروب لا يستبيحها غيره ويمتنع الواحد عما لا ينكره الآخر .
ولهذا رأيت ان اذكر ما انكرت وما لم انكر من تلك الجوازات :
استجبت صرف ما لا ينصرف حيث اقتضاه الوزن بلا تكلف الى منعه

قصرت الممدود قليلاً ولم استبح مد المقصور مطلقاً
لم اصل المقطوع الا بهزة ان بعد لو ولم افطع الموصول الا في اول
الشطر وهذا قليل جداً

لم اشدد المخفف . ولم اخفف المشدد الا اذا كان حرف قافية
لم اسكن المتحرك الا في ضمير الغائب والغائبة بعد الواو كما في « وَهَوَ »
و « هَي » ولم احرك الساكن الا حيث وجب تحريكه في الدرج للقاء
الساكنين او في القافية لاطلاقها . او ما جاز تحريكه على الاطلاق كاللم
اللاحقة بالضمير نحو « نَمُ » و « كَمُ »

لم اجنب تحريك العلم المنادى اذا اقتضاء الوزن
لم استعجز اخلاس حرف في ما سوى « انا » وحروف العلة الساقطة
طبعاً بدرج الكلام قبل الساكن كالواو والياء في « اولوا الحكمة » و « ذوي العلم »
لم اشيع الا ما جاز اشباعه كهاء الضمير الغائب الساكن ما قبلها نحو منه
او وجب كلفاء المذكورة المتحرك ما قبلها نحو « به »

سكنت في موضع او موضعين السين الواقعة في آخر العلم الاعجمي نحو
او ذيس تجارة لمن يحسب ان هذا الحرف مع ملازمته لاكثر تلك الاعلام يصح
اعتباره حركة بنفسه

واما ما فرط في كلام العرب من غريب المسوغات كمنع صرف المتصرف
وتذكير المؤن وتأنيث المذكر وفك المدغم فيجب ان يمتنع شاذاً ولا يجوز ان
يقتدى بشيء منه

عيوب القافية وسنادها

لا حاجة بي الى تفصيل عيوب القافية كالاكفاء والاجازة والافواء والاصراف
فان صغار الطلبة لا يجهلون في قوافي القصيدة الواحدة بين « فالخ وشانخ » او « كمين
وعميد » او « رجل وحمل » او « راس ونفس » وانما اقول كلمة في السناد

فنه ما يجب نبذه مطلقاً كسناد التأسيس في الجمع بين المؤسّ وغير المؤسّ كأن تكون قافية « بتصبر » وأخرى « يتظاهر » . ومنه المكروه وإن ورد قليلاً في شعر البلغاء كسناد الاشباع أي الجمع في القوافي بين نحو « مكارم » و « تفاهم » باختلاف حركة الدخيل

ويقرب من هذا سناد الرّدف وهو أن يكون بيت مردفاً بحرف علة وآخر غير مردف كالجمع بين « قوم » و « حلم » وهو أكثر وروداً في الشعر الصحيح ومنه الجائز الشائع وهو سناد الحدو وسناد التوجيه أي اختلاف حركة ما قبل الروي بين التثنية والضمّة والكسرة نحو « قدّم » و « قدّم » و « قدّم » وهذا النوع الأخير كثير في كلام النوايع من المتقدمين والتأخرين ومع هذا فقد اجتنبت في تعريب الالبّاذة جميع أنواع السناد جائزها ومكروهها

تكرار القافية

وأما تكرار القافية فليس من مذهبي وإن أجازته العروضيون . فلم استجبه في النظم ولم أكرر قافية واحدة في كل الالبّاذة بلفظها ومعناها طال القصيدة أو قصرت . ولا يستثنى من ذلك إلا حيث تكررت الايات في الاصل ووجب اعادة العبارة بنصّها أو حيث كان النظم رجزاً أو متقارباً مصرعاً فهناك كل بيت قائم بنفسه تنقطع القافية بانتهائه فإذا اتفق تكرارها بعد ايات فكأنما هي واقعة في قصيدة أخرى

التجنيس

لم أنوح التجنيس في شيء من النقل بل ربما نبذته إذا ظهر منه ثقل أو تكلف فانه اسمع شيء في الشعر إذا تسقطه الشاعر تسقطاً قال لي صديق من علّة الادباء وقد جرى امامه ذكر البيت القائل:

باللهنا لا تطعمن في مصر في عنهما فضلاً بما في مصر في

هذا بيت لشاعر ففاخر به الشعراء فوالله لو خيّرت بين ان أشق أو

يُنسب لي هذا البيت لاخترت الشنق . يثبتك هذا بمبلغ الانقباض الذي تحدته
في النفس امثال هذا التكلف . ومع هذا فقد أثبت ما جاء عنوا في الكلام بلا
تلمس مثال ذلك : (ص : ٢٦٢)

بهما التور عن الارض ارتفع وغمام السبر بالتور سطم
وحباب القطر في اكفافه كحبيب الدر للارض وقع
ذلك هو النهج الذي آلت على نفسي ان انهجه في كل الكتاب واني ابرأ
الى الله من العصمة فاذا فرطت مني فارطة على خلاف ما ذكرت فانما تلك هفوة
زل بها القلم وجل ربك ولي العصمة والسداد

ضروب النظم في التعريب

بقي عليّ نعمة لهذا الباب ان اذكر ضروب النظم التي جريت عليها في تعريب
الكتاب : —

رُبَّ من ترجوبه دفع الاذى عنك بأتيك الاذى من قبله
فقد يأتي الضرر من حيث يُرجى النفع فان اتساع القوافي في اللغة العربية من
جملة اسباب التضيق على الشعراء اذ معها طال الشاعر باعاً فلا يأتي على عدد
معلوم من الايات حق بكاد يستنزف القوافي السائفة ولهذا كان من المستحيل نظم
الالوف المؤلفة على قافية واحدة . وهذا من جملة اسباب ضعف الشعر القصصي
في العربية . واذا فرضنا وجود قافية تسع لمثل هذا المجال فالاذن تملّ توالي
النفمة الواحدة لأطيب الالخان . فهذه تائية ابن الفارض الكبرى وقل من
يقرأها مع ان حفاظ شعره يعدون بالالوف كما ابتأ في موضع آخر . واذا لجأنا
الى الرجز في مثل هذا السياق الطويل فلدينا من سائر البحور ما يفوقه جزالة في
بعض المواضع وقوة في مواضع اخرى

زارني صديق من نوابغ شعراء العصر وقال بودي نظم الحادثة التاريخية
الفلانية وهي تستغرق نحو خمسمائة بيت في سياق واحد وانه ليعز عليّ ان التزم

قافيةً لمثل هذا العدد ولا أحب ان انظمها رجزاً والمقام لا يؤذن بتقطيعها
قصائد . قلت وما قولك لو جعلتها نشيداً مسجعاً او مثنأ لا تستعيد القافية فيها الا
مرة كل بضعة ابيات فتخللها قوافي اخرى تطيب لها نفس القارىء . فلا يماها
ويتسع لك المجال فتخلص من العسف والتكلف فاستحسن واظنه فعل
ولهذا نوتت النظم على طرق شتى متبعاً لخطه التي تقدم بسطها ومراعياً
لكل ضرب من ضروب النظم مقاماً حسبته بنطبق عليه وربما قطعت النشيد
قصائد مختلفة وربما نظمته قصيدة واحدة . ووسمت لنفسي في استنباط ضروب
غير مطروقة ولكنني لم اخرج بشيء منها عن اصول الشعر واللغة .
فاستعملت النظم الشائع من قصائد وتخميس وارجيز وسالك مسالك اخرى
دعوتها باسماء رأيتها تنطبق عليها وهي :

المثنى

وفيه تبنى القعيدة على قافية يرجع اليها في كل بيتين مرة . وعروض البيت
الثاني فيه مطلقة من القافية على نحو ما اصططح عليه المتأخرون في الرباعي او
الدوينت الاعرج ومثاله : (ص : ٣٨٩)

لو ترأبست والمعجاج استطارا	ونجيع الدماء سال وفارا
ونبصرت بابين تيسل يس لم	تذر اي الجيشين منه اغارا
مستشيطاً ينقض فوق الاعادي	بنهب السهل بين عاد وغارا
كخليج يضيق بالسيل نجرا	ه فيستأصل الجسور الكبارا

وهكذا الى آخر القصيدة

المرثع

ومثاله : (ص : ٥١٥)

كسا الفجر وجه الارض ثوباً مزعفرا	وزفس ابوالاهوال في ارفع الذرى
على قمة الأولب تصني مهابة	لمنطقه الارباب ألف تحضرا

فقال: « لِيَعْلَمَ كُلُّ رَبٍّ أَوْ رَبَّةٍ بِمَا الْيَوْمَ فِي صَدْرِي فَوَادِي أَمْرَا
فَلَا يَنْبَذَنَّ الْأَمْرَاصَ بَلْ أَدْعُوا لَا تُنْذَمَا ابْرَمْتُ أَمْرًا مَقْدَرَا
لِنَصْرَةِ آيَةِ الْقَوْمِ مِنْ يَجْرِ مِنْكُمْ يَا وَبْنَ مَنْكُوبًا يَخْضُتْهُ الدَّمُ
وَالْأَفْنِ شَمِّ الْأَلْبِ بِرَاحَتِي إِلَى الظُّلُمَاتِ الدُّهْمِ يَلْقَى وَيُرْجَمُ
إِلَى حَيْثُ أَبْوَابِ الْحَدِيدِ قَدْ اسْتَوَتْ عَلَى عَتَبِ الثُّوْلَازِ وَالْقَعْرِ مُظْلَمُ
إِلَى هَوَاةٍ بَيْنَ الْجَحِيمِ وَبَيْنَهَا مَجَالٌ كَأَقْصَى الْجَوْعِ عَنْ اسْفَلِ الثَّرَى
وَالْتَمَنَ أَوْ الْمَرْبَعِ الْمَسْمُوطِ

ومثاله: (ص: ١٠١٤)

فَضِيضُ الْجَيْشِ مَذْدُورًا هَزِيمًا كَالظُّلُمِ نَفَرَا
إِلَى الْيُونِ حَيْثُ هُنَاكَ حَلْفُ حِمَارِهِ أَنْحَصَرَا
يُجَفِّفُ فِي ظِلَالِ قِلَاعِهِ عَرَقًا بِهِ سَجَتْ
كُتَابُهُ وَيُرْوِيهِ غُلَّةٌ فِيهَا قَدْ اسْتَعْرَا
وَرَاءَهُمُ الْإِخَاءُ وَالْجَوَاشِفُ فِي عَوَاقِبِهِمْ
جَرَوْا لَكِنْ هَكَطُورًا تَرَبَّصْ يَرْقُبُ الْقَدْرَا
لَدَى أَبْوَابِ إِسْكِيَا فُضَاهِ الثُّؤْمِ ثَبَّطَهُ
وَبَابْنَ أَبَاكَ أَفْلَوْنَ أَحَدُكَ يَصْدُقُ الْخَبْرَا:

« عَلَامَ وَأَنْتَ مِنْ بَشَرٍ جَرَيْتَ تَجِدُنِي أَثَرِي
أَتَجِبِلُ أَنِّي رَبٌّ فَتُرْتُ بِلَاهِبِ الشَّرِّ
تَرَكْتَ هُنَاكَ طُرُودًا تَفَرُّ إِلَى مَعَاظِلِهَا
وَجِئْتَ هُنَا فَلَا لَانَ تَفُوزُ تَعْسَتْ بِالظَّفْرِ
فَلَسْتُ بِبَائِتٍ أَبَدًا » فَقَالَ أَخِيْلُ مُتَقَدِّمًا:
« أَزْجَاغُ السَّهَامِ وَشَرُّ آلِ الْخُلْدِ وَالْكَبِيرِ
أَرَى أَنَا بَيْنِي عَنْ سُورِهِمْ مَكْرًا وَالْأَكْمَرِ

فنيَّ عضَّ الحفيض قُبيل ما بحصاره استترا
والموشَّح المسبَّح

ومثاله : (ص : ٩٣٣)

ما اشتمل الفجر بثوب الجساد من يمة يبرز فوق البلاد
يرمقه معبودها والعباد
حتى انبرت دون الخلايا تيس في تحف الرب هفست تيس
فابصرت آخيل فوق الثرى معانقاً فطرقل واري الفؤاد
يشق بالعبرة هامي الجفون وحوله اصحابه بسدبون
وسطهم حلَّت بتلك الشجون
وبده اجترت وقالت : « ألا مما طما الخطب وطم البلاد
دع ثم فطرقل على الترب اذ في قدر الارباب بالغيب باد
والموشح المثمن

ومثاله : (ص : ٤٥٧)

سار مكطور حثيثاً وأنى باب إسكية والزَّان طليل
فتلقته نساء وبنات منه علماً لتقصى سائلات
عن بنين وأخوان ثقات
وبعول وأخلاقاً فامر ان ييادرن على ذاك الاثر
ويصلين لارباب البشر
علماً تدفع عنهن الاذى ولزاهي قصر فزيام مفي
هو صرح شيد بالفتح الجميل فوق ابواب رواق مستطيل
خممه صف بديع المنظر غرّف قد بنيت بالمرمر
كلها خمسون ملّس الحجر

لبنى فريام شيدت مضجعا وثوت ازواجهم فيها بما
ويحاذين صف رُفعا

فيه بالابناس والرغد ثوى مع كل ابنة الصهر الحليل
وفيه المنظومة مبنية على قافيتين وهما هنا الا ان المقصورة واللام كما ترى وله
لازمة في اوله يبنى عليها وتؤسس قافيته في ختام الدور الاول بيتين واما في سائر
الادوار فبيت واحد

والموشح المردف

ومثاله : (ص : ٧٣٥)

كان نسطور لدى كأس الشراب مصفياً يسمع عجا واصطخاب
فلما حاوون قال : « أفكر فما علة ينجم عن فزع الحراب
حول تلك الفلك فتیان الوحي نغمهم يعلو مة لا تبرح
واشرب الخمر صرنا ربنا هيكميذا لك تحمي المسبحا
وتنقي الجرح من هذا الخضاب

وانا ماض ارى ماذا جرى بالسرى وأقتل نرسا اكبرا
كان نرسيميد قد غادره مؤثرا نرس ابيه نسطرا
وعلى رُمع طويل قبضا بسنان قاطع صبرا اضا
والى الباب عدا مستشرقا فله لاح القضا ايه قضا
بني الاغريق قد جل المصاب

والمستطرد

وهو ما تبنى القصيدة فيه على قافيتين فاكثر يرجع الى كل واحدة منها
كلما استطرد الى الموضوع الذي قيلت في اوله . مثال ذلك تعاورة اخيل وفيكس
(ص : ٥٦٨) بخطاب اخيل بقصيدة سينية من المثنى :

قال أخيل : « يا أذيس الموائس لي فاسمع فاني لا الألسن
لي مقال فلن احولن عنه فعيه واطرحن عنك الوسوسن
من يقل غير ما تيقن فكرا كان عندي من الجحيم اشرا
فالذي قد اسررت هاكم جهارا لجميع الاغريق لست بناكس
وجواب فينكس بقصيدة رائبة من المثنى ايضا :

فاستتم الحديث والقوم طرا بوجوم خالوا التصاب مرا
ثم فينكس والدموع هوام لاشتداد الوبال قال مصرا
« ان تكن عن تحذم واحتداد راغباً عن لقاء جيش الاعادي
وطلبت المآب يا ابني المندى كيف التي على بعادك صبرا
وهكذا فكلما تكلم احدهما رجع الى قافيته . وقد يقع هذا الاستطراد في غير
الخطاب والجواب كان يكون بين الخبر والانشاء او غير ذلك مما يقلضيه المقام

مصرع المقارب

وعلاوة على ذلك استحسن تصريع المقارب كما فصلت في الفقرة الاولى من
النشيد السادس بعد المطلع الآتي :

خلت ساحة الحرب من كل رب
فمن سيؤيس الى زنثس
فنعج العجاج بطعن وضرب
فراع السيوف ومد القسي

مصرع الرجز ومقفاه

وجعت في النشيد الثالث والعشرين بين مصرع الرجز ومقفاه التصريع
الانشاء والتقنية للخطاب وانبعث هذا النسق في كل النشيد المذكور



اللياقة والشعر العربي

الشعر القديم

لقد يُعجز الباحث في تاريخ الشعر العربي ان يرجع بحثه الى ما وراء قرن قبل الهجرة . وان معظم ما عراه بعض الكتاب الى من تقدم ذلك العهد ليس الا من باب التخرُّص فلا يصحُّ وضعه موضع ثقة بل يجب نبذه والحكم بانه انما وضع لتتمة حديث او تميم رواية . وكان فطرة العرب الشعرية تدفعهم الى ترصيع كل رواية من رواياتهم بايات ينقلونها من حيث تسر لهم النقل وان اعيانهم ذلك عمدوا الى وضع شيء مما تجود به فرائضهم . ولذلك كانت جميع نأليفهم مشحونة بالشواهد الشعرية مما يجوز الحكم بصحة نقله وما لا يجوز . فاذا ساغ لنا الآن ان نقول بصحة ما أخذ الشعر الجاهلي الحديث من المهمل بن ربيعة الى زهير بن ابي سلمى انه قيل في زمن كان فيه الشعر في ابانه وسوق عكاظ في ريعانها والحفاظ والرواة منبثون كسلاك البرق يدوتون وينقلون ويحوصون على اذخار مسموعهم وتحفظهم والقراءة مألوفة والكتابة معروفة والشعر ينزل يُحمد عليها فيُخزن اخزان الدر المنضود . ومع هذا فان بعضه لا يخلو من النقد والشبهات . ولكن من لنا بدليل واحد يثبت صحة اسناد الشعر المروي عن شعراء القبائل البائدة وكما انها من طسم وجديس وعاد وثمود . ون ذا الذي يثق اليوم مثلاً ان مهدي الكاهنة هي القائلة يوم انذرت قوم عاد بالهلاك :

اني ارى وسط السحاب نارا	تنثر من ضرامها الشرارا
يسوقها قوم على خيول	تهتف بالاصوات والصهيل
وهي عذاب يال عاد فاعلموا	فوحّدوا الله لكي ماتموا
ثم استجبروا بالنبي هود	نبي رب واحد معبود
فقد اتاكم عن قريب داهية	فليس تبقي منكم من باقية

اقطُ نطقى بثلها قوم عادٍ بل هي

ازاء الشعر العربي المنسوب الى
ثم الى الملائكة وابليس واشباه
ان يتكلف عناء الاشارة
، العرب عموماً قد أنكروا على
يم ابن عباس « من قال ان

الطبيعة الى التطلع الى اصل
مر يمشوا في اصله وجعل كل
نائل منهم أوّل من هذبه عدي
بالمهلل لانه أوّل من هلمل
م الى ان اول شعراء العرب
الى ما وراء ذلك الزمن باحساب
ثمود وقيل بل حمير وامثال هذه
العقل ويعجز النقل عن اثبات

، فلا يثبت مطلقاً ان العرب لم
يعتهم وطبيعة بواديهم وحواضرهم

دنا لعهد استجره وقبلها بقرنٍ على ما دنا عليه قبل عشرات من القرون .
فقد يصحّ الفرض ان النهضة الشعرية كانت تنفاوت ارتقاء وارتقاء بين زمن
وزمن ولكنه لا يصح القول ان جذوتها لم تلتهم الا لهذا العهد القريب .
فارتقاء بلاغة الشعر متقدّم على ارتقاء بلاغة النثر اللازمة الافكار الشعرية

للفطرة البشرية . واذا كان الشعر مدوّناً قبل اللياذة بعصور في لغات الهند والمصريين وبلادهم معنّلة بقيود الحضارة فما بالك بالعرب وهم في بداوتهم وجاهليتهم يطوفون في عالم الخيال فلا قيد ولا عقل يطرقون البوادي والقفار فينقرون فيها على ماشاؤهم الاوتار ويسامرون النجوم فلا يسرّ الجوّ عنهم شيئاً من بهائهما وهم جميعاً بين هائم وهاجع وهاجم ومدافع ومنافر ومفاخر وكل تلك الاحوال تهيج السليقة الشعرية حتى في الالفئدة الخاملة . وهم هم اليرم في باديتهم اولئك الرعاة الغزاة منذ النبي عام والشعر على تغير لغته وزوال اعرابه ما زال انيسهم وسيرهم في الحل والترحال وسيظل كذلك الى ما شاء الله .

طموه

لا ريب بعد ما تقدم ان الشعر العربي القديم درّس اثره وطمّس خبره وان ما يُنقل منه لا ياتنا حديث الوضع من نغزعات الكتّاب . ولعله يأتي زمن يتوصل فيه الباحثون في عاديّات الایام الخوالي الى اكشاف شيء مما قد يكون عُلقاً منه لغرض . ولكن افتراض حصول ذلك قليل الجدوى بالنظر الى لغة الشعر العربي من عهد شعراء الجاهلية المعروفين حتى يومنا . لانه اذا وجد شيء من الشعر الراقي الى ما فوق القرن الرابع للميلاد فانما يكون بلغة غير لغة امرئ القيس واذا كانت لغة اصحاب المملكات ونظائرها يُشكل فهمها على معظم قراء العربية مع جميع القيود التي قيّدت بها اللغة من عهدهم فما يكون مبلغ فهمنا من لغة تلك الفصوص ولا ضابط لها ولا قيد

عكاظ

وهو معلوم ايضاً ان منطوق لغة العرب كان يختلف وبتباعد بتباعد القبائل ولهذا كثرت المترادفات في اللغة العربية الى ما لا نظير له في لغة اخرى . ولو طال الامد على تلك اللغوي فلم نَقمْ سؤق عكاظ لبانت لغة الغرب لغات لا يتفاهم اصحابها واتصلت كلٌّ منها عن الاخرى انفصال العربية عن شقيقتها العبرية

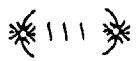
والسريانية . فلما عظم شأن السوق المكاظية واخذ الشعراء يؤثرونها من اطراف البلاد يتناشدون فيها ويتنافسون كان معظمهم انقاء الالفاظ الفصيحة المشهورة عند اكثر القبائل طمعاً بكثرة المستحسنين لشعرهم فاشتركت الالفاظ وعمت التعبيرات المألوفة بين الجميع فالتقت اللغة شر التفرق وامنت الفاظها من التبعض بين شتيت القبائل

وقد كان ذلك شأن العرب في اخيار الفصح من الكلام في نظائر عكاظ كذي الجاز في الجمالية ومربد البصرة في الاسلام

القرآن ولغة فريش

اذا ثبت ان لمكاظ ونظائرها فضلاً في تقيص الفاظ اللغة فانفضل العظيم في استحيائها واستبقائها انما هو للقرآن فهو الذي احكم تركيبها وابدع في تنسيق اساليبها وصعد بالبلغة الى اوج مراقبها . بل هو الذي جمع جامعها وهذب عبارتها . ولما ارتفع منار الدين الاسلامي كانت اللغة العربية تنتشر بانتشاره على وتيرة واحدة في مشارق الارض ومغاربها . ولا عبرة بما كان يعتور لغة العامة من الركّة والكنتة بمخالطة الاعاجم وبعده عهد الحلم الغدير من المالية العربية بالانقطاع عن اصولها . فان القرآن كان ولا يزال رائد الكتاب يرجعون اليه في مواضع الاشكال ويمثلون بعبارة وبتفهيم يلاغته فكان من مجزئه حفظ اللغة العربية الفصحى على اسلوب واحد منذ ثلاثة عشر قرناً مع تفرق حفظتها وتشتت المتكلمين بها

وفضل القرآن على الشعر العربي يكاد يفاهي فضله على لسان العرب لان بلاغة التعبير تهيج الفطرة الشعرية سواء كانت العبارة نثراً او شعراً . ولهذا كثير لفظ القائلين في اوانل الاسلام ان القرآن كلام شعري . فجاءت الآية بتكذيبهم (وما علمناه الشعر وما ينبغي له ان هو الا ذكر وقرآن مبين) فلذلك اجمع ائمة العرب على ان الشعر لا يعد شعراً ما لم يكن مقصوداً بالوزن . فان جاءت العبارة



موزونة على غير قصد فليست من الشعر في شيء . وامثال ذلك كثيرة في القرآن والحديث . فمن الآيات القرآنية « من كان منكم مريضاً او على سفر » و « واخرجت الارض اثقالها » و « لن تنالوا البرَّ حتى تنفقوا مما تحبون » ومن الحديث « هل انت الا اصبح دُمَيْتٌ وفي سبيل الله ما لَقَيْتُ »

وانَّ للافرنج اسلوباً ثرياً في الكتابة يتمدون فيه تميمي العبارة بما لا يجوز اتيان مثله في النثر البسيط ويتوخَّون فيه اثاره العواطف والخوض في عالم الخيال ومذهبهم فيه بخلاف مذهب العرب اذ يعدُّونه من فنون الشعر وان تجرَّد من القالب الشعري ولم يقصد به الوزن والتقفية

واذا كان اللسان العربي خلواً بعرف العرب من هذا النوع من الشعر فان في القرآن من البلاغة ما لم يجتمع له نظير في نثر ولا في شعر . فلا غرو اذا ان يكون هو الناهض بهذا اللسان تلك النهضة التي وطدت اركان فصاحته وهذبت مقول الشعراء حتى اُربت بلاغة التركيب وجزالة اللفظ في شعر المخضرمين والمولَّدين من اكثروا من تلاوته وسماعه على مثله في شعر من لقدمهم من فحول الشعر الجاهلي — قال ابن خلدون « وكلام الاسلاميين من العرب اعلى طبقة في البلاغة من كلام الجاهلية لانهم سمعوا القرآن وحفظوه وهو في اعلى طبقة من البلاغة وحفظوا الحديث ايضاً . ولذلك نجد شعر حسان والحطيئة وجريير والفرزدق وذوي الرمة والاحوص وبشار ابلغ من شعر امرئ القيس والنابغة وعنترة وابن كلثوم وزهير ونحوهم »

وخلاصة القول ان لغة الأعراب في البادية ومنطوق سائر العرب في حواضرهم ما زالوا يتراوحن بين الصعود والهبوط والقارب واليتاعد حتى هذَّبهما شعراهما عكاظ واتى القرآن فكان فيه القول الفصل والمنهج التويم والحجة الكبرى والاساس الوطيد

واذ كانت عكاظ بين نخلة والطائف في الحجاز ولقریش الحجاز منزلة

لأنما دلتها منزلة بين العرب ولم سدانة الكعبة كان الشعراء الوافدون من اليمن وبادية الشام وهضاب نجد وبرق تهامة وسائر أطراف البلاد العربية يشبهون جهدهم بلغة قريش المضربة وكانت اذ ذاك اللغة المعول عليها بين أكثر قبائل الحجاز ونجد فقيوت وما لبثت ان فازت بالقلبة في منظوم الشعراء . ثم جاء القرآن فأحكمها ذلك الاحكام الذي يدهش له الاعجمي فضلاً عن العربي وشعر ما سواها من لغات سائر القبائل في النثر والشعر الا بقية من الاصول النحوية والاصطلاحات التركيبية

وكانت لغة قريش تزداد رسوخاً في اذهان الشعراء وشيوخاً بين العرب كلما دانت قبيلة منهم بالدين الاسلامي بعد سماع آي القرآن ولا سيما بعد ان قام الشعراء القرشيون فأخذوا باطراف البلاغة فكان لم القيدح المعلى في الشعر كما كان لهم من قبل في رفعة القدر

وهو غير خاف انه كان لقريش بصراً في الشعر في الجمالية ومع هذا فلم تكن لم فيه مقامات عالية ولم يرتفع شعراؤهم بطبقته الى طبقة نوابغ الشعراء من سائر القبائل لان العرب كانت تفر لم بالتقدم في كل شيء الا الشعر . ولما استنهضتهم بلاغة القرآن واقبلوا على النظم واجادوا فيه ايما اجادة ونبغ منهم الفحول كعمرو بن ابي ربيعة كبيرهم والحارث بن خالد المخزومي والعرجي وابو دهيل وعبيد الله بن قيس الرقيات اقرت لم العرب بالشعر ايضاً

واما سائر قراء العربية والمتكلمين بها بعد حين من ملل الاعاجم من دان بالدين الاسلامي او انتشرت بينهم قبائل العرب فما عرفوا الا لغة القرآن والحديث وما تبعهما من كتب الفقه وعلم الكلام مما استمدت جميعاً منهما ومعظم ذلك من لغة قريش . واذا رجعنا الى علم النحو الذي يقوم عليه عاد التركيب والتعبير في اللغة راينا انه انما طشاً بفضل القرآن لانه وضع قبل كل شيء لضبط اقراءات القرآنية . ثم لما كتبت اسفار اللغة وسائر العلوم العربية وغير العربية كان القرآن والحديث مرجعاً للاستدلال على صحة التعبير واحكام التركيب وضبط

المتدرات فكانت لغة قريش في كل ذلك هي اللغة السائدة فحفظها الشعراء واصبحت في شعر المخضرمين والمؤدّين انقى منها في شعر ابناء الجاهلية اذ قلّ الخليط فيها من سائر لغات العرب وهكذا صارت لغة جميع كتّاب العربية من عرب واعاجم ولا عبرة بما طرأ عليها من الخلل والانحطاط وزوال الاعراب بين عامّة المتكلمين بها فان الفساد بتطرّق بمرور الزمان الى كل لسان . وحسب العربية مزينة على سائر اللغات الحديثة انه ليس بينهنّ لغة غيرها حفظت اصول شعرها وكتابتها منذ اربعة عشر قرناً وبقيت واحدة في جميع اطراف الارض بين العرب وغير العرب والمسلمين وغير المسلمين

مقابلة

بين لغة قريش المضربة ولغة اللياذة اليونانية

وكيف عاشت الاولى وتلاشت الثانية

قد يفهم من عنوان هذا الفصل اننا لا نقصد فيه المقابلة بين لساني العرب واليونان بالنظر الى ما بينهما من الصلة او الشبه والاختلاف في المنشأ والوضع والاشتقاق والتركيب فتلك امور ليس هذا موضع البحث فيها . ولكنه لا بدّ لنا من النظر الى سبب تلاشي لغة اللياذة لئلا يسير من استحكمها وبقاء لغة قريش حية طول هذا الدهر

ان سنة النمو والتحول وتفرّع الاصل الواحد الى اصول شتى تشمل اللغات كسائر المخلوقات . فقد قلنا ان لسان العرب في الجاهلية تفرق الى فروع كاد كل منها يقوم لغة بنفسه ويمتنع النفاذ بين اصحابه فجاء القرآن وازال الخلاف واثق عرى الارتباط فسادت اللغة القرشية . وهكذا كانت لغة قدماء اليونان فروعاً كثيرة مرجعها الى فرعين كبيرين الدثوري واليوني يتكلمهما سكان قلب بلاد اليونان ومستعمراتهم في صقاية وبعض بلاد ايطاليا وغيرها فها بمشابهة

لغة نجد عند العرب مع ما يتبعها من اطراف الحجاز . ويلحق بها فرع ثالث هو الايولي وكان لغة فريق من سكان اسيا الصغرى وتاليا وتوابعا فنشأت فنداروس وثيوكريس كانت باللغة الدورية ومنظومات هوميروس وهسيودس كانت باللغة اليونانية . وان بين اللغتين على تقاربهما فرقا يضا في نظيره بين لغات جنوبي الحجاز . ونجد واليمن . وكلما كانت تمتد فتوحات اليونان ويكثر الاختلاط كان يطرأ على تينك اللغتين تغير يبعدهما عن وضعهما وكان كل من الشعراء والكتّاب ينطق بلغة زمانه ومكانه حتى باتت لغة كل من بني الفرع الواحد تتميز عن الاخرى بالتعبير والتركيب . فاللغة اليونانية مثلاً هي التي نطق بها هوميروس في أخريات القرن التاسع ليلاد . وهي التي كتب بها ثوكيديدس وهيرودوتس في القرن الخامس وديموستينيس في القرن الرابع ومع هذا فالفرق بين لغتهم ولغته غير يسير بل قد تجد فرقا بين لغة ابناء كل قرن وآخر حتى لقد ذهب كرتيوس في تاريخ اليونان الى انه في زمن الاسكندر لم يكن يحصل التفاهم بين المكдонيين واليونان . وقال فلوطرخوس ان فيلبس وابنه الاسكندر جنحا الى ايشار لغة جبرتهما على لغة قومهما فعدلا اليها في بلاطهما وبطانتهم

وعلى الجملة فقد ظل هذا التغير يتعاظم حتى باتت اللغة اليونانية الحديثة لغة قائمة بنفسها ولما اصول بعضها اقرب الى اللغات الحديثة منها الى لغة اللياذة . ولهذا ترى نوايج كتّاب اليونان العصرين مع شدة ما بهم من الغيرة على احياء اللغة اليونانية القديمة والتشبه بها في بعض ما ينشئون لم يغنهم كل ذلك عن نقل اللياذة هوميروس واشباهها بالترجمة الى اللغة اليونانية الحديثة فكأنهما لغتان منفصلتان

واما العربية فليس هذا شأنها فان اصول اللغة ما زالت على ما نطق به شعراء الجاهلية وغاية ما يشكل فهمه على قراءها مفردات لم تألفها العامة ومترادفات متشابهات وتماير غير مأنوسة في عصرنا ولكن التباعد بين لغات العامة تحصور في الكلام العامي . فالحجازي واليميني

والنجدي والعراقي والمصري والسوري والمغربي وان اختلفت مصطلحاتهم في كل قطر من اقطارهم فهم جميعاً يكتبون بلغة واحدة على اصول لا تختلف شيئاً بين اقليم واطليم . وجميع هذه الاصول مبنية على اصول لغة القرآن

وان اختلاف منطوق العامة غير خاص بالعربية بل هو يتناول جميع اللغات الحية حتى اذا نظرت الى ارقاها كالفرنسية والانكليزية رأيت فرقاً يتنمى في كلام العامة بين منطوق ابناء قطر وقطر وان اتحدت اصول اللغة الفصيحة بين جميع الناطقين بها من ابناء تلك اللغة وغير ابنائها . واذا رجعنا بالتخصيص الى اليونانية الحديثة رأيناها على توحّد لغتها الكتابية متشعبة فروعاً بمنطوق عامة ابنائها فلهذا اثينا لغة اكرت وكلتاها تختلفان عن لغات ساقس وقبرس وجزر الارخبيل واسيا الصغرى

وخلاصة ما تقدم ان اللغة العربية اطول اللغات الحية عمراً واقدمهن عهداً والفضل في كل ذلك للقرآن . فاللياذة وبلاغتها وسائر منظومات هوميروس وهسيودس على علو منزلتهما لم تقم اللغة اليونانية دعامة ثابتة حتى في بلادها ولم تقو على مقاومة التيار الطبيعي ولكن القرآن وطّد اركان لغة قريش في بلادهم واذا دعا في جميع البلاد العربية وسائر البلاد التي طال فيها عهد الاحتلال الاسلامي او كثرت مخالطة العرب الضاربين في اقطار الارض للجهاد والتجارة

اطوار الشعر العربي

او طبقات الشعراء بالنظر الى ازمانهم ومزية كل طبقة منهم

هذا بحث لو تعمّدنا الافاضة فيه لاضطررنا الى التثبت من احوال كل عصر من عصور العرب والنظر في شؤون الشعراء وطرائقهم وقنونهم ومناحي نظمهم والرجوع الى مرامهم في شعرهم وطرق معاشهم وبيان انواع اقتباسهم من الاعاجم واقتباس الاعاجم منهم بالنقل والملازمة الى غير ذلك مما يؤدي الى تدوين سفر طويل . ومع هذا فلا بد من ان نلمّ بالموضوع المأما اجمالاً لئلا

بنوتنا استجماع اطراف الحديث الذي توخيناه . وعسى ان يكون لنا في مستقبل الزمن متسع لاعادة النظر فيه او بنهض اليه باحث من ادبائنا فيلجيه من جميع ابوابه ويوفيه حقه بما لا يتيسر في هذا المقام

من الكتاب من يقسم الشعراء بالنظر الى ازمانهم الى ثلاث طوائف او طبقات اولها شعراء الجاهلية ثم المخضرمون وهم الذين ادركوا الجاهلية والاسلام . ثم المولودون وهم سائر الشعراء . ومنهم من يزد طبقة رابعة وهي طائفة المحدثين فيحصر المولدين في فئة قليلة من ابناء اوائل الاسلام كالقرزوق وجبرير والاخلطل ويحمل جميع من اتى بعدهم في عداد المحدثين

واننا نأحون في بحثنا نحو اصحاب التقسيم الاخير بالتسمية دون الترتيب ومستدركون ما يجب استدراكه لاختلاط الطبقات الثلاث الاولى بعضها ببعض وواضعون حداً فاصلاً بين كل طائفة واخرى وباحثون في تماسك هذه الحلقات واسباب ترقى الشعر العربي حيناً من الدهر ثم انحطاطه في كلام المحدثين حتى ايام النهضة الاخيرة غير مغفلين في كل ذلك اوجه المقابلة مع منظوم صاحب الألياذة

النهضة الجاهلية

ليس بالامر السهل تعيين الزمن الذي بدأت فيه نهضة الجاهليين لاندثار منظوم الشعراء مما تقدم على الشطر الاخير من القرن الخامس للميلاد او ما تقدم على الهجرة بقرن ونصف قرن . على انه لا ريب ان النهضة الجاهلية المتصلة بالاسلام بدأت قبل الهجرة بقرنين او اكثر لاننا اذا قرأنا شعر المهلهل والشنفرى والمثقب العبدى والبراق بن رَوْحان وغيرهم ممن تقدم على الهجرة زهاء قرن وربع او ما يُنيف رأينا فيه من البلاغة وحسن الانسجام ما لا يجوز الحكم معه انهم كانوا في طليعة شعراء العرب بل لا بد من ان يكونوا نسجوا على منوال نوابغ سبقهم . ولكن لنا من وجه آخر مساعداً للحكم ان تلك النهضة لم تستحكم الا

الاباظة والشعر العربي — الحد الفاصل بين الجاهليين والمخضرمين * ١١٢ *

في القرن الاول قبل الهجرة ولم تبلغ اوج علاجها الا في سنة عقود من السنين الملاصقة للاسلام . ودليلنا على ذلك ان شعر معظم المتأخرين في الجاهلية كليلد ابن ربيعة وزهير بن ابي سلى وعنترة العبسي والاعشى والثابفة الذياني ارفى من شعر معظم المتقدمين عليهم في الزمن كالبراق وابي دؤاد والحارث بن عباد وامثالهم . ولا يضعف هذا الحكم نبوغ بعض المتوسطين بين الفريقين كامرئ القيس وطرفة بن العبد والحارث بن حلزة البشكري وعمرو بن كلثوم وغيرهم ممن لاصق الاولين ونبغ في منتصف القرن السادس للميلاد فكانوا نبراس تلك النهضة وقادة زمامها اذ يتيسر لنا بهذا الاعتبار ان نعين زمن استحكام النزعة الشعرية في نحو ذلك العهد اي سنة ٥٣٢ للميلاد او قبل الهجرة بنسعين عاماً وهو زمن نبوغ امرئ القيس اول ابناء الفريق المتوسط بين متقدمي الجاهليين ومتأخريهم

وعما يؤيد هذا القول ان كتاب العرب قسموا الشعراء الى طبقات باعتبار جودة الشعر كما قسموا الى طبقات بالنظر الى التاريخ فجعلوا اصحاب الطبقة الاولى من متأخري الجاهليين ومتوسطيهم كاصحاب الملقات جميعاً والثابفة والاعشى الاسدي وعدي بن زيد وعبيد بن الابرص وامية بن ابي الصلت . وعدوا سائر من تقدمهم في الطبقة الثانية الا المهلهل فانهم اختلفوا بين ان يكون من الثانية او الاولى

الحد الفاصل

بين شعراء الجاهلية والمخضرمين

اذا حسبنا لا تحكام النزعة الشعرية الجاهلية تسعين عاماً وجعلنا طليعتها امراً القيس فاننا نجسب لطور الشعر الجاهلي بأسره مئة وخمسين عاماً اولها سنة ٤٧٢ للميلاد وآخرها سنة الهجرة النبوية وزعيم جنده عدي بن ربيعة الملقب بالمهلهل . وهو معلوم ان بعض شعراء الجاهلية ادركوا صدر الاسلام وماتوا

في زمن النبي كرهير وهو الذي قيل فيه ان النبي نظر اليه يوماً وعمره مئة سنة فقال اللهم اعذني من شيطانه قيل فما قال بعد ذلك شيئاً من الشعر . ومنهم من مات في زمن الخلفاء الراشدين كعمرو بن معدى كرب . ومنهم من عمّر حتى انقضت دولة الراشدين وقامت دولة بني امية كليب المتوفى في خلافة معاوية وعمره على ما قيل مئة وخمس واربعون سنة . فامثال هؤلاء يحصل الاشكال في تعيين طبقتهم فتلتبس بين طائفتي الجاهليين والمخضرمين

وقد قيل في تفسير المخضرم هو من ذهب نصف عمره في الجاهلية ونصفه في الاسلام . او هو من ادرك الجاهلية والاسلام على الاطلاق تشبيهاً بالنافاة المخضمة التي قطع طرف اذنها كأن ما ذهب من عمره في الجاهلية ساقط لا يعتد به . وقل من ينطبق عليه القول الاول من فحول شعراء الجاهلية كليب العامري الذي عمّر طويلاً في الجاهلية والاسلام . واما الذين ادركوا الجاهلية والاسلام فكثيرون كرهير والخنساء والحطيئة ممن نبغ في الجاهلية وابى ذؤيب الجملي وكعب بن زهير وحسان بن ثابت ممن نبغ في الاسلام . ولهذا نظر البعض في تعيين الطبقة الى القرب والبعد من الاسلام فكان زهير عندهم جاهلياً وليد مخضرمًا وربما وضعوا ليد في طبقتين فقالوا هو جاهلي ومخضرم . وعندنا انه اذا صح احد هذين القولين بالنظر الى الشاعر وصفته فلا يصح شي منهما بالنظر الى الشعر وصفته . والا لوجب ان نجعل معظم المخضرمين في طبقة الجاهليين ايضاً فتختلط الطبقتان مع ان لكل منهما مزبنة خاصة بها على ما سنبينه في ما يلي

فلذلك وجب اعتبار الصبغة الشعرية في اقوال امثال هؤلاء فمن قال الشعر قليلاً في الاسلام او لم يقله عدّ جاهلياً كرهير ومن ربا قوله في الاسلام بعد ان اسلم وحفظ القرآن ككعب ابنه فهو مخضرم . ويقال مثل ذلك في حسان ابن ثابت شاعر النبي فهو زعيم المخضرمين وان تضى نصف عمره في الجاهلية وقال فيها الشعر الحسن

على انني لا اعلم باي مساغ يعدّ ليد والخنساء من المخضرمين . فاما ليد

اللياذة والشعر العربي - الحد الفاصل بين شعراء الجاهليين والمخضرمين * ١١٩ *

فان جميع شعره ولا سيما نه لفته من لباب الشعر الجاهلي ولم يرووا له في الاسلام
الا بيته القائل :

الحمد لله اذ لم يأتني اجلي حتى لبست من الاسلام سربالا
وقيل ان الخليفة عمر استشهده ايام خلافته من شعره فانطلق وكتب سورة
البقرة في صحيفة ثم اتى بها وقال : ابداني الله هذه في الاسلام مكان الشعر
فسرَّ عمر بجوابه واجزل عليه العطاء

واما الخنساء فجميع شعرها قبل الاسلام وبعده نغز وراثا ونفسه واحد
وصبغته واحدة وكله جاهلي ولا وجه لعدتها بين المخضرمين الا ان نحسب من
الشعر حماسياتها النثرية المسجعة كقولها لابنائها يوم وقعة القادسية : يا بني انكم اسلمتم
طائعين . وهاجرتم غنارين . والله الذي لا اله الا هو انكم لبنو رجل واحد كما
انكم بنو امرأة واحدة . ما هجنت حسبكم . ولا غيبت نسبكم . واعلموا ان الدار
الآخرة خير من الدار الفانية . اصبروا وصابروا ورابطوا وانقوا الله لعالم تفلحون .
فاذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها . وجلت نارا على ارواقها . فتيموا وطيسها .
وجالدوا رئيسها . تظفروا بالمغنم والكرامة . في دار الخلد والمقامة

فان في هذا الكلام مسحة من بلاغة المخضرمين ولكننا قد قدمنا ان العرب
لا تعد هذا الكلام من الشعر في شيء لانه غير مصوغ في قالب الشعري
وان كانت معانيه شعرية . فالخنساء وليد وامثالها في عرفنا يجب ان يعدوا من
شعراء الجاهلية بالنظر الى شعرهم وان صح ان يحسبوا من المخضرمين بالنظر الى
امتداد حياتهم

وهو ثابت ايضا انه في اوائل الاسلام حصلت فترة في الشعر فاسكتت
الشعراء ثم هبوا اليه هبة جديدة وبسوه ثوبا قشيبا . قال ابن خلدون : ن
الشعر كان ديوانا للعرب فيه علومهم واخبارهم وكان رؤساء العرب ينااسون فيه
وكانوا يفتنون في سوق عكاظ لانشاده وعرض كل واحد منهم ديباجته على فحول
الشبان واهل البصر حتى انتهوا الى المناظرة في تعليق اشعارهم بآركان البيت الحرام

تم انصرف العرب عن ذلك اول الاسلام بما شغلهم من امر الدين والنبوة والوحي وما ادهشهم من اسلوب القرآن ونظمه فسكتوا عن الطلوص فيه زماناً ثم استقر ذلك واونس الرشد في الملة ولم ينزل الوحي في تحريمه وسمعه النبي واثاب عليه فرجعوا الى ديدنهم منه »

فهذه الفترة التي ذكرها ابن خلدون وغيره من مؤرخي العرب هي الحد الفاصل بين الطور الاول والطور الثاني من اطوار الشعر العربي . فجميع ما تقدمها شعراً جاهلياً ويلحق به قليل مما تاخر عنها من قول شعراء الجاهلية الذين ادركوا الاسلام واسلموا وبقي شعرهم على صفتة الجاهلية الصرفة كعبدة بن الطاييب كما سنثبت في الفصل التالي بايراد مثال من شعره في الاسلام

الطبعة الاولى

او شعراء الجاهلية

خاض العرب في الجاهلية عباب بحر الشعر ووجلوا كل باب من ابوابه فوصفوا وترسلوا وتفنوا وتفزلوا ومدحوا وهجوا ورثوا ودنوا الاخبار وضربوا الامثال ووضعوا الحكم وتناقروا وتفاخروا وشاعزهم مندفع في كل ذلك بسائقة الطبيعة يفكر في محسوس بين يديه . ومنظور امام عينيه . وعاطفة بين جنبه . وشعيرة تخرج في صدره . وصورة مرسومة في تخيلته منعكسة عن طرق معيشته وفطرته . لا يتطاع الى ما وراءها ولا يتكلف الزخرف والتنيق

وكانوا يسدون قولهم نحو كبد الحقيقة فلا يخطئونها ويقولون الشعر عن شعور حي ولا يخطئون الى ما وراء مشهودهم ومعقولهم فجاء شعرهم مثلاً صادقاً لبدائتهم وحضارتهم . حتى لو اندثرت جميع اخبارهم وانارهم وما بقي الا شيء من شعرهم لتيسر للباحث ان يستخرج منه وصفاً كاملاً لجميع احوالهم كما استخرج الباحثون كثيراً من غوامض جاهلية اليونان من شعر هوميروس

ويسري هذا الحكم على جميع شعراء الجاهلية من عبدة الاوثان واليهود والنصارى ومن ادرك الاسلام واسلم او لم يسلم . وهم في ذلك سواة في الدين . ونجد والحجاز والعراق وبادي الشام وسائر اطراف بلاد العرب . فالشاعر منهم إما بدوي عريق في البداوة واما حضري لاصق بانباء البادية وكلاهما متخلف باخلاق الجاهلية ينزع الى رسم الحقيقة رسماً ناطقاً . فاذا روى حادثة بسطها بسطاً جلياً والم بها المأماً واضحاً يفنيك عن التفرص والتنقيب نظير ما فعل هوميروس في ايراد كل حوادثه . واليك مثلاً قول المهلهل بعد وقعة السلاء اذ حضرها مع اخيه كليب وفرّ ابن عنق الحية من وجهها :

لو كان نام لابن حية زاجراً	لنهاه ذا عن وقعة السلاء
يوم لنا كانت رئاسة اهل	دون القبائل من بني عدنان
غضبت معد غنثا وسمينها	فيه ممالاة على غسان
فأزالم عنا كليب بطمنة	في غمر بابل من بني فحطان
ولقد مضى عنها ابن حية مذبراً	تحت العجاجة والخنوف دوان
لأ رآنا بالكلاب كأننا	أسد ملأوتة على خفان
ترك التي سمعت عليه ذبولها	تحت العجاج بذلة وهوان
ونجا بهجته وأسلم فومه	متسربلين رواعف المرائ
يشون في حلق الحديد كأنهم	جرب الجمال طلين بالقطران
نعم النوارس لا فوارس مذبح	يوم المباح ولا بنو همدان
هزموا العداة بكل اسم مارين	وهند مثل الغدير يمان

واذا وصف شيئاً فانه يستجلبه على علته ويستتم تبيان حالته على طبيعته كقول عبدة بن الطبيب يصف ناقته ويشبهها بالنور الوحشي المتذعر امام الكلاب :

نرى المعنى مشفراً عن مناسمها كما تجاجل بالوغل الغرايل^(١)

(١) المشفراً المتشوق . ويججلل يحرك فيذهب دفاقه ويطبق جلاله . والوغل الردي

كَأَنَّهَا يَوْمَ وَرَدِ الْقَوْمِ خَامِسَةً مَسَافِرُ أَشْعَبِ الرُّوقَيْنِ مَكْحُولٌ^(١)
تَجْتَابُ نَصْعَ جَدِيدٍ فَوْقَ نُقْبَتِهِ وَالْقَوَائِمُ مِنْ خَالٍ سِرَاوِيلٌ^(٢)
مُسْفَعُ الْوَجْهِ فِي أَرْسَاعِهِ خَدَمٌ وَفَوْقَ ذَلِكَ إِلَى الْكَمْبَيْنِ تَحْجِيلٌ^(٣)
بَاكِرُهُ قَانَصٌ يُسَمَّى بِأَكْلَيْهِ كَأَنَّهُ مِنْ صِلَاءِ الشَّمْسِ مَمْلُولٌ^(٤)
يَأْوِي إِلَى سَلْفَعٍ شَعَثَاءَ عَارِيَةٍ فِي حُجْرَاهَا تَوَلَّى كَالْقِرْدِ مَهْزُولٌ^(٥)
يُثْلِي ضَوَارِيَّ أَشْبَاهًا بِجَوَّةٍ فَلَيْسَ مِنْهَا إِذَا أُكِّنَ تَهْلِيلٌ^(٦)
يَتْبَعُنَ أَشْعَثَ كَالسَّرْحَانِ مُصَلَّتًا لَهُ عَلَيْهِمْ قَيْدُ الرِّمَحِ تَمِيلٌ^(٧)
تَقْضِمُهُنَّ قَبِيلًا ثُمَّ هَاجَ بِهَا سَفْعٌ بِأَذَانِهَا شَيْنٌ وَتَنْكِيلٌ^(٨)
فَاسْتَثَبَتِ الرُّوعَ فِي النَّاسِ صَادِقَةً لَمْ تَجْرِ فِي رَمْدٍ فِيهَا الْمَلَامِيلُ^(٩)

- (١) الخاتمة واردة الخمس . والمسافر الخارج في أرض إلى أخرى وأراد به الثور الوحشي . وأشعب الروقين الذي انشعب قرناه
- (٢) المجتاب اللابس . والنصع الأبيض . شبه الثور لبياضه . بلبس ثوب أبيض . ونقبتة لونه . والخال برود فيها خطوط سود وحمرة
- (٣) السفعة سواد يضرب إلى الحمرة . والخدم جمع خدمة وهي الخماخال
- (٤) مملول أي كأنه منشوي في ملة وهي الرماد الحار
- (٥) يأوي أي الصائد إلى أمراته . والسفع الجرثومة . البذنة . والتولب ولد الحمار شبه ابنها به
- (٦) يثلي يدعو . والضواري الكلاب المضرة . والتهلل ان لا يصدق الجملة يقال قد هل الفارس إذا قصر
- (٧) يعني الكلاب . وأراد بالاشعث القانص . والسرحان الذئب . والمتصل المنجرد في امره . وقيد الرمح قدره
- (٨) السفع السود . قوله بأذانها شين أي آذانها مقطعات ببرائتها وذلك لقولم ان الكلاب إذا عدا فاجتهد في عدوه قطع أذنه بمخالبه لدنوها منها
- (٩) أي لما نظر الثور إلى الكلاب قد هاجت به ثبت الرُّوع في عينه لما عاينه .

فانصاعَ وانصعن يهنوكها سديك^(١) كأنهن من الضمير المزاجيل^(١)
 فانقضَّ ينفض مدريَّين قد علقا تخافون غمرات الموت تخذول^(٢)
 شروى شبيهين مكروباً كموبهما في الجنبتين وفي الاطراف تأسيل^(٣)
 كلاهما يبتغي نهك القتال به ان السلاح غداة الرّوع محول^(٤)
 يخالس الطعن إيشاغاً على دهش بسلبه سخفه في الشأن مطول^(٥)
 حتى اذا مضى طعناً في جواشنها ورّقه من دم الاجواف معلول^(٦)
 ولّى وصّر عن من حيث التبسّن به مضرّجات باجراح ومقتول^(٧)
 كأنه بعد ما جدّ النجاة به سيف جلا حده الاصناع مسلول^(٨)

وقوله صادقة اي صلبة صحيحة النظر لا تكذبه . والملايل جمع ملمول وهو الكحال^(١)
 يريد انه لم يكن بعينه رمد يجري له فيها ملمول

(١) يهنو اي كانه يطير فوق الارض من الخفة . وانصاع اخذ ناحية .
 والسدك الملازم . يقول كل الكلاب ملازم للثور لا يفارقه . والمزاجيل المزاربق^(٢)
 يزجل بها

(٢) اي فاهتز الثور حمية وانفاً من الفرار من الكلاب . والمدريان القرنان .
 وعلقا صلبا . وتخذول اي لا عون له

(٣) شروى الشيء مثله . وقوله شبيهين يعني القرنين شبيههما بالرتعين .
 والمكروب الشديد الفتل واصل ذلك في الجبل ثم قيل لكل ممثلي شديد مكروب .
 واراد بالجنبتين الجنبين . والتأسيل الاستواء والطول

(٤) كلاهما اي كلا القرنين . والنهك الشدة والاستقصاء .
 (٥) اي يطعنهما نخالسة لكثرتها . والايشاغ الخفة . والسلب الطويل .
 وسنخ الشيء اصله . والشأف ملتقى كل فيلتين من قبائل الرأس الاربع .
 والممطول الممدود

(٦) مض اوجع واحرق . والجواشن الصدور . والمعلول الذي سقي الدم مرة

مُسْتَقْبَلُ الرِّيحِ يَهْفُو وَهُوَ مُبْتَرِكٌ^(١) لسانه عن شمال الشدق معدول^(٢)
 يخفي الترابَ باطلاً ثمانية^(٣) في اربع مسهن الارض تحليل^(٤)
 له جنابان من تقع يثور^(٥) ففرجه من حصى الممزا مكاول^(٦)
 وهذا الشعر وان كان مقولاً في اوائل الاسلام فقائله جاهلي وليس في
 شعر ابناء الجاهلية ما يفوقه تمثيلاً لنزعتهم الشعرية . ومثله قول بشر بن عوانة
 في الاسد :

افاطم لو شهدت بطن خبت^(١) وقد لاقى المزبر أخاك بشرا^(٢)
 إذا لرأيت لنا زار لنا^(٣) هزبراً أغلباً لاقى هزبراً^(٤)
 تهنس ثم اجتم عنه مهري^(٥) تعاذرة فقلت عقرت مهراً^(٦)
 أنل قدمي ظهر الارض افي^(٧) رأيت الارض اثبت منك ظهراً^(٨)
 وقلت له وقد أبدى نصلاً^(٩) تعددة ووجهاً مكفهراً^(١٠)

بعد مرة أخذ من اللل وهو الشربة الثانية وانما قال دم الاجواف لان الثور
 نعمد مقاتل الكلاب

(١) المبترك المعتمد في سيره لا يترك جهداً . وقوله مستقبل الريح يستروح
 بها جوفه لحرارة التعب

(٢) يخفي التراب يستخرجه لشدة عدوه . وقوله مسهن الارض تحليل اي على
 قدر تحلة اليمين كأنه اقسم ليمس الارض

(٣) الجنابان الناحيتان يقول قد ارتفع له من جانبيه غبار من شدة عدوه .
 والممزا الارض ذات الحصى اي انه اشد عدوه يرد الحصى على فرجه فكأنه
 اكليل له وهذا غاية شدة العدو

(٤) الخبت المطمئن من الارض وفيه رمل . والمزبر الاسد

(٥) الاغلب من صفات الاسد للمبالغة في الغلب

(٦) تهنس بتختر

بكنكبن غيلةً إخذى يديه ويسطُ للوثوبِ عليّ أخرى
 بدلُ بمخلبٍ وبمجدٍ نابٍ وبالعظا تَحسِبَن جِرا
 وفي يُنْأَي ماضي الحدِّ أبى بمضربه قِراعُ الموتِ اثرا
 ألمْ يلفك ما فعلت ظباهُ بكاطمة غداة لقيتُ عمرا
 وقلبي مثلُ قلبك ليس يخشى مُصاولةً فكيف يخافُ دَعرا
 وأنت ترومُ الاشبالِ قوتا واطلبُ لأبنةِ الاعمامِ مهرا
 ففيمَ تسومُ مثلي أب بولي ويجعلُ في يدك النفسَ قسرا
 نصحتك فالتس ياليتُ غيري طامعا ان لحى كنت مرّا
 فلما ظن أن النفسَ نصحي وخالفني كأني قلتُ هُجرا
 مشى ومثيتُ من أسدين زاما مرأما كنت اذ طلباهُ وغرا
 هرزتُ له الحسامُ نفلتُ أني سملتُ به لدى الظلاء فجرا
 وجدتُ له بجائشة أرنه بأن كذبتهُ مانتُهُ غدرا ^(١)
 واطلقتُ المهند من يميني فقدَ له من الاضلاع عسرا
 فخرٌ مجدلاً بدمٍ كأني هدمتُ به بناءً شمشعرا
 وقلتُ له يمزُ عليّ أني قتلتُ مناسبي جلدًا ونفرا
 ولكن رمتَ شيئًا لم يرمه سواك فلم أطق ياليتُ صبرا
 تحاولُ أن تعلمني فرارًا لعمري ابيك قد حاولتُ نُكرا
 فلا تجزع فقد لاقيت حُرّا يحاذر ان يعاب فت حُرّا
 فان نكُ قد قتلت فليس عارًا فقد لاقيت ذا طرفين حُرّا

وهذا هو بالنفس نسق هوميروس في استنماف مزاياف موصوفاته . وان هذه
 الافاضة في التمثيل ضعفت كثيرا في شعر المخضمين ومن وليم

(١) الجائشة النفس . بتهكم على الاسد ويقول اظهرت له اني جدت له بنفسي
 ولكن نفسي كذبت تلك الامنية وفكت به

وقد كان ذلك أسلوب الجاهليين في جميع ما مثلوه بشعرهم مما يتناول أحوال الحرب والسلام والعادة والخلق والمعيشة في الإقامة والسيار
واذ كان محسوسهم خشناً ومطالباتهم غير ممتدة كثيراً إلى ما وراء الحروب وأخبار القبائل كان معظم شعرهم في ما وافق ذلك المحسوس وتلك المطالبات فأفاضوا في وصف البوادي والقفار واكثروا من وصف معيشتهم وأحوالها ومدح الكرم والوفاء وقرى الضيف وأسهبوا في ذكر ما لديهم وحواليهم من سلاح وخيل وأبل وما أشبه من معدات زمانهم ومكانهم
ومع هذا فإن لغتهم وإن كان فيها شيء كثير من خشونة معيشتهم فقد كانت منسجمة للغرام والحكم الرائعة والحاسة ووصف الشعائر والأخلاق فتلك جميعها أمور منطبعة في فطرة الجاهلي انطباعتها في نفوس أعرق الخلق في الحضارة . بل ربما كانت أصنى وانقى في أذهان أبناء البادية . فأي شعر في الفخر والحاسة أسمى من قول السموأل :

إذا المرء لم يندس من اللؤم عرضه	فكل رداء يرتديه جميل
وإن هو لم يحمل على النفس غيماً	فليس إلى حسن الثناء سبيل
تعيرونا أنا قليل عديدنا	فقلت لها إن الكرام قليل
وما قل من كانت بقاياها مثلنا	شباب تسمى للعلى وكهول
وما ضرنا أنا قليل وجارنا	عزيز وجار الأكرمين ذليل
لنا جيل يحمله من نجبره	منيع يرد الطرف وهو كليل
رسا أصله تحت الثرى وسما به	إلى النجم فرع لا ينال طويل
هو الأبلق الفرد الذي شاع ذكره	يعز على من رامه وبطول
وأنا أقوم لأنرى القتل سبة	إذا مارأته عامر وسلول
يقرب حب الموت آجالنا لنا	وتكرمه آجالهم فتطول
وما مات منا سيد حنف أنفه	ولا طل يوماً حيث كان قتيل
تسيل على حد الظلمات نفوسنا	وليست على غير الظلمات تسيل

صفونا ولم نكدز واخلص سرنا
علونا الى خير الظهور وحطنا
فنحن كماء المزن ما في نصابنا
ونكر ان شئنا على الناس قولم
اذا سيد منا خلا قام سيد
وما اخمدت نار لنا دون طارق
وايامنا مشهورة في عدونا
واسياننا في كل شرق ومغرب
معوذة ان لا تسلم نصلها
سلي ان جهلت الناس عنا وعنهم
فان بني الريان قطب لقومهم

واي قول في الحكمة احسن من قول زهير :

وأعلم ما في اليوم والامس قبله
رأيت المنايا خبط عشواء من تصب
ومن لا يصانع في أمور كثيرة
ومن يجعل المعروف من دون عرضه
ومن بك ذا فضل فيمخل بفضل
ومن يوف لا يذم ومن يهد قلبه
ومن هاب اسباب المنايا ينلته
ومن يجعل المعروف في غير اهله
ومن يعص اطراف الزجاج فانه
ومن لا يزد عن حوضه بسلاحه
ومن يغتر بيحسب عدوا صديقه
ومن لم يزل يسترحل الناس نفسه

ولكنني عن علم ما في غد عم
نمته ومن تخطى يعمر فيهم
يضرر بأنياب ويوطأ بنسم
بفره ومن لا يتق الشتم يشتم
على قومه يستغن عنه ويذم
الى مطمئن البر لا يتعجم
وان يرق اسباب السماء بسلم
يكن حمده ذمًا عليه ويندم
يطيع العوالي ركبت كل لهدم
يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم
ومن لا يكرم نفسه لا يكرم
ولا يعنها يومًا من الذل يندم

ومهما تكن عند امرئ من خليفة
وكانت ترى من صامت لك محجبة
لسان الفتى نصف ونصف فؤاده
وان سناه الشيخ لاحم بعده
سألنا فأعطيت وعدنا وعدتم
واليك مثلاً في الغزل من بنية
بسطة رابعة الجبل لنا
حررة تجلو شتيتاً واضحاً
صقلته بقضيب نافر
ايض اللون لذبذا طمه
تمنح المرأة وجهاً واضحاً
صافي اللون وطرفاً ساجياً
وقروناً سابغاً اطرافها
هيج الشوق خيال زائر
آنس كان اذا ما اعتادني
وكذاك الحب ما اشجعه

وان خالها تحق علي الناس تعلم
زيادته او نقصه في التكلم
فلم يبق الا صورة اللحم والدم
وان الفتى بعد السفاهة يحلم
ومن اكثر التسلل يوماً يحرم

وبيد بن ابى كاهل الشكري :
فوصلنا الجبل منها ما اتسع^(١)
كشعاع الشمس في النسيم^(٢)
من أراك طيب حتى نفع^(٣)
طيب الربق اذا الربق خدع^(٤)
مثل قرن الشمس في الصعود ارتفع
أكل العينين ما فيه فنع^(٥)
غللتها ريج مسك ذي فنع^(٦)
من حبيب خفي فيه قدع^(٧)
حال دون النوم في فامتنع
يركب الهول ويعمي من وزع

(١) الجبل بمعنى الوصل او العهد والميثاق . وما اتسع اي بقدر امتداده

(٢) الشيت الشجر المنفلج

(٣) اراد بالقضيب الناضر المسواك

(٤) يقال خدع ريقه اذا تغير

(٥) الساجي القليل التحرك . والتمع كد في لحم الموق

(٦) القرون الذوائب . وغللتها دخلت فيها . والفنع الكثرة

(٧) الخمر الحياء . والقده الرد يقال قدعته اي رددته

فَأَيَّتَ اللَّيْلِ مَا أَرْقَبُهُ وَبَعِينِي إِذَا نَجْمٌ طَلَعَ^(١)
 وَإِذَا مَا قُلْتُ لَيْلٌ قَدْ مَضَى عَطَفَ الْأَوَّلُ مِنْهُ فَرَجَعَ
 يَسْحَبُ اللَّيْلَ نَجْمًا مُظْلَمًا فَنَوَالِيهَا بِطَيِّثَاتِ النَّبْعِ
 وَيَزَجِّبُهَا عَلَى أَبْطَانِهَا مُغْرِبَ اللَّوْنِ إِذَا اللَّوْنُ انْقَشَعَ^(٢)
 فِدَعَانِي حُبٌّ سَلَى بَعْدَ مَا ذَهَبَ الْحِدَّةُ مِنِّي وَالرَّيْعُ^(٣)
 خَبَلْتَنِي ثُمَّ لَمَّا تَشَفَّنِي فَنَوَادِي كُلِّ أُوبٍ مَا اجْتَمَعَ
 وَدَعَّتَنِي بِرُقَاةِهَا أَنَا تُنْزِلُ الْأَعْصَمَ مِنْ رَأْسِ الْبَيْعِ
 تُسَمِّعُ الْحَدَاثَ قَوْلًا حَسَنًا لَوْ أَرَادُوا غَيْرَهُ لَمْ يُسْتَمَعْ
 كَمْ قَطَعْنَا دُونَ سَلَى مَهْمَا نَازَحَ الْغَوْرَ إِذَا الْآكَلُ لَمَعَ
 فِي حُرُورٍ يَنْضَجُ اللَّحْمُ بِهَا يَأْخُذُ السَّائِرَ مِنَّا كَالصَّقْعِ^(٤)
 وَمَإْنِ لَمْ يَلْغُوا فِي الْغَزْلِ رَقَّةَ الْمُنَاخِرِينَ فَلَهُمْ بِوصفه سُدَاجَةٌ نَقُولُ كَثِيرًا
 مِنَ الْمَعْنَى فِي الْكَلَامِ الْقَلِيلِ وَلَا سِيَّامَا إِثْنَاءَ مَزْجِهِ بِذِكْرِ الْحُرُوبِ كَقَوْلِهِمْ فِي مَا يَنْسَبُ
 إِلَى عُنْتَرَةٍ:

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكَ وَالرِّمَاحَ نَوَاهِلُ^(١) مَنِي وَيِضُّ الْهِنْدِ نَقَطَرٌ مِنْ دَمِي
 فَوَدِدْتُ نُقْبِيلَ السِّيفِ لِأَنَّهَا لَمَعَتْ كِبَارِقُ ثَغْرِكَ الْمُنْتَسِمِ
 تِلْكَ كَانَتْ عَلَى الْجِلَّةِ مَنَازِعُهُمْ فِي شَعْرِهِمْ وَذَلِكَ هُوَ نَتَاجُ الْقَرَائِحِ الْجَاهِلِيَّةِ وَأَنْتَ
 ثَمَرِي إِنْ أَصْحَابُ تِلْكَ الْقَرَائِحِ لَمْ يَكُونُوا أَبْنَاءَ جَاهِلِيَّةٍ جَهْلَاءَ مِنَ الْجَهْلِ بَلْ مَا أَحْرَامُ
 إِنْ يَكُونُ أَطْلَقَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ لِشُبُوحِ عِبَادَةِ الْأَوْتَانِ بَيْنَهُمْ وَلَعَلَّ هَذَا هُوَ الْمُرَادُ
 بِمَا جَاءَ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ «الْحَكْمُ الْجَاهِلِيَّةِ يَفْغُونَ» إِذْ قَالُوا فِي تَفْسِيرِهَا

- (١) وَيُرْوَى وَيَمْتَنِي أَيِ يَتَعَبَّنِي يَقُولُ أَنَّهُ سَاهِرٌ لَيْسَ بِنَامٍ فَهُوَ يَرَاغِي النُّجُومَ
- (٢) الْمَغْرِبُ الْإِيضُ يَعْنِي يَبَاضُ الصَّبَاحِ . وَانْقَشَعَ ذَهَبَ . وَيَزَجِّبُهَا يَسُوقُهَا
- (٣) الرِّيعُ أَوَّلُ الشَّبَابِ
- (٤) الْحُرُورُ الرِّيحُ الْحَارَّةُ . وَالصَّقْعُ حَرَارَةُ تَصِيبِ الرَّأْسِ

اللغة الجاهلية

وقد اوردنا من قولم فضلاً عما تقدم امثلة شتى من مرادفات اقوال هوميروس في شرح اللياذة

ومدة هذا الطور الشعري زهاء مئة وخمسين عاماً . ومن صفوة نحوله امرؤ القيس وطرفة بن العبد والحارثة بن حلزة وعمرو بن كلثوم وعنترة العبسي وزهير ابن ابي سلى وليد بن ربيعة وهؤلاء هم اصحاب الملقات والناطقة الديباني والمهلل والاعشى الاسدي وعدي بن زيد وعبيد بن الابرص وبشر بن ابي حازم وامية ابن ابي الصلت والسموأل والثغفري ودريد بن الصمة

ومزجه البساطة والبداية واقتناه النطرة وتمثيل الحقيقة في رسم الطبيعة . فهو في جميع ذلك اعلى طيعة من شعر المتأخرين من العرب ولا يفوقه شيء من شعر المتقدمين من سائر الأمم حتى اليونان والرومان

الطبقة الثانية

اوشعراء المخضرمين وشعراء الدولة الاموية

علت ان النهضة الشعرية كانت في ريعانها عند ظهور الاسلام فجاء القرآن واسكت الشعراء . وما اسكتهم الا ليزيد نهضتهم استحكاماً ويملاً حوافظهم يلاغنه الخلافة . فاندفعوا اندفاع السيل المنهر واذهانهم ملأى بما اذخرت من الشعر الجاهلي وما ضمت اليه من البلاغة القرآنية فاجتمعت لم بداهة الفكر وسمو التصوير ودقة التعبير

وقد ألفت شعراء الدولة الاموية بالمخضرمين اولاً — لان النخبة القرآنية اثارَت نفوسهم اثارها للمخضرمين لقرب عهدهم بها . فنفس حسّان ونفس الفرزدق واحد . وجربير يماثل كعب بن زهير ومثله الاخطل وان كان نصرانياً . بل ربما علت طبقة شعراء الدولة الاموية عن تقدمهم من المخضرمين في البلاغة لشبوبهم عليها وتأملها في نفوسهم

وثانيًا — لان الشعراء كانوا اعز نفسًا وارفع شأنًا في الدولة الاموية منهم في الدولة العباسية وما وليها . وسببه ان الدولة الاموية قامت على كره من الفريق الاعظم من المسلمين فكانت في حاجة الى استمالة الشعراء فذلوا وعزوا ولم يهينوا كما هانوا بعد ذلك الزمن اذ باتوا يطلبون الزلى ثقبًا من الخلفاء وبطانتهم طمعًا بنال وجرا لمغن وشتان ما كرامة المتزلف والمترفع . فحسان مدح النبي ولكنه مدحه شغفًا بمناقبه . وتصح المشاكلة بينه وبين الفرزدق في مدح زين العابدين علي بن الحسين ولكنها لاتصح بينهما وبين مداح معظم المولدين والمحدثين

وثالثًا — لان شعراء العرب حتى اواخر الدولة الاموية لم يالفوا ترف الحضارة المستررب اليهم من الرومان والفرس بالمخالطة فبقيت مسحة القطرة الجاهلية ظاهرة في شعرهم فهم والخضمرون طبقة واحدة لا يتخللها فاصل

ثم انه بالنظر الى معنى لفظة الخضمرون في عرف كتاب العرب لا بنكر اطلاقها على شعراء الدولة الاموية لانهم قد يعنون بها كل متوسط بين عصرين كما اطلقوها على مخضمري الدولتين الاموية والعباسية يريدون بهم الذين ادركوا الثانية من شعراء الاولى . فلا بأس علينا بهذا الاعتبار ان نطلقها نوسعًا على شعراء الدولة الاموية لتوسط كثيرين منهم بين الخلفاء الراشدين ودولة بني امية والتضاق الباقيين بهم

فيبقى علينا النظر في المتأخرين من شعراء بني امية الذين ادركوا دولة بني العباس . فامثال هؤلاء يقال فيهم ما تقدم في متأخري الجاهليين الذين ادركوا الاسلام . فمن ربا شعره في دولة الامويين وبقيت فيه صبغة الخضمرين كان مخضمريًا ومن ربا شعره في دولة العباسيين فكان قوله اميل الى الرقة منه الى البلاغة كان مولدًا . ولا يخرج عن هذا التعريف الا نوابغ قليلون كبشار بن برزد الذين عاصر الدولتين ولبس الحلتين وفصل من الشعر ما شاء لما شاء فكان من ابلغ الخضمرين بقوله :

إني ظلل بالجزع ان يتكلما وما ذا عليه لو اجاب متيما

وبالجزع آثار بقين وبالوى ملاعب لا يعرفن الا توهما
ومن ارق للولدين شعراً بقوله :
لمست مكنتي كفة ابني الندى ولم أدري الجود من كفة يدي
فلا اقامته ما افاد ذوق النقي أفدت واعداني فانتقلت ماعدتي
ومثل بشكر في الخضر موم مثل النافذة الجمدي في الجمالين فلتنابهة شعر
جاملي عريق في البداوة . وهو القائل ايضاً :
الحمد لله لاشريك له من لم يقلها نفسه علما
للملح الليل في النهار وفي الليل ل غباراً بنسج الظلما
الحافظ الراجع الساء على الارض ولم يبت تحتها دعما
اغلق الباري المصور في الأرحام ماء حتى يصير دما
وليس في شعر الخضر موم شيء ينطبق على للماني القرآنية ويقتل بلاغتها
كهنه الايات

وقد كان شعر الخضر موم آية في علو الطبقة ومثانة السبك يربو بهما على
ما تقدم عنه وما تأخر من سائر الشعراء . ولكن مبلغهم من الرقي في الحضارة
اضعف ففهم تزعمة المتقدمين التطرية فقصروا فيها عن المتقدمين . ولم يمكنهم
من التأني في المعيشة بما استتب للعرب بدم من مزيّنات العمران فلم يدركوا
شأوا للولدين بالرفة والتصرف بالماني . وفي ما سوى ذلك كان شعرهم غاية الغايات
ولا فرق في ذلك بين شعراء النبي والخلفاء الراشدين كحسان بن ثابت
وكعب بن زهير وشعراء الدولة الاموية كذي الرمة وعبيد الراعي بل ربما كان
شعر الدولة الاموية أعرق في البلاغة كما تقدم . وفي ما يلي من اسئلة شعر
ما يؤيد هذا القول

قال حسان بن علي ويغفر:

الله اكرمنا بنصر نبيه وبنا اقام دعائم الاسلام
وبنا اعز نبيه وكتاباه واعزنا بالصرب والاقدام

في كل معترك تطير سيوفنا فيه الجماجم عن فراخ المام -
 بنتابنا جبريل في اياتنا بفرائض الاسلام والاحكام -
 يتلو علينا النور فيها محكمًا قسماً لعمرك ليس كالاقسام -
 فنكون اول مستحل حلاله ونحرم الله كل حرام -
 نحن الخيار من البربة كلها ونظامها وزمام كل زمام -
 الخائضو غمرات كل منية والضامنون حوادث الابام -
 سائل ابا كروب وسائل تبعا عنا واهل العتر والازلام -
 انا لنمنع من اردنا منعه ونجود بالمعروف للمعام -
 وترد عادية الخميس سيوفنا ونقيم رأس الاصيد التعمام -
 فلئن نفرت بهم لمثل قدمهم نغر الليب به على الاقوام -

ودونك مثالا من مشوبة كعب بن زهير التي مطلعها : بانت سعاد ...
 وقد وجهها الى النبي يعتذر اليه فانه بعد ان كان اهدر دمه

تسمى الوشاة بجنبيها وقولم انك يا ابن ابي سلى لمقتول
 وقال كل خليل كنت آمله لا ألهينك افي عنك مشغول
 فقلت خلوا سبيلي لا أباكم فكل ما قدر الرحمن مفعول
 كل ابن انثى وان طالت سلامته يوما على آلة حدياء محمول
 انبت ان رسول الله اوعدني والعفو عند رسول الله مأمول
 مهلا هداك الذي اعطاك نافلة قرآن فيها مواعيط وتفصيل
 لاتأخذني بأقوال الوشاة اذن وان كثرت في الاقاويل
 لقد اقوم مقاماً لو يقوم به ارى واسمع ما لو يسمع القيل
 لظل يردد الا ان يكون له من النبي باذن الله تنويل

فقد جمع في هذه الايات القليلة بين الاعتذار والحكمة والملاح والتخبر
 بأبداع اسلوب وابلغ عبارة
 ومن قول الاخطل في العجور :

وكنيت اذا لقيت عييد نيم
لثيم العالمين يسود نيماً وسيدم وان كرموا مسود
وقد زعم الاخطل انه اجمي العرب يهذين اليتين
ومن امثلتهم في النسيب قول ذي الرمة :

الا يا اسلي باداري على البلى ولا زال منهلاً يجرعائك القطر
لما يشتر مثل الحرير ومنطق رخيخ الحواشي لاهراء ولا تزر
وعينان قال الله كونا فكأنا فعولان بالالباب ما تفعل الحمز
ومن ابلغ من الامام علي بن ابي طالب اذ قال مبتهلاً لله تعالى :

لك الحمد يا ذا المجد والجلود والملا
المهي ومنلاقي وحرزي ومولتي
المهي لئن خيبتني او طردتني
المهي لئن جللت وجهي خطيبي
المهي لئن اعطيت نفسي سؤلها
المهي ترى حالي وفقري وفانني
المهي فلا تقطع رجائي ولا تزغ
المهي أجروني من عذابك انني
المهي فأنسني بثلقيت حنجري
المهي لئن عذبني الف حجة
المهي اذا لم ترعني كنت ضائعاً
المهي اذا لم ترف عن غير محسن
المهي لئن قصرت في طلب النقي
المهي افلني عثرتي وامح حوبتي
المهي لئن خيبتني او طردتني
المهي حليف الحب بالليل ساهر
تباركت تعطي من تشاء وتمنع
اليك لدى الاعار واليسر انزع
فمن ذا الذي ازجو ومن انشع
نفوك عن ذنبي اجل وأوسع
فها انا في روض الندامة ارتع
وانت مناجاتي الخفية تسمع
فؤادي نلي في باب جودك مطعم
أسير ذليل خائف لك اخضع
اذا كان لي في القبر مشوى ومضجع
فخيل رجائي منك لا يتقطع
وان كنت ترعاني فلت اضيع
فمن لمسيء بالهوى يتنع
فلمت سوى ابواب فضلك افرع
فاني مقر خائف انصرع
فما حيلتي يارب أم كيف اصنع
بناجي ويكي والمغفل هجم

وكلهم يرجو نوالك راجياً
لرحمتك العظمى وفي الخلد بطمع
الهي يميني رجاءي سلامة
وقبح خطيائي عليّ يشنع
وان من اصدق الامثلة عليّ علو طبقة هذه الطائفة من الشعراء قصيدة
الفرزدق في مدح زين العابدين علي بن الحسين التي قيل ان اهل البيت لم
يدحوا بمثلاً ولمذا اوردناها بطولها وهي: ^(١)

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم هذا النبي النقي الطاهر العلم
اذا رآته قریش قال قائلها الى مكارم هذا ينتهي الكرم
ينى الى ذروة العز التي قصرت عن نيلها عرب الاسلام والعجم
يكاد يمسه عرفات راحته ركن الحطيم اذا ماجاء يستلم
يفضي حياء ويفضي من مهابته فلا يكلم الا حين يتنسم
من جدته دان فضل الانبياء له وفضل امته دانت له الامم
ينشق نور الهدى من نور غرته كالشمس ينجاب عن اشراقها الظلم

(١) قال الفرزدق هذه القصيدة يوم حج هشام بن عبد الملك الاموي
وطاف بالبيت واراد ان يستلم الحجر الاسود فلم يصل للمه لكثرة الزحام فنصب
له منبر فجلس عليه وحوله جماعة من اهل الشام فيبثوا هو كذلك اذ اقبل زين
العابدين يريد الطواف فلما انتهى الى الحجر الاسود تقى الناس له حتى استلم
الحجر فقال رجل من اهل الشام من هذا الذي قد هابه الناس هذه المهابة
فقال هشام لا اعرفه غفافة ان يرغب فيه اهل الشام وكان للفرزدق حاضراً
فقال انا اعرفه وانشد بعد ذلك هذه القصيدة . فغضب هشام وجلس الفرزدق
بصفان فعلم زين العابدين وارسل اليه اربعة آلاف درهم فردّها الفرزدق
وكتب اليه انما مدحك بما أنت اهل له فأعادها زين العابدين وقال تعاون
بها على وهرك فانّا اهل بيت النبي اذا وهبنا شيئاً لا نستعيده . وقالوا كفى
بالفرزدق ان يكون قال هذه القصيدة حتى يدخل الجنة

مشتقة من رسول الله نبعته
 هذا ابن فاطمة ان كنت جاهله
 الله فضله قدما وشرفه
 وليس قولك من هذا بضائه
 كلنا يديه غياث عم نعمها
 سهل الخليفة لا تخشى بواده
 حمال اقبال اقوام اذا فدحوا
 ما قال لا قط الا في تشده
 لا يخلف الوعد ميمون نقيته
 عم البرية بالاحسان فانفصلت
 من معشر حبيب دين وبفضهم
 ان عد اهل النقي كانوا ائمتهم
 لا يستطيع جواد بعد غايتهم
 هم الغيوث اذا ما ازمة ازم
 لا يفسر العسر بسطا من كفهم
 يستدفع السوء والبلوى بجهنم
 مقدم بعد ذكر الله ذكرهم
 يا بني لم ان يحل الدم ساحتهم
 اي الغلائق ليست في رقابهم
 من يعرف الله يعرف اولية ذا
 طابت عناصره والقيم والشيم
 يجده انبياء الله قد خضعوا
 جرى بذاك له في لوحه القلم
 العرب تعرف من انكرت والعجم
 يستوكفان ولا يعرفهما القدم
 يزينه اثنان جسن الخلق والكرم
 حلو الشمايل تحلو عنده نعم
 لولا التشهد كانت لاه نعم
 رجب الفناء اريب حين يعترم
 عنه القتارة والاملاق والدم
 كفر وقرهم منجي ومتصم
 او قيل من خيرا هل الارض قيل هم
 ولا يدانهم قوم وان كرموا
 والاسد اسد الشرى والبأس عندم
 سيان ذلك ان اثروا وان عدموا
 ويستزاد به الاحسان والنم
 في كل بدء وخنوم به الكلم
 خيم كريم وأبد بالندی عصم
 لاولية هذا او له نعم
 والدين من بيت هذا ناله الام

هذا جل ما يمكن ابراده في مثل هذا الموضع من شعر ابناء هذه الطبقة
 ومزينة كما نرى بلاغة في المعنى ومثانة في التعبير واحكام في التركيب مع
 ميل الى الرقة . وتلك ايضا من مزايا الليادة . فان بلاغة الاصل لاتعوقها
 بلاغة في الكلام اليوناني . فان ظهر نقصير في التعريب فنبعته على العرب دون

المشئ . وان فيها من مثانة التعبير ما لا يفوقه شئ في شعر جميع الام ولا سبا في مشاكلة الالفاظ للمعاني وحكاية الاصوات بما اشترنا اليه في مواضعه
ومدة هذا الطور الشعري مئة وخمسة وثلاثون عاماً تبتدىء من الهجرة وتنتهي بقيام الدولة العباسية

وعروة وصله مع الطور الاول او طبقة الجاهليين النابتة الجمعي وامثاله .
ومع الطور الثاني او طبقة المولدين بشار بن بُرد
ونحوه في صدر الاسلام حسان بن ثابت وكعب بن زهير وعبد الله بن رواحة ومالك بن نويرة والعباس بن مرداس والنمر بن تولب وابو ذؤيب النخعي . وفي عصر الدولة الاموية القطامي والاخلطل النصرانيان وجبرير الخطمي والفرزدق وعبيد الراعي وذو الرمة والكميت بن زيد وارطاة بن سمية والاعشى ابن ربيعة والاعشى التغلبي

الطبقة الثالثة

المولدون أو شعراء عصر العباسيين

قامت الدولة العباسية سنة ١٣٢ للهجرة (٧٥٠ م) والسلطنة الاسلامية موطدة الدعائم مشيدة الاركان وغزاة العرب ضاربون في المشرق والمغرب يقوضون ما تدعى من مباني الفرس والرومان فينبذون الانقاض البالية ويشيدون على اسس الحزم دولة قيص الله لما ان تكون دولة العزة والسلطان في ذلك الزمان . فامتلات خزائن الخلفاء بكسب المجاهدين وجباية الاموال وتسرب ما فاض منها الى بيوت المقربين وصنائعهم من امير وفقير وعميد وشريد . فذاقوا حلو حضارة الدولتين الهاويتين وتبدلوا مرقعة عمر ذلك الدثار الرث الذي ضم بين رُدينه عماد الاسلام والمسلمين بيزة الخز والدباج . وعُلائته من لبن وتمر وابسر الادم بشهي طعام لماظنه الفالوذ والسكجاء . وذلك الرّحل على بعير قارح يمتطيه الخادم والمخدوم وهما سوا في شرع الاسلام بالسروج الموشاة على الجياد المطهمة تحف بها مواكب الحشم والغلمان . فملت القصور

ووشيت الخدور وزها الرياش وانسبط المعاش . والشعراء من افراد تلك الامة
يرقون رقيها في معارج العمران
زعموا ان شاعراً بدوياً من رعاة الماشية ممن دبّ وشبّ بين الكباش
والنعاج قدم حاضرة عامرة فاكرمه صاحبها فمدحه بهذين البيتين :
انت كالدلو لا عدمنك دلواً من كثير العطا قليل الذنوب
انت كالكلب في الحفاظ على الو د كالنيس في قراع الحروب
فهم بعض اعوان الامير بقتله فقال الامير خلّ عنه فذلك ما وصل اليه علمه
ومشهوره . ولقد توسمت فيه الذكاء فليقم بيننا زمناً وقد لانعدم منه شاعراً جيّداً . فما
اقام بضع سنين في سعة عيش وبسطة حال حتى قال الشعر الرقيق الاخذ بجماع
القلوب وهو في زعم بعضهم صاحب الايات التالية :

يامن حوى ورد الرياض بخده وحكى قضيب الخيزران بقدم
دع عنك ذا السيف الذي جرّده عينك امضى من مضارب حدم
كل السيوف فواطع ان جردت وحسام لحظك قاطع في غمد
ان رمت لقتلي فانت مخير من ذا يعارض سيداً في عبد
ومهما يكن قدر الصحة من هذه القصة المروية على اساليب مختلفة
فان فيها اشارة بيّنة الى تأثير الاحوال بافكار الرجال وفعل الحضارة بقرائح الشعراء
وهذا كان شأن الشعراء في زمن الدولة العباسية فانهم رتّعوا في ارجاء
ذلك الملك النسيح متربعين بعد شطف العيش على الطنافس الوثيرة في المنازل
الانيقة امام الحدائق الغناء . وخلفاءهم يصعدون بالامة في سلم المدنية يحرسون على
استئثار ذلك الفتح المبين فيدخرون ما تلقوه عن تقدمهم ولا يألون جهداً في
احكامه والقائه حتى يهروا الغرب بما تجمع لديهم من ذخائر السلف النفيسة .
وان التحف الغراء التي كان هارون الرشيد ينفق بها شارلمان من غرر تلك
الكنوز ومن جملة ما ساعته التي تلقاها سلطان المغرب آية من الايات لا تبقي
تجلاً للرب في مبلغ الثروة العباسية واستحكام النهضة وسريانها من العراق

الى مصر والشام والاندلس وسائر البلاد التي طرقها المسلمون
فلا بدع وكل ذلك مشهود الشعراء ان تثقف اذهانهم وترويض قلوبهم
وتتسع مداركهم ويرق تصوراتهم ويمرحوا في روض من الشعر اريض يجولون
فيه جولة لم تتوفر اسبابها لسلفائهم

ولهذا لم يكن لشاعر جاهلي او غنصرم ان يبدع ابداع الرقاشي بقوله :
نهبت قدماي الموي في بدمته من بعد انعاب طاسات واقداح
فقال خذ واسقني واشرب وغن لنا يا دار مشواي بالقاعين فالساحي
فما حسنا ثانيا او بعض ثالث حتى استدار ورد الراح بالراح
او يرق رقة ابي نواس بقوله :

ومستطيل على الصباء باكرها في ثنية باصطباح الراح حذاق
فكل شيء رآه ظنه قدحا وكل شخص رآه قال ذا الساق
فلا ريب ان هذين القولين اوقع في النفس من قول عنتره :

ولقد شربت مع الندامى بعد ما ركد المواجر بالمشوف المعلم
بزجاجة صفراء ذات امزقة قرنت بازهر بالشمال مفدم

فاذا ابدع عنتره بهذا الوصف في زمانه بين قوم يهيمون في الفلوات
على ظهور الابل بين مضارب البادية فانه لا يطرب جلساء ابي نواس والرقاشي
في تحافل الانس وبغاني التأنق والعيش الرغيد

وقد بلغ المولدون الدرجة القصوى من التصرف بالمعاني وجزالة اللفظ ودقة
السبك فصعدوا بالشعر درجة لم يبلغها المتقدمون وهيئات ان يدركها المتأخرون .
وكان هذا ديدن الفريق الاعظم منهم في جميع الابواب التي طرقوها . فاي
غزل ارق من قول ابي نواس :

حامل الموي تعب يستحقه الطرب
ان يكن يحق له ليس ما به لعب
تضحك لاهية والمحبة ينتخب

كلما انقضى سببُ منك جاءني سببُ
تعبين من سقمي صحتي هي العجبُ
وقول المجتري: كيف اغدو من الصبابة خلوا
قف بها وقفةً نردُّ عليها
ان للبين منةً لا تؤدَّى ويداً في ثماضرٍ يضاء
حبيبها حتى بدت لفراقٍ
اضحك البين يوم ذاك وابكي
فجعلنا الدواع فيه سلاماً
وجعلنا الفراق فيه لقاء
ووشيت بي الى الوشاة دموعاً
واي تشبيه ابدع من قول ابن المعتز في القلم:

قلم ما اراه ام فلكٌ يجري بما شاء فاسم ويسيرُ
راكمٌ ساجدٌ يقبل قرطاً
من لي بقلبٍ صيغ من صخرة
جرحته خداه بلعظي فدا
وقوله: من لي بقلبٍ صيغ من صخرة
جرحته خداه بلعظي فدا

ومثله قول ابن الرومي في قوس الغمام:

وساقٍ صبيحٍ للصبح دعوته
يطوف بكاسات العفار كأنجمٍ
وقد نشرت ايدى الجنوب مطارفاً
يطر زها نوس السحاب بأخضرٍ
كاذيال خود اقبلت في غلالٍ
مصبغة والبعض انصر من بعضٍ

واي كلام في الملح اطلى من قول ابن هاني:

قد طيب الافطار طيب ثنائه
لم تدني ارضك اليك وانما
ورأيت حولي وفد كل قبيلةٍ
حتى توهمت العراق الزابا

ومن ترى اعلى كعباً بالحكمة والزهد من ابي العلاء وهو القائل :

غير مُجدٍ في ملتي واعتقادي نوح بالكِ ولا ترثم شادِ
وشبهه صوت النعي اذا فيه من بصوت البشير في كل نادِ
أبكت ناكم الحمامة أم غنة ث على فرع غصنها الميسادِ
صاح هذي قبورنا تملاً الرحمة ب فأين القبور من عهد عادِ
خفيف الوطء ما اظن أديم الـ ارض الامن هدم الاجسادِ
وقبيح بنا وان قدّم المم د هوان الالباء والاجدادِ
سز ان اسطعت في الهوام رويداً لا اخشياً لا على رفات العبادِ
رب لحد قد صار لحداً مراراً ضاحك من تراحم الاضدادِ
ودفين على بقايا دفين في طويل الازمان والآبادِ
فأسأل الفرقدن عمن احسأ من قبيل وآنسا من بلادِ
كم اقاما على زوال نهار وانا را المدلج في سوادِ
نعب كلها الحياة فما ع جب الامن راغب في ازديادِ
ان حزناً في ساعة الموت اضعا ف سرور في ساعة الميلادِ
خلق الناس للبقاء فضأت أمة يحسبونها للنقادِ
انما يُنقلون من دار اعمى ل الى دار شقوة او رشادِ
ضجعة الموت رقة يستريح الـ بجسم فيها والعيش مثل السهادِ

ومن ابدع ابداع ابي الطيب بالتصرف بالمعاني وجمع شنائها وبكفيك قوله :

غاب الامير فغاب الخير عن بلد كادت لفقد اسمه تبكي منابرهُ
قد اشتكت وحشة الاحياء اربعة وخبرت عن اسم الموتى مقابرهُ
حتى اذا عقدت فيه القباب له أهل لله باديهِ وحاضرهُ
وجدت فرحاً لا الغم يطردهُ ولا الصباية في قلب تجاورهُ
اذا خلت منك حمص لا خلت ابدأ فلا سقاها من الوسمي باكرهُ
دخلتها وشعاع الشمس متقد ونور وجهك بين الخلق باهرهُ

في فيلق من حديد لو قذفت به
تضي الموكب والابصار شاخصة
قد حزن في بشر في تاجه قر
حلو خلائقه شؤس حقائقه
تضي عن جيشه الدنيا ولورحبت
إذا تفلن فكر المر في طرف
تحمي السيوف على أعدائه معه
إذا انتضاها الحرب لم تدع جسدا
فقد نيقن ان الحق في يده
تركن هام بني عوف وثلعة
نفاض بالسيف بحر الموت خلفهم
حتى انتهى الفرس الجاري وما وقعت
صرفت الزمان لما دارت دوائره
منها إلى الملك الميمون طائره
في ديرة اسد تدمي اظافره
تجصي الحصى قبل ان تحصى ما أثره
كصدرة لم تبين فيها عساكره
من مجدو غرفت فيه خواطره
كأنهم بنوه او عشائره
الآ وباطنه للعين ظاهره
وقد وثقن بأن الله ناصره
على رؤوس بلا ناس مفاخره
وكان منه الى الكعبين زاخره
في الارض من جيف القتلى حوافره

واي حنين اوقع في النفس واعظم ايثارا للعاطفة واصدق رسما لرقعة شعر
المولدين من فراقية ابي الحسن علي بن زريق البغدادى . وان لنا من سمو
معاني القصيدة التالية وجزالة الفاظها عذرا على ايرادها كلها مثالا على شعر النوايع
من ابناء هذه الطائفة : (١)

لا نمدليه فان العذل بولعه قد قلت حقا ولكن ليس يسته

(١) كانت له ابنة عم كلف بها اشد الكلف ثم ارتحل عنها من بغداد لما فقر
علته فقصد ابا الخير عبد الرحمن الاندلسي في الاندلس ومدحه بقصيدة بليغة
فاعطاه عطاء قليلا . فقال ابن زريق انا لله وانا اليه راجعون ساكت القفار
والبحار الى هذا الرجل فاعطاني هذا العطاء . ثم تذكر فراق ابنة عمه وما بينهما
من بعد المسافة وتحمل المشقة مع ضيق ذات يده فاعتل غما ومات . قالوا
واراد عبد الرحمن بذلك ان يخبره فلما كان بعد ايام سأل عنه فنفقده في
الحان الذي كان فيه فوجدوه ميتا وعند رأسه رقعة مكتوب فيها هذه القصيدة

جاوزت في نصحه حذاءً اضرب به
فاستهملي الزفق في تأديبه بدلاً
قد كان مضطجعاً بالخطب يحمله
يكفيه من لوعة التشتيت ان له
ما آب من سفر الآ وأزعجه
نأبي المطالب الآ ان تكافه
كأنما هو في حلٍ ومرتحلٍ
اذا الزمان اراه في الرحيل غني
وما تجاهدة الانسان واصلة
قد قسم الله بين الناس رزقهم
لكنهم كلفوا حرصاً فليست ترى
والحرص في الرزق والارزاق قد قسمت
والدهر يعطي الفق من حيث يمنعه
أستودع الله في بغداد لي قرأ
ودعته وبوديه لو يودعني
وكم تشفع بي ان لا أفارقه
وكم تشبث بي يوم الرحيل ضحى
لا أكذب الله ثوب العذر مخرق
اني اوسع عذري في جنائنه
أعطيت ملكاً فلم احسن سياسته
ومن غدا لاساً ثوب النعيم بلا
اعتضت من وجه خلي بعد فرقه
كم فائل لي ذقت البين قلت له
هلاً ائت فكان الرشد اجمعه

من حيث قد رت ان النصح ينفعه
من عنفه فهو مضى القلب موجعه
فضلت بخطوب البين اضله
من النوى كل يوم ما يروعه
عزم الى سفر بالرغم يزعمه
للرزق سعيًا ولكن ليس يجمعه
موكل بفضاء الله يذرعه
ولو الى السند اضحى وهو يقطعه
رزقاً ولا دعة الانسان لقطعه
لا يخلق الله من خلق يضيعه
مسترزقاً وسوى الغايات يقنعه
بني آلا ان بني للرء يصرعه
عفوًا ويمنعه من حيث يطعمه
بالكرخ من فلك الازرار مطلقه
صفو الحياة واني لا أودعه
وللضرورات حال لا تشعه
وادمي مستهلاًت وادمه
مني بفرقه لكن ارفعه
بالبين عنه وقلبي لا يوسعه
وكل من لا يسوس الملك يخلعه
شكر عليه فعنه الله ينزعه
كأساً تجرع منها ما اجرعه
الذنب والله ذنبي لست ادفعه
لو انني حين بان الرشد اتبعه

لو انني لم تقع عيني على بلد
يا من اقطع ابائي وانفدما
لا بطمنن بجني مضجع وكذا
ما كنت احسب ان الدهر يبعثني
حتى جرى الدهر فيما بيننا بيد
وكننت من ريب دهر جازعا فرقا
بالله بامنزل القصر الذي درست
هل الزمان معبد فيك لذتنا
في ذمة الله من اصبحت منزله
من عنده لي عهد لا يضيع كما
ومن يصدع قلبي ذكره واذا
لا صبرت لدهر لا يمتعني
علما بان اضطباري معقب قرجا
عل الليلي التي اضنت بفوقتنا
وان تغل احدا منا منبتة
وان يدم ابدًا هذا الفراق لنا
فما الذي بقضاء الله نصنع

وان المقام ليضيق عن الاستزاده من هذه النفائس فان ما اوردها منها ليس الا ذكرا من ذرة

نظرة في شعر المولدين

لم يكن لفريق من الناس ان يدعي الكمال حتى الشعراء . والمولدون مع بلوغهم
من البلاغة واحكام الصنعة اقصى الدرجات فانهم يؤخذون ولا سيما المتأخرين
منهم على مفاخر ترجع الى خلال اربع :

الخلة الاولى اقتضاب الوصف الشعري فلا تبرز الحقيقة جلية على فطرتها
في كثير من شعرهم ويشتتن من ذلك الحكم والامثال وكذلك الابحاث العلمية التي
ليست من لباب الشعر ويندر ان يشاعرا يعمد الى وصف فيستقم ويرسمه

اللياذة والشعر العربي - نظرة في شعر المولدين * ١٤٥ *

رسماً جلياً كاملاً كما رأيت في اسد بشر وثور عبدة . فترى الافكار متزاحمة
والمعاني متلازمة في منظوماتهم فتخلل الأحمدة بينها وتأتي متراكمة فينوت
السامع شيء كثير مما تصوّروه وقصّروا في تصويره . فهم بهذا الاعتبار قد
عدلوا عن منزع الفطرة وابتعدوا عن البداهة الجاهلية وتحولت معهم المقاصد
الشعرية اذ بات مرمام فيها جرّ المغامم ودفع المغارم

وان كلامنا في كل ذلك اجمالي لا يؤخذ منه خلو شعر المولدين جميعاً
من بدائع الوصف التام واجادة التصوير فقد تجدد في شعر المولدين ما يضاوي
منى الجاهليين وان رمت مثلاً لذلك فاقرأ قصيدة المتنبي التي مطلعها :

في الخلد ان عزم الخليل رحيلاً . مطرّ تزيد به الحدود تحولا

الخلّة الثانية . نبذ لهم في المديح حتى جعلوا الشعر صناعة للتكسب ومهنة
للاستزاق فكاد يمتن الشعر وتخطط طبقة الشعراء في عيون عظماء الامة . ولو
تبعنا اقوال فقولهم كالبحري والبي تمام والمني لما رأيتهم يتعدى المدح للحسن
اليهم والعباء للممسك عنهم . بل ربما هجوا بمدوحهم ومدحوا معجوزهم طمعاً وتشقياً
كما كان شأن المتنبي مع كافور

ولا يستثنى منهم سوى افراد خرجوا ترفعاً عن موقف الذلة والمسكنة اما
لسعة في حالهم ورفعة في درجتهم الموروثة كابن المعتز والبي فراس فذلك من
ابناء الخلفاء وهذا من نسل الامراء . واما لحكمة فطروا عليها وأتقوا في طباعهم
وزهد في نفوسهم كالمرعي وما اقل امثاله بين المتقدمين والمتأخرين . ولهذا كان
المرعي يرجع كثيراً في ميزان الرجال على المتنبي وامثاله مع ان الرئحان بين
المتنبي في ميزان الشعراء

الخلّة الثالثة . ابتذل الغزل ووصف الغرام حيث لا يحرك اليه الا التوطئة
للمديح . فجاء اكثر ما نظم من هذا القبيل غير مثير للعاطفة ولا مؤثر في
النفس وان كثّر فيه الحنين والانين بخلاف ما يقصد به شخص معين كما رأيت
في قصيدة ابن زريق

وهو ثابت ان التواثمة بالنزل ليست من بدع المولدين بل هي خطّة درج عليها الشعراء من ايام الجاهلية . على ان الجاهليين لم يبتذلوها ولم يتعمدوها الا في احوال مخصوصة كان يزدان بها شعرهم . ولم يصف شاعرهم في اكثر المواضع الا غراماً بترح به كما ترى في غزليات امرئ القيس وعنترة . واذا تعدى تلك الخطّة فلم يتعدّها الا قليلاً . بخلاف المولدين اذ كانوا يتكلفون النزل تكلفاً كأنه من لوازم الاستهلال

والظاهر ان كثيرين من ذوي الرويّة والنقد كانوا ينكرون تلك الطريقة حتى في أبان الزمن العباسي

قال الابشيحي: مدح ابو المتاهية عمرو بن العلاء^(١) فأعطاه سبعين ألفاً وخلع عليه خلعاً سنياً حتى انه لم يستطع ان يقوم فغار الشعراء منه فجمعهم وقال يا لله العجب ما اشد حسد بعضكم لبعض ان احكم بأننا ليمدحنا فينزل في قصيدته بخمسين بيتاً فما يلفنا حتى يذهب رونق شعره . وقد تشبب ابو المتاهة بايات يسيرة ثم قال :

اني أمنت من الزمان وصرفه لما علقته من الامير جبلا
لو يستطيع الناس من اجلاله جعلوا له حرّ الوجوه نغلا
ان المطايا تشكيك لانها قطعت اليك سبابها ورمالا
فاذا وردن بنا وردن خفائفاً واذا صدرن بنا صدرن ثغلا

واذا اردت دليلاً محسوساً على صحة هذا النقد فنقد قصيدتين من نغمار شاعر واحد وطأ الشاعر بالنزل في احدها وبلغ الموضوع ثوراً في الاخرى فتبدو لك فوراً مزية مطلع الثانية على الاولى

فمن نغمار ابن هانيء قصيدته في مدح المعز ومطلعها :

قن في مأتم على العشاق ولبس الحداد في الاحداق
وبكى الدماء بالعم الرطب ب المقتى وبالحدود الرقاق

وقصيدته في المعز ايضاً ومطلعها :

ما شئت لا ما شاءت الاقدارُ فاحكم فانت الواحد القهارُ
وكأنما انت النبي محمدُ وكأنما انصارك الانصارُ
ومن تغار المتنبى قوله في سيف الدولة مستهلاً :

لعينيك ما يلقي الفؤاد وما لقي ولعب ما لم يبق مني وما بقي
وما كنت بمن يدخل العشق قلبه ولكن من يبصر جفونك يعشق
وقوله في مطلع آخر قصيدة قالها وهي في سيف الدولة ايضاً :

فدى لك من يقصر عن مداكا فلا ملك اذا الا فداكا
وان قلنا فدى لك من يساوي دعونا بالبقاء لمن فلاكا

افلا تترك تؤثر مطلع رائية ابن هاني وكافية المتنبى على قافيتيهما
ولا يجب ان يستفاد مما نتقدم اننا ننكر التوطئة على الاطلاق فانها اذا
جادت ووقعت في موضعها ووافقت موضوعها فانها تشق شغاف القلب وتذكي
شرارة النيرة فنهج بها البصائر كما يقع لسامع قصيدة ابي تمام التي مطلعها :

السيف اصدق انباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصبائف في متونهن جلا له الشك والربيب

فقد اراد مدح المعتصم العباسي على اثر فوزه ذلك الفوز المبين وتكيله
بجيوش الروم ونهجه عمورية فوطاً لمدحه توطئة استعملها بما تقدم وما اجملها
توطئة لمثل ذلك المدح

ومما يحمد عليه المولدون بهذا المعنى توطئتهم للثناء بالزهد واشباهه

الخلّة الرابعة . تجاوزهم في المجون وبذاءة التعبير الى ما لا يستيجبه ادب
المحالى ويفض من قدر الشعر ومنزلة الشعراء . وهذا ايضاً ليس من بدع المولدين
بل سبقهم اليه شعراء الجاهلية والخضرمون حتى اودعه امرؤ القيس معلقته . وفي
اهاجي حرير والاخلط والفرزدق ما لا يُعد مغفرة لامثال اوائك الفطاحل . ولكن
الجاهلين كانوا يأتونه عفواً على البداة فاستمسك به الخضرمون واوغلوا فيه اينالاً

ادى بالمولدين الى التفنن به تفننهم في سائر ضروب الشعر وفحشوا فيه فحشا فاضحا . ومن ذا الذي يقرأ اهاجي ابي تمام لمقران والمتنبي لابن كيخلع ومجونيات الصني الحلي ولا ينكر ان تشاء بدائع منظوماتهم بتلك السافس الهجينة . واغرب من هذا ان كثيرا من تلك البذاءات ممتزج بدرر من المعاني تضيق عنها ارحب القرائح . فاذا قرأت قصيدة المتنبي التي يستهلها بقوله :

لهوى النفوس سريرة لا تعلم عرضا نظرت وخلت أني أسلم
فانك ترى فيها من غرر المعاني وابكار الافكار ما جرى اكثره مجرى الامثال
وتنوقل جيلا بعد جيل في اندية الادب وحسبك منها قوله :

ذو العقل يشقى في النعم بعقله واخو الجهالة في الشقاوة بنم
والناس قد نبذوا الحفاظ فمطلق ينسى الذي بولى وعاف يندم
لا يخذل عنك من عدو دمه وارحم شبابك من عدو ترجم
لا يسلم الشرف الرفيع من الاذى حتى يراق على جوانبه الدم
والظلم من شيم النفوس فان تجد ذا عفة فلعله لا يظلم
ومن البلية عدل من لا يرعوي عن جهله وخطاب من لا يفهم
ومع هذا فانك لا تمالك من الانكار على الشاعر خلط هذه النفاس
بتلك الخسائس

واقبح من كل ذلك تشبههم بما لم يشره الله ولم يسق اليه الطبع ولم
يفش قبلهم في شعر الجاهليين وانما هو بدعة اقتبسوها بلباسة المدنية الجديدة
فما اوغل امامهم ابو نواس في ذلك النهج البذي حتى هبوا الى تحديته
والظاهر ان ذلك التراخي كان مندجا بروج العصر فانتجه التعرّاه
وسلك مسلكتهم صفوة الادباء كالبديع الهمداني والحريري وسموه احماسا كانه
فكاهة مستلحة يتطلها كل اديب اريب . ولهذا قال الحريري في مقدمة
كتابه : « وما قصدت بالاحماض فيه الا تنشيط قارئه »

ذلك ما يعاب عليه المولدون ما خلا رهطا منهم سما ادبا وتهذب عقلا ونفسا

اما الياذة هوميروس فهي على ما وصلت اليها نقيّةٌ من تلك المغامز لا يؤخذ صاحبها على شيء من هذه الخلال الرابع . اما الخلة الاولى فلأن الشاعر جاهليّ وحيثما تصفحت شعره رأيته ابداع في الوصف ورسم الحقائق . واما الثانية والثالثة فلأنهما مخالفان لطبعه وذلك بادر في كل منظومه . واما الرابعة فقد تحاشاها الشاعر لسموّ في ادبه مع ما كان فاشيكاً في عصره من الاستسلام للشهوات كما اثبتنا في ترجمته ولهذا جاءت الياذة نقيّة لا يتخللها شيء مما تحظر قراءته حتى على الغادة العذراء

مناهج المولدين

في ابواب الشعر وفنونه واساليبه

لم يقتصر المولدون من الشعر على نظم بل نظروا فيه ومحصّوه وانتقدوه وعارضوه بعضاً ببعض وبحثوا فيه بحثاً علمياً ووضعوا اصوله وبرزوا فصوله وجمعوا مخنّاره وعينوا فنونه ووازنوا بين الشعراء وكتبوا في كل ذلك الاسفار الطوال بين ثمر وشعر مما لا يتسع له بحثنا

وقد جعلوا الشعر بالنظر الى معناه ابواباً حصرتها ابو تمام في عشرة وابلغها ابن ابي الاصبغ العدواني الى ثمانية عشر وهي الغزل والوصف والفخر والمدح والمهجاء والعتاب والاعتذار والادب والزهد والخمرات والرثاء والبشارة والتهاني والوعيد والتحذير والمآلح والسؤال والجواب . وزادوا عليها الزهريات والحكم والمجون والحماسة وهي اشرفها عندهم واجادوا في كل ذلك

وتفننوا في الشعر تفنناً لم يعرفه الاوائل الا قليلاً فأفاضوا في التشطير والتخميس والمعمى والاحجية والغز والدوييت الفارسي الذي خالفوا فيه اوزان الشعر العربية

واكثر من كلف منهم بذلك متأخروهم كالحريري وابن الفارض وصفي الدين الخلي . وان تخميس الصفي الحماسية السموال من اجود ما قيل بهذا

الباب ومطلعها :

فبيح بن ضافت عن الرزق ارضه وطول الفلا رحب عليه وعرضه
ولم يبل سربال الدجى منه ركضه اذا المرء لم يدنس من اللوم عرضه
فكل رداه يرتديه جميل

وفي ديوان ابن الفارض كثير من الدوييت واللفز كقوله :
باليلة وصل صبحها لم يلح من اولها شربته في قدحي
لما فطرت طالت وطابت بلقا بدر يتحنى في حبه من منحي
وقوله ملفزا في بقله :

ما اسم قوت لاهله مثل طيب تحبه
قلبه ان جعلته اولاً فهو قلبه

وللحريري الغاز واحاجي ومعميات واحسنها بل احسن ما قيل بهذا المعنى
بأئيته الطويلة التي مطلعها :

عندي اعاجيب ارويها بلا كذب عن العيان فكثوفي ابا العجب
واما التاريخ الشعري فلا نعلم له شيوعاً عند المولدين وانما هو من فنون
المحدثين او المتأخرين ولكنه بلا ريب مأخوذ عن اصل قديم جداً لان الحساب
بالحروف اقدم من جميع الشعر العربي المعروف وقد استعمله اليونان والعبريون
والرومان قبل العرب ولكنهم لم يلقوه بالشعر . على ان جميع هذه الفنون ليست
الا من فكاهات الشعر ولا يجب ان تعد من بدائع النظم

اما الموشح الاندلسي فهو من نحاسن الاستبطاط الشعري . قيل اخترعه مقدم
ابن معافر شاعر الامير عبد الله بن محمد المرواني في اواخر القرن الثالث للهجرة
وقيل في اصله اقوال اخرى لاجل لذكرها . كانوا ينظمونه على اساليب شتى
اشهرها جعل اللازمة بيتين وكل دور بعدها خمسة ابيات كقول الخطيب الاندلسي :

جاءك الغيث اذا الغيث هما يازمان الوصل بالاندلس
لم يكن وملك الا حلما في الكرى او خلة الخناس

دور

اذ يقول الدهر اسباب المني تنقل الخطو على ما ترمم
 زمرة بين فرادى وثنا مثلاً يدعو الوفود الموسم
 والحيا قد جال الروض سنا فسنا الازهار فيه تبسم
 وروى النعمان عن ماء السما كيف يروي مالك عن انس
 فكساه الحسن ثوباً ملما يزدهي منه بابي مابس
 كانوا ينعمون هذا النهج في طوال الموشحات . ولم في ما سوى ذلك طرق
 كثيرة تفنوا عليها وخالفوا فيها اوزان الشعر المشهورة وترام ينقرون في بعضها على
 اوتار الافئدة كما ترى في قول ابن ابي بكر الايض في مطلع موشح :

مالد لي شرب راح علي رياض الافاح
 لولا مضج الوشاح اذا اسي في الصباح
 اوفي الاصيل اضحى بقول ما للشمول
 لعنت خدي

وللشمال هبت فال غصن اعتدال
 فمه بردي

مما اباد القلوبا يمشي لنا مسترپا
 بالخطه رد ثوبا ويالماء الثنبا
 برذ غليل حب علي لا يستميل
 فيه عن عهدي
 ولا يزال في كل حال يرجو الوصال
 وهو في الصدر

وقول عبادة القراز :

بدر تم شمس ضحا غصن نقا . مسك شم
 ما اتم . ما اوضحا ما اورقا . ما اني

لاجرم . من لحا . قد عشقا . قد حرم
ومما يذكر للمولدين استطراداً ضروبٌ كثيرةٌ من الشعر العامي كالموالي
وفي أصله أقوالٌ أشهرها أن هارون الرشيد أمر بعد نكبة البرامكة أن لا يرثيهم
أحدٌ بشعر فرثت إحدى جواربهم جعفرًا . بشعر غير مُعَرَّب حتى لا يُعَدَّ شعراً وجعلت
نقول بعد كل شطر ياموالي قالت :

يادار ابن ملوك الأرض ابن الفرس . ابن الذين حموها بالقنا والفرس .
قالت نراهم ريم تحت الأراضي الدرس . سكوت بعد الفصاحة أأستهم خرس .
هذا الذي يقوله المؤرخون في أصل الشعر العامي والذي نراه أنه أقدم من
ذلك العهد بل نخاله معاصراً للشعر الجاهلي . وللبغداديين أيضاً من هذا النوع
القوما قيل كانوا ينشدونه عند السحور في رمضان سمي بذلك من قول المغنين
« قوما نسحر قوما » وجعلوه على وزن هذه الكلمات الثلاث وتفرع عنه فروع
دعواها الزهري والخري وغيرها . ولم يغير ذلك من الشعر العامي مما لا تخل لكركه
وللاندلسيين كثيرٌ من هذا النوع مما تفرع عن الموشح وبما تغنت به
العامية كالزجل وفروعه عروض البلد والمزدوج والكارى والملمعة والغزل ولا تزال
بقايا كل ذلك في جميع البلاد التي غلبت فيها العربية . وأخصها الزجل المصري
والزهري البغدادي والمعني السوري . ولا يدخل في عدادها القصيد البدوي لأنه
من بقايا الشعر الجاهلي الفصيح

وأحرز المولدون أيضاً قصب السبق في الحكم والمواعظ وجمع شوارد الامثال
وأول رافعٍ منهم لذلك اللواء أبو العتاهية فإنه نظم فيها أرجوزة طويلة قيل
أنه ضمها أربعة آلاف مثل وهي من بدائع نظمها ومنها قوله :

حسبك مما تبغيه القوتُ ما أكثر القوت لمن يموتُ
النفقر في ما جاوز الكفايا من اتقى الله رجا وخافا
هي المقادير فليكني أو فذر ان كنت أخطأت فما خطا القدر
لكل ما يؤذي وإن قل ألم ما أطول الليل على من لم ينم

من جعل التَّعَامَ عَيْنًا هلكا مُبْلَغُكَ الشَّرَّ كِبَاغِيهِ لَكَ
 ان الفراغ والشباب والجدد مفسدةٌ للمرء اي مفسده
 ما زالت الدنيا لنا دار اذى ممزوجة الصفو بألوان القذى
 الخير والشر بها ازواجُ لذا نتاجُ ولذا نتاجُ
 من لك بالمحض وليس محضُ يخبثُ بعضُ ويطيب بعضُ
 لكل انسان طبيعتان خيرةٌ وشرٌ وها خداف
 وجرى كثيرون من شعراء المولدين تجرى ابي العتاهية في جمع الحكم والامثال
 في القصائد الغراء . فمنهم من نظمها تجرّدة عما سواها من المقاصد كما في النتح
 البستي في التوبة المعروفة التي مطلعها :

زيادةُ المرء في دنياه نقصانُ وربحه غير محض الخير خسرانُ
 وكلّ وجدان حظٌّ لا ثبات له فان معناه في التحقيق خسرانُ
 ومثلها لامية ابن الوردي :

اعتزل ذكر الاغاني والغزل وقل الفصل وجانب من هزل
 ودع الذكر لأيام الصبا فلا أيام الصبا نجمٌ أقل
 ومنهم من اودعها قصائد قيلت لمقاصد معلومة كما فعل ابن دريد في منظومته
 المعروفة بالمقصورة الدريدية وقد اراد بها مدح الشاه ابن ميكال وولديه ومطلعها :
 باظبية اشبه شيء بالها نرى الخزامى بين اشجار النقا
 إماماً تزي رأسه حاكى لونه طرّة صبح تحت اذبال الدجى
 فكلّ ما لاقيته مغتفر في جنب ما اسأره شحط النوى
 ومن هذا القبيل قصيدة الطغراني المعروفة بلامية العجم اذ قالها لغرض في
 نفسه ووزج فيها الحكم بالفخر كما يثبتك مطلعها :

اصالة الرأي صانتي عن الخطل وحلية الفضل زانتي لدى العطل
 تجدي اخيراً وتجدي أولاً شرع والشمس رأد الضحى كالشمس في الطفل
 وابناء هذا الفريق الاخير من الشعراء يتجاوزون حد الحصر . ويندر ان ترى

شاعراً لم يودع شعره شيئاً من الحكم والأمثال بل كان كثيرون منهم يوطئون بها للمدح والهجاء والوصف والثناء فنقوم لديهم مقام التوطئة بالغزل ويقال في الجملة ان المولدين مع تبتلهم في المدح طرّفوا جميع ابواب الشعر مما تقدم ذكره ولكنهم قلّما اقتصر الشاعر منهم في القصيدة الواحدة على باب واحد بل كانوا يمزجون مزجاً يملّ أحياناً ولكنه يطرب أحياناً كثيرة ولا سيما في القصائد الطويلة التي لا بد من تفكيكه سامعها بما يثنيه هنية عن مرمى الشاعر . وربما جمع شاعراً بين الغزل والحكم والأمثال والزهريات والفخر والمدح في قصيدة واحدة واطربك في كل ما قال لبلاغته وطلاوة شعره وحسن تصرفه وحسبك مثلاً من ذلك قصيدة ابن الرومي المسماة حديقة الشعر وهي التي مدح بها اسمعيل بن بلبك في ما ينيف على مئتي بيت . فيينا نخاله مستهلاً بزهريّة فيقول :

اجنت لك الوجد اغصانٌ وكثبانٌ فيهن نوعان تفاجٍ ورماتٌ
وفوق ذلك اغصابٌ مهدلةٌ سودٌ لمن من الظلماء الوانُ
وتحت هاتيك عئابٌ تلوح به اطرافهن قلوب القوم قنوافُ
إذا بك تراه متغزلاً فيقول :

غصون بانٍ عليها الدهرُ فاكهةٌ وما الفواكه مما يحمل البانُ
ونرجس بات ساري الطلّ يضر به واخوانٌ منيزُ الأور ربانُ
ألفن من كل شيء طيبٍ حسنٍ فهن فاكهة شتى وريحانُ
فاذا اسكرك بنشوة تلك الصبهاء وقف خطيباً واعظاً فقال :

ثمّار صدقٍ إذا عاينت ظاهرها لكنها حين تبلو الطعم خطبانُ
بل حلوة مرّةً طوراً يقال لها شهدٌ وطوراً يقول الناس ذيفانُ

.....

تلك الغصون اللواتي في اكتمتها نعم وبؤسٌ وانفراحٌ واحزانُ
يلو بها الله قوماً كي يبين له ذو الطاعة البرّ من فيه عصيانُ
وما ابتلاهم لإعناتٍ ولا عبثٍ ولا لجليلٍ بما يطويه ابطانُ

لكن ليثبت في الاعناق حجنه ويحسن العفو والرحمن رحمن
ثم اذا تخلص الى المدح اودعه الماني الشائقة والحكم الرائعة . واذا انتقل
منه الى العتاب وطلب النوال البس ذلك جلباباً بهياً . واختم بها لا يصلح سواء
ان يكون تاجاً لتلك الغادة الهيفاء فقال :

وان آيت نفسي منك عارفة ان امتدحك عند الله قربان
والحريسب دهرًا وهو ذو سعة والعق يطوي زمانًا وهو سغبان
وللبلاء انمراج بعد ازمته ورعبة الدهر اعجاب واسمان
وللاله تبال من فواضله كل امرئ ناهل منه وعلان
ان لا يعني على دهري اخوثة من العباد فان الله معوان
او يطل الحق عند الناس كلهم فليس للعق عند الله بطلان
خذها ابا الصقر بكرًا ذات اوشية كالروض ناعمى عرارافيه حوزان
واسلم لراجيك مسعودًا وان تربت ممن يعادبك آناف واذقان

وهكذا فانه يظل يرتقي بك درجة بعد اخرى وهو يهيجك طربًا حيثما وقف
بك ويحوم حول مطلبه حتى يلجئك الى استتمام سماعه فلا تشعر الا وقد ائيت
علي قصيدته برمتها وانت مشغوف بطلاوتها فقلت هلاً زادني منها رحمه الله

وهذا المنزع بعينه هو منزع هوميروس في اللياذة ولو لم تكن حديقة ابن
الرومي خلية من اخبار الشعر القصصي لقلت هي شطر من تلك الملحمة التي
خلب بها هوميروس عقول رواة وقرائه . وكافي بآبن الرومي وفيه لحة من
كنيته التي كانت يعبر بها في زمانه الى جرثومة في اصله او عرفانه كانت
تحمله على تحدي هوميروس في كثير من اساليبه ومعانيه وتشبيهاته

وللمولدين اقوال ساحرة في التشايبه والكنائيات والاستعارات وكانوا كلما
ابعدوا عن الحقيقة فقصروا فيها عن الجاهلين اوغلو في الخيال ففاقوا المتقدمين
بسمعة التصور وغروب المجاز

علوم الادب

عند المولدين

ليس من شأننا هنا التعرض لجميع ما تنطوي عليه علوم الادب في عرف بعض العلماء من نحو وتصريف ولغة واشتقاق وامثالها بل نقصر الكلام على ما كان منها خاصاً بالشعر كالعروض او ملازمها كالبديع والبيان فالمولدون هم الذين فتحوا باب البحث في صناعة الشعر وقيدوا شوارده وفصّلوا قواعده وشاركهم في ذلك النحاة والادباء وعلماء اللغة فضبطوا الاوزان ووزنوا المعاني وصيروا قرض الشعر علماً بعد ان كان ملكة لا ضابط لها الا القياس السماعي

وقد كان ذلك القياس بكنل استبقاء تلك الملكة ايام كان العرب في معتصمهم يتخاطبون في البوادي والخواصر وتجمعهم سوق عكاظ كل عام فتقوم ما اعوج من منطقهم ولا يخاطبهم الا عاج غلاظة تعبت بلسانهم . على ان ايفالهم في اطراف المعمور وانتشار لغتهم انتشاراً لم يكن انتشار اليونانية واللاتينية بازائه شيئاً مذكوراً وامتزاجهم بسائر الملل كل هذا احدث انقلاباً الجأهم الى تقييد اصول الشعر على اثر تقييد اصول اللغة

العروض

فكان اول ما استلفت نظرهم ضبط الاوزان فوضع الخليل بن احمد علم العروض نحو سنة ١٥٠ للهجرة اي في اوائل العصر العباسي عصر المولدين . ويقول بعض المتقدمين من كتّاب العرب ان العروض علم خاص بالعربية وان الخليل استنبطه ولم يسبقه اليه احد في لغة اخرى مع ان ارسطوطاليس ضبط قواعده للغة اليونان وله فيه تأليف يعول عليه . ولا كثر اللغات قواعد ضابطة لاصول الشعر وعروضه . ويؤخذ من قول ابن خلكان في ترجمة الخليل انه الم باليونانية وفك معمم أرسل اليه فيها . ولكنه لا يثبت من كل ذلك ان الخليل

وقف على كتاب ارسطوطاليس في العروض واعتمد عليه وخصوصاً ان العروض العربي يختلف في جميع اوضاعه عن عروض اليونان ومن جرى مجراه . وعلى كلِّ فان للخليل فضلاً على الشعر العربي يضاهي فضل ابي الاسود الدؤلي على نحو اللغة بل يربو عليه لانه لم يكن للخليل مرشد الى استنباطه ولا شريك فيه . ولا يكبر على الخليل ان يكون مستنبطاً بلا دليل سابق يسترشد به لان الاستنباط كان في طبعه وله مما خلا العروض استخراجات كثيرة تدل على سعة عقل لم يقدرها ابن المقفع قدرها اذ قال « علم الخليل اكبر من عقله »

والغريب انه كاد يبلغ بهذا العلم حد الكمال منذ فكر في وضعه اذ قيّد جميع البحور التي انتهجها العرب ولم يزيد عليها من بعده الا بحر واحد هو المحدث او الخبب ويقال له المتدارك ايضاً لان الاخفش تداركه على الخليل . ولا عبرة بما استعمل المولدون من الاوزان الفارسية كنقول الفارابي والدؤبيت وما عدلوا به عن الاوزان المألوفة في الموشحات والاغانى وما زادوا فيه من تقييد العلة والزحاف فذلك عرض يفسح للتوسع فيه مجال رحب . ولهذا يصح ان يقال ان علم العروض خلق كاملاً لان الخليل احكم تمثيل جميع القوالب الشعرية وتطبيقها على جميع منظوم العرب في الجاهلية

البديع

رأيت ان المولدين تفتنوا في الصناعة الشعرية ونهجوا منهاج لم يسبقهم اليها الجاهليون والمخضرمون وتلاعبوا بالالفاظ والمعاني فمست الحاجة بعد صوغ تلك القوالب الى توثيقها والنظر في احكام زخرفها فوضعوا علم البديع بفرعيه اللفظي والمعنوي فكان اللفظي ألصق بالشعر منه بالنثر والمعنوي يتناول جميع فنون الانشاء من شعر ونثر على حد سواء

واول من كتب في البديع فيما نقل الينا شاعر كلف بأنواع التشابه والاستعارات فكان قوله فيها حجة الكتاب والشعراء ألا وهو ابن المعتز العباسي . ولم يكن بين المولدين من هو اولى منه بوضع هذا الفن فكتب في صناعة الشعر ووضع

رسالة في البديع كانت اساس هذا العلم وذلك في اوائل الشطر الاخير من
القرن الثالث للهجرة اي بعد ان وضع الخليل علم العروض باكثر من قرن
ولا بدع ان يكون واضح هذا العلم شاعراً وان كان العلم بنفسه غير خاص
بالشعر كالعروض فالعلماء والشعراء يتعاونون على احياء الادب . فالشاعر صنّاعة
جيش العلماء والعالم نبراس جند الشعراء
وهكذا فاننا نعدّ من مآثر المولدين وضع علمين عربيين استنبطاهما استنباطاً
بالنظر الى العربية وهما العروض والبديع اللفظي

البيان

اما البيان بما يشمل من علم المعاني والبديع المنوي فليس من وضع العرب
يحصّر المعنى وان كانوا طبقوه على التراكيب العربية . فقد استمدّوا اصوله من
اليونان والسريان والفرس كما استمدوا المنطق من كتاب ارسطوطاليس وغيره
من علماء المتقدمين وكان للفرس في البيان اليد الطولى - ولجعفر البرمكي كلام فيه
ما زال يُنقل عنه . على ان للمولدين فيه النظر العالي والفضل الواسع بما أحسنوا
في تبويبه واحكموا في ترتيبه حتى ألبسوه حلة عربية . ومع هذا فلم يبلغ حتى يومنا
درجة الكمال التي بلغها العروض والبديع اللفظي
فهذه علوم ثلاثة وضعها المولدون احكاماً للصناعة الشعرية واساليب الانشاء .
وليس من شأننا ان نتطالّ الى ذكر مآثر العلوم التي لها علاقة بالشعر قريبة او
بعيدة فهي كثيرة ولا سيما في هذا العصر حيث لا غنى للشاعر عن الامام ولو
قليلاً بكثير من العلوم

اطوار شعر المولدين ومزاياه

كانت مخالطة المسلمين للاعاجم في عصر العباسيين على خلاف ما كانت عليه
لهمد الدولة الاموية . فان الامويين كانوا لاغراض ليس من شأننا البحث فيها
يترفعون في اغلب الامور عن الاجاب فظلوا على قريهم منهم بعيدين عنهم

بالمجاسة والمحادثة والامتزاج نفخي عنهم كثير مما كانت معرفته غير ضارة . واما
العباسيون فاختلطوا بالاعاجم اخلاطاً مكنهم من استطلاع خفاياهم وقربوا اليهم
كل ذي جاه وسياسة وعلم وادب واجزلوا العطاء لكل عضو مفيد في ذلك
الملك الواسع سواء كان عربياً مسلماً او يهودياً عبرانياً او نصرانياً سريانياً او
فارسياً او يونانياً فأحاطوا بكل معارف زمانهم وألف ابناء دولتهم انواع
معيشة البشر . فانتسعت على اثر ذلك معارف الشعراء وتفتتوا في صناعتهم على
وجوه لاعهد للمقدمين بها

وهذا كان شأنهم في جميع البلاد التي ملكوها والشعراء على مذهب ملوكهم
يقتبسون من كل وادٍ وناد فعمت النهضة الشعرية وكانوا جميعاً فيها سواء
ولكن زمن تلك النهضة طال كثيراً واتسع نطاقها اتساعاً عظيماً فظهر فرق
في منظوم الشعراء بالنسبة الى الزمان والمكان وهو ما نريد اجمال الاشارة اليه
على انه لا يجب ان يؤخذ من قولنا ان المولدين يُنظر الى الازمنة
والامكنة الى طبقات تفرد كل منها بميزة خاصة بها اذ قد ترى شاعرين بينها
قرون ونهجها واحد واساليبها متفقة وهما بينهما مقاربة وقد نشأ كل منهما
في بلاد . فانما نحن ناظرون اذاً الى النزعة الغالبة في كل عصر وقطر

فاذا امنت في شعر المولدين بالنظر الى الزمان رأيت شعار المتقدمين منهم
الرفقة والرواء وظل هذا شأنهم حتى اواخر القرن الثالث للهجرة اي نحو ١٢٠
عاماً . والباعث الاعظم لذلك ولوجهم في ترف العيش ونضارة الحضارة . وهم وان
ظل كثير من منهم في عيش خشن الا ان من لم يتمتع منهم فقد نظر وخبر
وقد يفضل وصف الرقيب وصف الحبيب . — واول من مهّد ذلك السبيل
مخضرمو الدولتين كبشار بن بُزْد ومروان بن ابي حفصة وتابعهم خلفاؤهم كابي
العتاهية وابي نواس والبحتري وما زالوا على ذلك حتى قام ابن المعتز وابن الرومي
وبهما ختم ذلك العصر الذهبي عصر الرونق والبهاء . فاذا قرأت شعر جميع من تقدم
ذكره منهم رأيت يسيل عذوبة وسلاسة وقد تميز برقته والنباهة

وتبعثهم الطبقة الثانية من المولدين وكانت ادمغة الشعراء قد امتلأت حكمة وفلسفة مما نضج من ثمار العلم فأوغلوا في المعاني الدقيقة وتطلبوا الانكار السامية وصاغوا للتشبيه قوالب شائقة من الكناية والاستعارة فوسعوا ابواب المجاز واخذوا بنأصية الخيال فقبوه من الحقيقة . وشعارهم في كل ذلك سمو التصور وكان هذا ديدنهم من المثني واى فراس الحمداني وابن هاني واى العلاء المعرى واى اسحق الصاهي واى اسحق البسنى والشريف الرضى حتى الخفاجي وابن زيدون الاندلسي في مدة زهاء ١٧٠ عاماً كمدة الطبقة الاولى

ثم اتت الطبقة الثالثة في اواخر القرن الخامس للهجرة والشعر تحكم البناء موطد الاركان والعلوم البيانية مفصلة القواعد فعمدوا الى تنميق الشعر والتفنن بزخرفة وتوشيته بانواع البديع . والمجيدون منهم يحكمون رصف المعنى الدقيق باللفظ الرشيق ولكن بعضهم افسدوا بهجة المعاني بتوخي التجنيس ومع هذا فقد كان منهم نوانغ لا يكادون يخطون منزلة عن تقديمهم كالطغراني (وهو متوسط بين هذي الطبقة والطبقة الثانية) وابن خفاجة الاندلسي وابن فلاقس الاسكندري وابن التبيه المصري وابن الفارض والبهاء زهير المصري والشاب الطريف وصفي الدين الحلي خائنتهم . وطالت مدة هذه الطبقة من المولدين نحو ٢٦٠ عاماً اي الى حوالي سنة ٧٣٠ هـ . فكان عصر المولدين جميعاً ستائة عام

واما بالنظر الى المكان فابناء البلاد العربية ظلوا جاثجين الى البساطة الجاهلية لانطباع تلك الاخلاق في نفوسهم . وبرز المصريون في الرقة والعذوبة لدماثة في خلقهم ورق في ظبهم . وغلبت البلاغة والمثانة في العراقيين لشدة في فطرتهم وملاستهم لاهل البادية . ومال الاندلسيون وسائر اهل المغرب الى التفنن باساليب الشعر ووصف الغياض والرباض لنضارة ارضهم . ووقف السوريون بين المصريين والعراقيين فجمعوا بين رقة الاولين وبلاغة الآخرين ولكنهم لم يبالغوا مبلغ فريق منهم في احكام صنعته

طبقة المحدثين او المتأخرين

ليس في عصر المتأخرين ما يستوقف النظر فهو عصر الانحطاط والتقليد فان الدول العربية كانت قد دالت وتغلب الاعاجم على بمالك الاسلام ولولا القرآن لبادت لغة قريش المضرية كما تقدم وبانت في عداد اللغات الميتة وقامت على اثرها لغات لا يتفاهم اصحابها . والعباسيون وهم اصحاب ذلك اللواء الخائفي بين المشركين كانوا قد هبطوا من مماء مجدم لقرون خلت . ولكن أسس العلم ارتخ من أسس الدول . فالدول تدول وملكها يزول وتبقى معالم حضارتها وعرفانها . ولولا ذلك لانطفأت جذوة النهضة العباسية في اواخر القرن الثالث للهجرة حين لم يبق للعباسيين من حقيقة السلطان الا طيف خيال . ولكن شاعرهم ابن المعتز آخر من اسلم تلك الراية البيضاء بيد الجلاء الذي تولى قتله . ولكن فاهم الدول ومبيدها يذل دون ابادته معارفها . ولهذا تعاقبت الاحقاب وشرارة النهضة العباسية لاهية لتضرم في افئدة الشعراء تضرمها في عقول العلماء ولم يتخذ الا بعد ان بلغت الحد المقضي لكل مفطور ومنظور

ومع هذا فان تلك الجذوة ما زالت ترسل قسماً تذكو به فريحة شاعري حيناً بعد حين حتي لا تخلو الارض في زمن من شعراء العرب . وحسبك النظر الى ابن ثبانة المصري في القرن الثامن وابن حجر العسقلاني في القرن التاسع وعبد الباقي المعروف عند الترك بملك شعراء الروم في القرن العاشر وابن معتوق الشهاب الموسوي في القرن الحادي عشر وعبد الغني النابلسي في القرن الثاني عشر ويقال مع ذلك اجمالاً ان الانحطاط في الشعر العربي اخذ يظهر قبل انقضاء عصر المولدين وبات التقليد شعار المتأخرين . وحبذا لو كان تقليداً صحيحاً بل هو شوه وجه الشعر ولا سيما في القرنين الاخيرين اذ بات شاعرنا ولا المام له باحوال عصره فضلاً عن احوال المتقدمين يتحدى امرأ القيس فيضرب في البوادي والقفار وهو في بيت موصد الابواب . ويسوق الظعن وهو على متن

قطار البخار . وبنرم بهجة الرقتين وينيلهما من كرمه صفات جنة عدن ولا يدزي
 انهما مطمئنان من الارض في بادية قفرة تقتله اشعة الشمس اذا وقف اليهما
 ساعة واحدة . وهو لو فطن ينتقل في موطنه في روض اريض وجنان تجري
 من تحتها الانهار . حتى لو اردت ان تستدل من شعرهم على شيء من حالة نجتهم
 لاعياك ذلك . وغاية ما يرسم في ذهنك صورة مشوهة لا يعلم لها رأس من ذيل
 ولما كانت الكنانة فارغة من سهام الهاني عمدوا الى قذف الالفاظ مزوقة بجملة
 يستترون من ورائها وما هم بمستترين . حتى كأن قدماء المروضين كانوا ينظرون
 اليهم عند ما وضعوا للشعر ذلك التعريف الناقص فقالوا هو الكلام المقفى الموزون
 ولم يزيدوا

الشعر المصري

لم يبق للشعر بعد تلك الرقدة الطويلة الا ان يهب هبة جديدة بطور
 جديد وروح حية . وفي الامة والحمد لله بقية متأهبة لولوج ذلك الباب الرحب
 وهي شاعرة منذ نصف قرن بوجوب تجارة الزمان وعالم ان التصدي لمصادمة
 تيار الترقى غرور عاقبة الزيف والخذلان . ولهذا شرع النوايع من ابناء هذا العصر
 في تعديل الخططة فكانت لهم اليد البيضاء واسفر جهدهم عن ابراز الشعر الرقيق
 بالشوب الانيق . وما هو الا قس فاض من غرة هلال سيتكامل بفضلهم بدرًا
 ان شاء الله

الملاحم

او منظومات الشعر القصصي

بحث العرب في ابواب الشعر وضروبه وفنونه ودعوها جميعًا باسماء تنطبق
 عليها . ولكنه لم يتصل بنا انهم وضعوا اسمًا لمنظومات الشعر القصصي من نظائر
 اللياذة الا ان يكون ذلك ما استحدثه اهل المغرب وسمّاه بهنهم بالملاحم وهو عندهم

اللياذة والشعر العربي — ضروب الشعر عند الافرنج * ١٦٣ *

كالملاعب بالشعر العاتي ما تضمن من المنظوم احوال امّة او قوم . وفُصّلت فيه وقائع الحروب والتاريخ . ولعلمهم اخذوا ذلك من النجاشة القتال . والمحنة في اللغة الوقعة العظيمة وربما فُسد بها الاحكام من لحم الامر بمعنى احكمه لأن من القاب صاحب الشريعة الاسلامية « نبي المحنة » وقالوا في تفسيرها نبي القتال او نبي الصلاح وتأليف الناس كأنه يؤلف امر الامة

ويقول العرب ايضا ألم فلان الشعر وحاكه بمعنى نظمته تشبيهاً لبث الشعر بيت الشعر وبالثوب المخوك كأنهم يريدون الاشارة الى تأليف اجزائه باحكام اللحمة بينها ومنه الملحقات لمختارات سبع من قصائدهم سيأتي ذكرها ومهما يكن من النسبة المعنوية بين لفظ الملحقات والشعر القصصي فالنسبة بينه وبين الملاحم اظهر ولهذا سمّينا الياذة هوميروس واشباهها بالملاحم تفادياً من استحداث لفظة لم يسبق لها استعمال بين الكتاب

ضروب الشعر عند الافرنج

قلنا (ص : ١٤٩) ان العرب قسموا الشعر من حيث المعنى الى ابواب كالنزل والمدح والهجاء والثناء الى آخر ما هنالك من ابواب الشعر . وهو معلوم ان في شعر جميع الانم شيئاً من هذه المعاني . ولكن الافرنج ينهجون في تقسيم ابواب الشعر نهجاً آخر يجارون فيه العرب بالبحث في اكثر هذه الابواب وغيرها مما لم يذكره العرب ويخالقونهم بالرجوع الى حصرها جميعاً في بابين : الشعر القصصي وهو الذي عبرنا عن منظوماته بالملاحم والشعر الموسيقي وهو ما نُعبر عن منظوماته بالقصائد او الاغاني . ويسمون الاول « إريك » والثاني « ليريك » . وكلا اللفظين يوناني الاصل فالاول من اروس (eros) بمعنى الفناء او (eros) ايرو بمعنى الكلام . والثاني من ليرا (lyra) بمعنى القيثارة او الكنتارة او آلة طرب اخرى تشبه العود المعروف عندنا . ومماهما يحصر المعنى واحد كما ترى اذ يرجع بهما في الاصل الى المقصود من الشعر في اقدم ازمانه وهو التغني بالمانه والتطرب بهمايه والتلغّي بانشاده . ولكنهم فصلوا في الاصطلاح بين البابين وجعلوا لكل منهما مزايا خاصة

به وضمَّنوها سائر أنواع الشعر . ذلك انه لابد في الشعر من ان يُرمَى به الى احد امرين . اما بسط احوال العالم بمظاهره البارزة واما التعبير عن شعائر النفس الخافية عن الابصار وابرار التصورات الكامنة في الصدور . ومعظم ما يقلل من الشعر لا يخرج عن احدى هاتين الحالتين . فالشاعر القصصي بهذا الاعتبار يعبر عن شعائر غيره والشاعر الموسيقي انما يعبر عن شعائر نفسه

فاذا نظرنا على هذا القياس الى الاصل الشعري في بعض اسفار التوراة واتخذناها مثالا جاز لنا ان نُلتحق سفر ابوب بالشعر القصصي ونعتبره ملحمة من صفة الملاحم . ولتلق الزبور ونشيد الانشاد بالشعر الموسيقي وهما من ابداع الاغاني والقصائد التي نطق بها البشر

وقد الحقوا بهذين البابين باباً ثالثاً دعوه « دراما » من لفظة ذراما اليونانية (δραμα) بمعنى العمل او الصنعة وهو ما نستحسن التعبير عنه بالتمثيلي لانهم يقصدون به غالباً منظوم الروايات التمثيلية . وهو متوسط بين القسمين السابقين . ولكل من هذه الاقسام الثلاثة فروع لا تحل لايرادها

الا انه لا يترتب على ما تقدم ان منظومات الشعراء يجب ان ينتهي كل منها الى قسم من هذه الاقسام ويلصق به غير متجاوز الى ما سواه . بل قد يكثر التداخل بينها ولا سيما في منظوم البلاء . فالياذة هوميروس ملحمة من الشعر القصصي بالنظر الى ما تضمنته من سرد الوقائع والاخبار . وما تجاوزت به الى ما وراء الطبيعة من شؤون الآلهة وملابستهم للبشر في اعمالهم وايضاح حقائق الفضائل والذائل بطريق الاخبار . ولكن فيها قطعاً من ابداع ما قيل في الشعر الموسيقي وحسبك منها رثاء اخيل لفطرقل ولتبعه عليه في مواضع مختلفة منها . وان اوداع هكتور لزوجته في الشيد السادس مازال على قدمه المثال الذي ينسج على منواله ارباب الشعر التمثيلي وليس بين المتقدمين ولا المتأخرين من ادرك شأوه واجاد اجادته فيه مع كل ما احسن راسين الفرنسي في روايته « اندروماخ »

وبقارب هوميروس في الضرب على جميع الاوتار شكسبير الانكليزي .
فالمشهور عنه انه من انصار الشعر التمثيلي ومع هذا فاذا اخذت مثلاً رواية
« هَمَلْت » رأيت فيها من معاني القصائد والملاحم ما يوقفك دهشة وعجاباً .
وقل مثل ذلك في رواية « السيد » لكُرْتَنِي الفرنسي « وانذروماخ » السالفة
الذكر وفوسنت لغوته الالماني واشباه ذلك من منظوم نوايح الابطاليين وغيرهم
وهو معلوم ايضاً ان الشائع عن العرب . بين الافرنج انهم لم يضرّبوا الا على
وتر الشعر الموسيقي ولم يتغنّوا في النظم الى ما وراء القصائد والاغاني ولكنه قول
مبالغ فيه بل زعمٌ موهومٌ فيه كما سنبين في باب « ملاحم العرب »

ملاحم الاعاجم

قد يتبادر الى الذهن ان رسم الظواهر أقرب الى الفطرة وأيسر تناولاً من
رسم الخوافي الكامنة في النفس ولهذا كانت الشعر القصصي في اكثر الملل
منقداً على الشعر الموسيقي وفنونه . والصواب ان الاغاني والقصائد أقدم من
الملاحم والملاحم اقدم من التمثيلات لان أقدم ما نطق به الانسان من الشعر
انما كان أغنيةً يتطرب بها . او نشودةً تقذفها النفس اشعاراً بعاطفة من نحو
حبٍ ودعاء وغيظٍ ورجاء . او ملهاةً بنشدها الكبير ليتلّحى بها الصغير : فهذه
القطع الصغيرة تقدمت بلا ريب على المنظومات الطويلة من اشباه الليادة اذ
لا تتوفر معدات نظم الملاحم الا في الشعوب الراقية بعد ان تألف نظم المقاطيع
القصيرة مئات من الاعوام . ولكن قد يمكن ان يكون ارتقاء الشعر القصصي
منقداً على ارتقاء الشعر الموسيقي وان تقدم الموسيقي بالوضع كما ان ارتقاء بلاغة
الشعر منقدمة على بلاغة النثر وان كان النثر منقداً بالوضع . أما التمثيلات
فهي من نتاج الملاحم فجاءت متأخرة عنها بالطبع لانه كان أيسر على الشاعر
في غابر الازمان ان ينطق بلسان جميع ممثليه كما هي الحال في الملاحم من ان
يجعل كلاً منهم ينطق بلسان نفسه في محلٍّ مُعدٍّ لذلك كما هو الواقع
في التمثيلات

والشعراء في جميع الملل يجارون المؤرخين في تدوين الوقائع . وهم وان
قصروا عن المؤرخين في تعيين المواقيت وتفصيل الحوادث الا انهم يسبقونهم في
تعريف الثمائر والاخلاق ووصف احوال المجتمع البشري وتبيان علاقة الخلق
بالمخلوق . ولهذا لم يكن في الامم قديمها وحديثها امة ادركت شأواً مذكوراً
في الحضارة الا وقام نوانع الشعر القصصي بيسطون احوالها ويجيدون الرسم بنافذ
الكلام بما يوق اجادته بقلم الرسام

فلقدما المصريين شعراً كثير يستدل عليه من عاداتهم وان كان الزمان
قد اباد ملاحمهم الطويلة فان في ما وجد من القطع المتبثرة بين الآثار ما يدل
على انها كانت ذات شأنٍ خطير وحسبك منها شعر نبثاور
وللهند ملاحم بقي بعضها ولا تزال «المهابهارتا» آية في بابها وقد ترجمت
منها قطع كبيرة الى لغات الافرنج

وللعبرانيين ملاحم لا يزال بعضها في التوراة
ولقدما الجرمانيين والسكندنافيين ملاحم كانوا يحاثونها عللاً رفيها
واليونان كانوا منذ القدم مشغفين بالشعر القصصي ولم فيه منظومات كثيرة
قبل ملحمة هوميروس اشترنا اليها في موضعه (ص : ٦١)
والرومان ساروا على اثر اليونان فابعدوا في هذا الفن وقد اشترنا مراراً الى
انياذة قرجيلوس

وقام الافرنج على اثار تينك الدولتين ونفثوا قرونًا بمنظومات رولان في
فرنسا وهيلدبراند ونيبولغن في المانيا الى ان قام نوانع المتأخرين كدنتي
الايطالي وملن الانكليزي ومن هذا حذوها

ثم اذا انتنينا الى ملل الاسلام من غير العرب رأينا انها ليست بالاقل
حظاً من هذا الفن وهذه شتهامة الفردوسي في اخبار ملوك العجم مما يحجب به
ويحسد عليه وقد ذكرناها في غير موضع من هذا الكتاب
وان للفرس اليد الطولى في هذا الفن ولم فيه غير ملحمة الفردوسي منظومات

كثيرة كسهنامة القاسمي الكونابادي التي نظم فيها وقائع الشاه اسمعيل واهداها الى الشاه طهماسب وجعلها نظيرةً لتيورنامة الهاتفي . ومثلها شاهية نجد الدين الباري النسائي في وقعة الخوارزمي

. ولترك ايضاً بدنه في الشعر القصصي كنظومة شهودي في اربعة آلاف بيت . وان اغرب ما روي في هذا الباب ما نقل عن سهنامة الشاعر التركي الملقب بالفردوسي الطويل قالوا انه نظمها في مليون وستمئة الف بيت وكتبها في ثلاثمئة وثلاثين مجلدًا فلما عُرِضت على السلطان بايزيد العثماني امر بانتخاب ثمانين مجلدًا واحرق الباقي فتألم المؤلف وترك بلاد الروم وذهب الى خراسان فمات فيها كدًا^(١)

ملاحم العرب

اذا قلنا ان العرب نظموا الملاحم فلسنا براضعين ان في لغتهم شيئًا يماثل الياذة هويمبروس وسهنامة الفردوسي وفردوس ملن بالشعر الحلي . ولكن اذا صحّت الادلة المؤدية الى ان ايوب كان عربيًا ولا اخلا بعيدة الاحتمال كان ذلك السفر البديع المحفوظ في التوراة ملحمة عربية الاصل متقدمة بوضعها على ملاحم اليونان والرومان^(٢)

(١) كشف ، الظنون . ولغات تاريخية ٤ : ١٥٨

(٢) يقول كثيرون من كتاب العرب ان سفر ايوب كتب بالعربية شعرًا . ثم نقله موسى الى العبرية ولكنهم لا يأتون بحجة تؤيد هذا القول . ولعلمهم قالوا ذلك بالتواتر او نقلًا عن مصادر مجهولة المصدنا . وان في تواريخ العرب اخبارًا ووقائع وانسابًا كثيرة منقولة عن كتب قديمة منقودة وهكذا يخلط الصحيح منها بالناسد ويتمذر الرجوع الى الاصل — واما انصار هذا الرأي من علماء العصر فلم ادلة ترجح بالبحث صحة قولهم . فلا ريب ان ايوب كان من ابناء البادية العربية وان تمدّر حتى الآن تعيين الخطّة التي اقام فيها .

ولكن الاخذ بهذا القول ليس مما يضمّ دُرّةً بتيمة الى خزائن الادب العربية فيزيد في مفاخر العرب . او يفيد لفتهم فائدة تذكر لم وتؤثر عنهم . فالاصل العربي في عالم الغيب وهو على فرض الحال لو وجد لما كان فيه من عرية مُضَرّ شيء يعوّل عليه ولما وُجد بين العرب من يفكّ منه عبارة واحدة لاختلاف اوضاع اللغة ومبانيها في ذلك العهد البعيد . فهي بهذا الاعتبار آرامية او عرية اخرى اقرب الى عبرية التوراة منها الى عرية قريش ومن يعلم بالنظر الى ايوب نفسه الى اي فريق من القبائل كان ينتمي وما كانت حالة العرب والعربية في ايامه ومن كتب او استكتب ذلك السفر من قومه او غير قومه . والحاصل ان الماعنا الى ذلك السفر انما هو قبيل التذكرة والحرض على الاشارة الى امر خطير

ثم اذا رجعنا الى الشعر القديم المنسوب الى قدماء العرب في اليمن ونجد والحجاز فلا نلبث ان نتحقق انه من النظم الموضوع حديثاً لفرض كما اوضحنا . وزد على هذا انه لا يربو على عدد معلوم من المقاطيع وليست جميعها على شيء من الشأن في الشعر قصصياً كان او موسيقياً . وايضاً فلا فائدة من الالماع الى ما سبق من النظم في اللغة الينية الحيدرية التي هذبت وكتبت قبل لغة قريش بقرون . فالبحت اذاً يجب ان يكون في الشعر الباقي باللغة العربية المضربة

نظرة في الجاهليتين

جاهلية العرب وجاهلية اليونان

ان اقدم ما اتصل بنا من الشعر الجاهلي الجليّ مقولٌ معظمه في مثل المواقف

وفي ذلك يقول هان وإيولود وشلتمن « ان وقائع هذا السفر تمثل الحياة البسيطة على حقيقتها وتوضح بالرسم الصادق معيشة الشيخ العربي للقبيلة البدوية » ثم ان هذا السفر اقرب الى العربية من سائر اسفار التوراة العبرية . وقد اشار ريثان في مقدمته « لسفر ايوب » الى كثرة الكلمات الارامية فيه

التي قال فيها هوميروس الياذة . فهناك شياطين وجنيات تلقن الشعراء فصيح الكلام تلقين القيان لهوميروس . وفي مثل ذلك يقول الاعشى :

دعوت خليلي مسحلاً ودعواه جهنماً جدعاً للجهنم المذمومة
وجهنام تابعة عمرو بن قطن . ولكل من فحول شعراء الجاهلية جنية او شيطان يلقيه الشعر . وهناك ملوك كبار على قبائل صغار لتكاثف وتخالف دفعاً لعار واخذاً لثار . فنشور حرب البسوس بين بكر وتغلب وتتلحم عبس وفزارة على اثر سباق داحس والغبراء . ويكادون يفتنون بعضهم بعضاً كما كاد يفنى الطرواد واليونان وحلفاؤهم . وهناك ايام لتصاول وتجاول فيها قبائل منهم فيشتهر امرها ويذيع ذكرها كيوم الكلاب ويوم الجفار ويوم النصار ويغنى الشعراء بحديثها تغني هوميروس يوم القنطرة ويوم الابطول والكوربت وما اشبه ذلك مما يفوق الحصر

واذا نظرت الى الاشخاص دهشت لما يبدو لك من الشبه في الاحوال والاقوال . فمن بطل كعنترة ترتجف لصوته القبائل ارتجافها لصوت اخيل يُغاز مثله فيعزل القتال فينكل العدو بقومه حتى يهب من عزله فيفعل فعل اخيل في عودته . ومن خطيب كنستور يقف واعظاً موقب قس بن ساعدة فيرشد ويرغب ويهتب . ومن اخوة واخوات وازواج وزوجات وبنين وبنات وآباء وامهات يقولون ويفعلون في جاهلية العرب نظير قولهم وفعلهم في جاهلية اليونان مما ستره بالمقابلة في تعاليق الشرح . ولو اتسع لنا المقام لما عدنا سبيلاً الى ابراز نظير لكل من رجال الاياد والنساء

واذا حوِّلت نظرك الى اللباس والرياش وطرق المعاش رأيت مع سبق اليونان في حلبة الحضارة مشاكلة باهرة في حالة المبعثة الفطرية والسذاجة الخلقية والحرية الجمالية : سراً ككسيل يتسابقون الى قرى الاضياف كحائم الطائي وبنون يوتهم على ضرب السبل في فارة الطريق . وانرا كاخيل وفطرقل يأمران وينهون ولديهم الحشم والجوار ومع هذا فهم يديمون توزيع الزاد على

الاضياف و ينجرون الذبيحة. بُدّام على نحو ما نحر الامير الكندي نافته للعدارى .
وابناء ملوك كولد فريام لانعيبيهم مع غنّام رعاية المواشي وتربية الانعام كما قال خالد
ابن الوليد لماهان الارمني « واما ما ذكرت من فقرنا ورعيانا الابل والشاء فما
منا من لم يرعَ واكثرنا رعاة ومن رعى منا كان له الفضل على من لم يرع »^(١)
وسبايا تشرى وتباع . واسرى يُقتل وتفتدى وتسرح باحسان الى غير ذلك مما
لانهاية له وسرى منه جانباً غير يسير مفصلاً بالمقابلة في مواضعه

ملاحم الجاهليين

ليس في وقائع عرب الجاهلية واباءهم ما يضاهي خطورة وقائع الحرب
الطروادية ولكن تلك الوقائع لا تخلو بنفسها من شأن نسبي مذكور . فلا بدّ
إذا من اتخاذ احداها مثالا للمقابلة . وان أوّل ما يستلفت الانظار حرب البسوس
تلك حربٌ تناقل العرب اخبارها وتناشدوا شعرها على ممرّ القرون حتى
اياما هذه وصاغوها بقوالب شتى لا يصلح قالبٌ منها اصوغ الملاحم التامة كالالياذة .
ومع هذا فان جميع ما قيل فيها من الكلام المنظوم اقرب نسبة الى الشعر
القصصي منه الى الموسيقى فكل قصيدة منها قطعةٌ من ملحمة . ولكن تلك القطع
غير ملثمة لفقدان اللحمة بينها فهي كالحجارة المنحوتة قد احكمت صنعتها وبقيت
ملقاة في ارضها غير مرصوفة بالبناء . ثم اذا نظرت الى اشهر الرجال والنساء فيها
رأيتهم جميعهم شعراء فكلّيب يقول الشعر ومثله زوجته جليلة واخوه مهلهل .
وكذلك مرة شاعر وابنه جساس شاعر وكلّ ذي شأن في القصة من غريب
وقريب شاعر كالخارث بن عبّاد وجندّر بن ضبيعة فجموع شعرم اشبه من
هذه الوجه بالشعر التثبيلي لان لكل حادثة شاعراً ينطق بها بخلاف نهج شعر
الملاحم كالالياذة اذ ترى هوميروس فيها ينطق بلسان الجميع
وقد يخال الباحث في هذا التقارب ثم ذلك التباعد بين منظوم الجاهليتين

انه ربما كانت قصة حرب البسوس ملحمة في اصلها فقدت منها اجزاء اذت الى تفرق ما بقي . ولكنه يتضح لدى الامعان ان ذلك لم يكن وان العرب في الجاهلية لم ينظموا الملاحم الطويلة المحككة العرى مع توثق القرائح وتوفر معدات فصاحة في اللغة لان ذلك النسق في النظم لم يكن في طبعهم فلم يخطوا الى ما وراء الطبيعة وكانوا مع عبادة الاصنام يميلون الى التوحيد وكان التسليم للاحكام العلوية من سنانهم قبل الاسلام . فلم يوغلوا في التخييلات الشعرية الى النظر في احوال الآلهة وما يترب على ذلك من تفرع البحث الواحد الى ابحاث متعددة على ما هو شأن الامم الآرية . وكل ما يرى من الشبه بين احوالهم واحوال قدماء اليونان انما هو من المظاهر التي آلت بينها طرق المعيشة الجاهلية . واذا نظرت الى حالة اليونان بما كانت عليه مع تلك الخشونة من الانتظام والدربة رأيت انهم كانوا ايام حرب طروادة اقرب شبيهاً بالعرب في ايام الخلفاء الراشدين ثم كانوا في ايام هوميروس اي في زمن نظم الليادة قد بلغوا من الحضارة مبلغاً لم يكن للعرب في جاهليتهم منه الا النزر اليسير . فلم يسع ابناء الجاهلية ان يتجاوزوا بنظمهم احوال فطرتهم وطرق معاشهم فكانوا ينتقلون بالشعر من باب الى آخر انتقلهم من حي الى حي يمجيدون في كل ما يقولون ولكنهم لا يطيلون المقام فلا يشيدون المنازل الفسيحة المشيدة الاركان

وليس من اللازم ان يكون شعر جميع الامم على نسق واحد بل ربما كان هذا الثباين من الاسباب المؤدية الى ابراز انواع الجمال كافة على اختلاف صوره واشكاله . فالشاعر القصصي من اليونان وخلفائهم كان اذا قص حادثة رواها كلها شعراً واما الشاعر العربي فينشد الشعر حيث يحسن وقعه واكثر ما يكون ذلك في الوصف والخطاب والجواب ويقول الباقي نثراً . وفي هذه الطريقة نوع من التفكيك المأنوس . وهي طريقة شعراء البادية حتى يومنا — جلست مرة الى حلقة شاعر منهم ينشد على نغم ربابته فشرع في مقدمة ثرية قصيرة حتى بلغ الى وصف حسناء فجعل يتغنى بالشعر على نغم آلة الطرب فلما

استتم قصيدته رجع الى الكلام الثري بضع دقائق حتى بلغ وصف وقعة بين قبيلتين فرجع الى الانشاد وهكذا ظل يراوح قوله بين نثر وشعر نحو ثلاث ساعات . وذلك ايضا شأن القهـأصين في كثير من الخواصر العربية فلا سبيل اذا للزعم بوجود ملاحم لعرب الجاهلية على نحو ما يراد منها بمرف الافرنج . ولكن للجاهليين نوعاً آخر من الشعر القصعي مما يمز وجوده في سائر اللغات وذلك في الملاحم القصيرة المقولة في حوادث مخصوصة بجمع شعراء الجاهلية وبعض المخضرمين قد ساكوا هذا المسلك واجادوا فيه . ولو تصفحت كتاب الاغاني ومفضليات الضبي وامثالهما من كتب الادب والشعر لرأيتها ملأى بهذه المنظومات الغراء وحسبنا بياناً لذلك ان نلقى في سبيلنا نظارة على جمهرة اشعار العرب

جمهرة اشعار العرب

هو كتابه ألفه ابو زيد محمد بن ابي الخطأب القرشي المتوفى سنة ١٧٠ للهجرة وشرح فيه المنظومات التي اخارها العرب من نفائس شعر الجاهليين والمخضرمين وجعلوها سبع رتب في كل منها سبع منظومات . وقد اوردها المؤلف ببعض خلاف في الترتيب عن المتواتر المشهور فجعل النابغة والاعشى بين اصحاب الملقات وحذف معلقة الحارث الشكري فكانت الملقات ثمانى والمجمرات ستاً . وهي في ما يلي مرتبة على ما هو شائع بين كتأب الادب والتاريخ

المعلقات ودعيت كذلك اخذاً من قولم انها كانت معلقة باركان البيت واصحابها امرؤ القيس وزهير بن ابي سلمي والحارث بن حلزة . ولييد بن ربيعة وعمرو بن كلثوم وطرفة بن العبد وعنترة العباسي والمجمرات ولعلها دُعيت كذلك تشبيهاً لها بالنابغة المجرمة وهي في اللغة المتداخلة الخلق كأنها جمهور الرمل اي انها عالية الطبقة تحكمة السبك . واصحابها النابغة الذبياني وعبيد بن الابرس وعدي بن زيد وبشر بن ابي خازم وامية

ابن ابي الصلت وخداش بن زهير والشعر بن تَوَلَّب
والنُتَقِيَّات ابي المختارات واصحابها المسيَّب بن علس والمَرْقَشُ والنَّبَاسِ وعروة
ابن الورد ومهلل بن ربيعة ودريد بن الصمة والمتنخل بن عويمر الهذلي
والْمُذَهَّبَات ابي المكتوبة بماء الذهب واصحابها حسان بن ثابت الانصاري
وعبد الله بن رواحة ومالك بن عجلان وقيس بن الخطيم الاوسي وأُحَيْمَةَ بن
الجلَّاح وابو قيس بن الاسلت وعمرو بن امرئ القيس

والمراثي واصحابها ابو ذؤيب الهذلي ومحمد بن كعب البُنَوِي واعشى باهلة وعقمة بن
عبد الحمير وابو زَيْد الطائي ومتم بن نويرة ومالك بن ريب النهشلي البجلي
والْمُشَوَّبَات وهي التي شأها الكفر والاسلام واصحابها النابغة الجعدي وكعب
ابن زهير والقطامي والخطيئة والشمخ بن ضرار وعمرو بن احمر وتميم بن ابي مقبل
والْمُحَمَّمَات ولعلمهم ارادوا بهذه التسمية الاشارة الى احكام نظمها والحام شعرها
كما تقدم . واصحابها الفرزدق وجريير الخطافي والاخلط التغلبي وعبيد الراعي وذو
الومة والكبت والطرماح بن حكيم الطائي

فهذه تسع واربعون منظومة لتسعة واربعين شاعراً اذا تصفحتها تبينت لك
في كثير منها مزايا هذه الملاحم القصيرة المختصة بلغة العرب ولا سيما ما قيل
منها في الجاهلية كالمعلقات فانك ترى فيهن من سرمد الحوادث وتفصيل الوقائع
وتمثيل المشاهد وبداهة النكر ما يعدُّ في اعلى طبقات الشعر القصصي . وفيهن
ايضاً من بديع التصوير والسذاجة وحسن التصرف البديعي واجادة الرصف
وابداع الوصف واحكام التشبيه ما يسمو بهنَّ الى ارفع درجات الشعر الموسيقي
فهن بهذا المعنى قد جمن بين نحاسن الطريقتين في الشعر العربي كما جمعت
الياذة هوميروس بين اطراف المحاسن في الشعر اليوناني

فالمعلقات اذاً رأس الملاحم العربية . واقرهين الى منظومات الشعر القصصي
على ما يراد به في العُرف معلقة الحارث بن حلزة لاناضته في وقائع بكر وتغلب
وتضيه بفوز قومه ونكال عدوه . ومفاخر عشيرته على ما يماثل تغني هوميروس

في الأياذة . وتليها بهذا المعنى معلقة عمرو بن كلثوم ثم معلقة زهير
ويلحق بالمعلقات باعتبار أنها ملاحم عربية مجمهرة بشر بن أبي خازم وأمية
ابن أبي الصلت . ومنتقيات مهلهل بن ربيعة ودريد بن الصمة والمنتخل بن
عويمر . ومذهبة قيس بن الخطيم . ومشوبة النافذة الجعدي . وملحات الفرزدق
والكيت والطرباج
وانت ترى ان معظم اصحاب الملاحم من الجاهليين وان احسنها المعلقات
وجميع اصحابها من ابناء الجاهلية وقد عرا الشعر القصصي بعدم ضعف المأنا
اليه فلا حاجة الى التكرار

ملاح المولدين

اذا قصر المولدون عن الجاهليين بالبداهة الفكرية فقد رأيت انهم فاقوم
بسمو التصور والرفعة وصعدوا فوقهم درجات في سلم البلاغة بفضل القرآن . ولو
لم تغير مناحي شعرهم لما تقدم بسطه من الاسباب لابتدعوا في جميع الاساليب
الشعرية . ولكنهم لم يستثمروا الاقتباس والا فلو استرشدوا ببعض السور القرآنية
كسورة يوسف وسورة مريم وسورة الانبياء مما بعد نبأ نبي الملاحم لفاقوا
الجاهليين بالشعر القصصي كما فاقوم بالشعر الموهبي
ومع هذا فان للمولدين نوعاً من الملاحم خاصاً بهم وهو المقامات المسجدة بما
يتخللها من الشعر كقامات الممداني والحريري . ولكن التجرد فيها للاغراب في
اللفظ يحول الفكر فيها عن التصرف بالمعنى . على ان اللفظ احياناً رنات مطربة
بنفسها . وهذا النوع من الانشاء من خصائص اللغة العربية . وان كثرة القوافي في
اللغة نسوق الى التسجيع حتى لقد يكون ذلك حيث لا مسوغ له كالأبحاث العلمية
والنفاسير القرآنية حتى كتب التاريخ التي لا يستحسن فيها الاكثار من الشعر والسجع
ويلحق بالمقامات القصص التي يمزج بها الشعر والنثر كقصة عنترة العسي وكثير
من القصص التي لتداولها العامة في جميع البلاد العربية
وان من احسن ملاح المولدين "المحمة" ثرية جمع فيها صاحبها شئت المعاني

واوغل في التصوّر حتى سبق دنني الشاعر الايطالي وملثّن الانكليزي الى بعض تخيلاتهما الا وهي رسالة الفئران لابي العلاء المعري . ولكن استغلاق عبارتها وفقدان الطلاوة الشعرية منها يخطان بها عن درجة امثالها من ملاحم الاعاجم . واما المنظومات الاخبارية والاراجيز التاريخية التي يقصد بها تدوين الاخبار فهي كثيرة في كل عصر من عصور العرب في الشعر الفصح والعامي وقد باد معظم ما قيل منها في الجمالية وهي اشبه شيء بالاراجيز العلمية وكتب التواريخ المسجّعة كتاريخ العتيبي وليست في الغالب الا سلسلة حوادث مصوغة في القالب الشعري البسيط لا تتناول الا القليل من بديع التصوّر الذي يهيج النفس ولا مجال فيها للخيال . ومن هذا القبيل ارجوزة ابن عبد ربه ^(١) في اخبار الملك الناصر عبد الرحمن الاندلسي التي مطلعها :

سبحان من لم تحوّر اقطارُ ولم تكن تدركه الابصارُ
ومن عنت لوجهه الوجوه فما له ندى ولا شبيه

فهذه وامثالها مما لا يعدّ من نفائس الشعر القصصي ولا الموسيقى وقد شاعت هذه الطريقة في بلاد المغرب ونظموا فيها الموشحات المعروفة بالملاعب بالشعر العامي وابدعوا في بعضها ابداعاً يكاد يلصقها بالشعر الفصحى ككلمة الكفيف المكاسمي في السلطان ابي الحسن المريني ^(٢) هذا جلّ ما يمكن ابراده بالايجاز عن ملاحم العرب وهي كما ترى جامعة بين اعلى طبقات الشعر وادناها



(١) المقدّم لفرید ج ٢ : ٢٨٨

(٢) ابن خلدون ١ : ٥٣١

الحقيقة والمجاز

التشبيه والكنابة والاستعارة

نظروهم يروى الى الحقائق نظرة الباحث الخبير فتجلت له من وراء حجاب الخيال .
وامعن في احوال الطبيعة حسنها ومعنويتها . فبرزت له باهى مظاهرها . فاستوحى
قيانه فأوحى اليه وحى الآلهة للانبياء

عمد الى الرسم غدير متكاف ولا متأنق والصدق مرماه . والبداية دليله
فسلك سبيلاً عدلاً غير ذي عوج . فما تشرع ولا اضلته الجاهل
رأى ان الحقيقة في غنى عن التستر والتبرج . فذلك يخفى جمالها وهذا يشوب كمالها
فابرزها على فطرتها فاذا بها فتانة للقلوب خلاصة للبهائر

علم ان معارضة الاشياء والنظائر من مزيلات الاوهام المقربات الى الافهام
فاكثر من التشبيه والمقابلة حتى الم بكل احوال البشر وسائر المخلوقات . وان
احسن شيء في تشبيهاته حلولها جميعاً نحلها . فاذا تجلت له الصورة رسمها
بصراحة واتساق غير مداح ولا معاذر فاطنب واوجز وصعد وهبط على
ما يقنضه الموقف

فاذا وصف فارسين متساوين شدة وبأساً شبههما بلبشين كما قال في مكطور
وفطرقل وهما يقتتلان حول جثة بطل طرودي : (ص ٨٥٢)

... وهكطور عن خيله نزلا وفي طلب الجثة اقتتلا ...

كثيئين بينهما ظبيئة بها فتكا فوق طود علا ...

واذا وصفهما وقد ذل احداهما الآخر شبه احدهما بالبيت والآخر بالطبي كقوله

في منيلاوس وفارس : (ص : ٣١٤)

كاللث يضوره السغب والظبي لدير يضطرب

فعليه منقضا يشب ولو القناصون اقتربوا

بضراء تقبل للصد

واذا بدت له الشدة قبل النزال وحب البروز من الاعتزال رأى ان
الجواد العتي المنقطع على مربطه اقرب الى تلك الصفة من الليث لخله من عقاله
واجراء جري جواد امرى القيس (ص: ٢٠٠ و ٤٨١)

واذا نزل به الى ساحة القتال فانهزمت من وجهه الابطال عدل عن التشبيه
بالحيوان الفرد الى ما هو اوقع في النفس فمثله بالسيل الجارف (ص: ٣٨٩)
وابرز لك بالتشبيه الصادق جميع صفات البشر وما يقابلها من صفات
الحيوان بجميع حالاته فنظر الى الكبير منها والصغير والقوي والضعيف والوحشي
والداجن فوصف الاسود والذئب والخرانيس والمها والظبي والابيلة وغير ذلك
مما لم يستدله الانسان . والخليل والحبر والبغال والكلاب والبقر والمز والغنم وغير
هذا مما دخل في حظائر الناس

وتناول الطيور من النسور والعقبان الى البط والاوز والرهو والغرائق
والزراير والحمام . وانعطف الى الزحافات والدبابات والديدان وانتهى الى الهوام
والحشرات فوصف الافاعي وشبه بالصراصر والزناير والنحل والذباب و « ان الله
لا يستحيي ان يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها »

ولقد عابه بعض المتسرعين على التشبيه بصغار الحيوان . ولكنك اذا نظرت
الى كل ما قال فيها علمت انه انما ذكر الشيء الحقير ليستخرج منه الامر
الخطير وتلك عبرة يجب ان ينظر اليها بعين الاعظام والاكبار . فاي تشبيه
لعمية تذود عن حوضها وتنفاني في الدفاع عن العرض والمال اوقع من قوله
قول الشفري مشبهاً بالنحل والزناير: (ص: ٢٥٥)

مثل الزناير ذبت عن خشارها والنحل لا يُغفل عن خليته
واي تمثيل لبيش كفيف يور وجند من حول زعمائها تدور اصح من قوله
قول عنتره مشبهاً بالذباب: (ص: ٢٨٩)

حشوا بغمته في عذو غمضت يصلون نار انتقام داخل الكبد
مثل الذباب اذا حان الربيع وقد حامت بمنة راعي العنز والنقد

تمافت تبغى الابان حاجة على القصاع بلا حصير ولا عدد
 وكل سيد قوم قام منفرداً بهم كراع بما يستاق منفرداً . . .
 ثم انه نظر الى الطبيعة فتناول بتشبيهاته منها كل ما بلوح للناظر ويروق
 الخاطر فوصف النار من القبس والشرار الى الحريق الذي يلتهم الغاب ويدمر
 المدن الكبار . ووصف الاهواء والانواء من النسيم الليل الى الزوبعة والعاصفة
 والاعصار الويل . وجميع المهابة من صبا ودبور وجنوب وشمال . والسحب
 والامطار من البخار المتصاعد حتى الغيم المتلبد ومن القطر الى الغيث المدرار
 والسيل الهدار . واحاط بالبروق والرعود وظواهر الجو من قوس قزح حتى
 الشهب الثواقب . وضرب في النياقي وصعد الجبال فمثل بالتشبيه جميع ما فيها من
 شجر وغاب وصخر وتراب ووصف الورقة الجلانة والشجرة السماء . وارلقى الى عالم
 الافلاك واتخذ ما شاء لموصوفاته من شمسا وقمرها وثوابتها وسياراتها . ثم
 خاض عباب البحر فاخذ بناصية حيتانه ونبثانه وسائر سكانه من حيوان ونبات .
 وتلقى عجابه واستقبل امواجه ومثله صافياً وساكناً ومشتدداً ومربداً ومزبدداً
 مرصداً . وجال الانطار وعبر الانهار فوجل جوف الارض فمثل ما فيها وما تحتها
 وما فوقها وما يكنفها من ماء وهواء

واذ فرغ من ذلك مد بصره الى احوال البشر فاخذ يقابلها بعضاً ببعض
 فاما الهاء الملك والقور والزعيم الجصور عن الجندي الفقير والطريد الكسير . وما
 اغفل عاملاً ولا صانعاً ولا تاجراً ولا زارعاً . وتطرق الى الشؤون البيتية
 فما غادر اباً ولا امماً ولا زوجاً ولا زوجة ولا اخاً ولا اختاً ولا ابناً ولا ابنة
 والم بكل قريب ونسيب . وبحث في اطوار الحياة فمثل حالة الشيخ والكهل
 والشاب والطفل . وهو في كل ذلك مستنفر الى الخير منفر من الشر يشتد
 موضع الشدة ويرق موضع الرقة . فيقف بك تارة ترقب العواصف والانواء
 وقد اكفر الجو واضطرب اليم ومادت الجبال وزلزلت الارض زلزالها ثم ينثني
 بك طوراً وقد هاج العاطفة واستنزل الحنان بالتمثيل النافذ والتشبيه السهل

المتنع قترى وصفه في معنم ذلك غريب الصنعة قريب الناول . فاي وصف
للائذ اصدق من لباذ الطفلة بامها اذ يقول : (ص : ٨١٣)

شفت كطفل جرت تسرع ووف دونها امها تهرع
فتعلق في ذيل اثوابها ومقلتها صبياً تهسع
وترسل طرفاً بليلاً اليها عناء بذلتها يشفع
ونجذبها وهي ضارعة لتحملها فيكف البكا

واي تمثيل اصدق وارق من قوله مشبهاً موت فتى غص الاهاب في مقبل
الشباب وقد مال رأسه على صدره وهو يحنض : (ص : ٥٣٤)

فأرأس الفتى لما بجنته مني يغفرو المسرود أثقل ينغي
كرهرة خشناس يبانع روضة بثقلها طل الربيع فتثني

ومن مزايبا شعره انه كان يطلق عنان التصور في التشبيه فلا يوقف القول
الا حيث وقف الخيال فقد تناول تشبيهه ابياتاً وتدرج طيه تشبيهات اخرى
وقد يشبه في شطر او بعض شطر . وهذا ايضاً من مزايبا الشعر الجاهلي التي اسلفنا انها
ضعفت في المولدين وان اجادوا الرسم كابن المعتز ما خلا افراداً قليلين تناولوا
المعاني فألّوا بجميع اطرافها كابن الرومي

وكان مبغضاً للاغراب باللفظ والمعنى لا يقول الا ما ترضاه الخاصة وتفهمه
العامة بنتحي تجارة الفطرة وإلنطاق الطبيعة يسمى الى الحقيقة ولا يتوختى المجاز
فلا يتطلبه في شعره ولا يتجنبه اذا عبر عن فكره . ولهذا كان كالبجاهليين من
العرب كثير التشبيه قليل الكنابات والاستعارات لا يأتي المجاز الا مرسلأ
فجاء جميع ما ورد منه في شعره آية في بابه على فله كقوله (ص : ٨٣٩)
واغمض عينيه ستر المنون . وقوله (ص : ٥٩٤) او تقفر الحرب المهدة النما .
وامثال ذلك من الاستعارات البسيطة السهلة

البدييات

اما بديياته فحدث عنها ولا حرج . فلقد تراه يخوض بحر المعاني فينثر

ما النقط منها من ابكار الافكار ثم بلفت يميناً وشمالاً فيدرك بعين بصيرته ما بطرق فكر سامعه فيمدُّ بصره الى مخيلة ذويه الالباب منهم ويستخرج ما ارتسم في اذهانهم بسياق الحديث فيعبّر عنه ببداهة ترتاح اليها النفس ويطمئن الخاطر . فاذا اتى مثلاً على وصف وقعة التجم فيها القتال وتلاحمت الرجال وتعالى الصياح وتألق السلاح علم انه يجيئ للسامع شيء من البديهيّات المطروقة فقال له :

والارض تحت الرّجل والمجلد مادت لثقله هاته الملل
او قال : وكان السهول طارت شراراً بسير الاغريق فوق السهول
او قال : وفوق الصدور الطامحات تألقت صوامهم والامر ايّ تألقت
وامثال ذلك من المعاني التي لا يحتاج فيها الى شعذ ذهن واعمال فكرة .
وهي مع هذا ليست مما يستهان فالمعنى البديهي اذا حلّ تحله خف على الطابع
وقد يؤثر بحسن وقعه على كثرته تأثير المعاني المبتكرة على قلتها

النقل والسرقة وتوارد الخاطر

يسوفنا واجب الاستطراد في هذا البحث الى مواخذه بعض الباحثين في الشعر العربي اذ يضعون البديهيّات موضع المبتكرات فينكرون على كل شاعر متأخر ان يتخلل معنى سبق اليه فيخلطون بين السرقة وتوارد الخاطر . فلهذا لا نرى رأي صاحب « الابانة عن سرقات المتنبي » بقوله ان ابن الرومي وابا الهندي ومحمد بن هاشم العاري والمتنبي تنافلوا بعض من بعض معنى طول اللين فقال ابن الرومي :

فكانَ ليلتنا عليّ لطولها ثبتت فتنّض عن صباح الموقف
وقال ابو الهندي :

يا ليل هل لك من صباح ام هل لنجمك من براح
وقال العاري :

اللياذة الشعر العربي — النقل والسرفة وتوارد الخواطر * ١٨١ *

سهرت لي فنوم العين متبولُ
وقال المنبي :
كان لي يوم الحشر موصولُ

من بعد ما كان لي لي لا صباح له
فهذا من المعاني البديهة التي لتوارد فيها خواطر الشعراء وغير الشعراء . وإنما الفرق
في التعرف فيها أفلا ترى ان كلاً من الاربعة تصرف تصرفاً ثغافاً للآخر
ومثله قول صاحب « الموازنة بين ابي تمام والبحتري » ان ابا تمام كان ناقلاً
لما قال :

كان بني نهان يوم وفاته
اخذه من قول جرير في رثاء الوليد بن عبد الملك :
امسى بنوه وقد جلت مصيبتهم
او من قول ريم بنت طارق وهي ترثي اخاها :
كنا كأنجم ليس لي فيها قر
وما اخرى هذا المعنى ان يكون شائعاً في امّة صفا جو ارضها وسامرت
القمر والنجوم طول ليلها . فليس هذا كله من باب النقل وإنما النقل في مثل
ما استشهد به صاحب الابانة من قول المنبي :

حتى رجعت واقلامي قوائلي
اكتب بنا ابدًا بعد الكتاب به
المجد لل سيف ليس المجد لل قلم
فانما نحن للاسياف كالخدم
فهو مأخوذ عن قول ابن الرومي :
كذا فقي الله للاقلام مذ خلقت
ومثله ما استشهد به صاحب الموازنة من قول ابي تمام :
مضوا وكان المكرمات لديهم
فانه منقول عن ابي نواس اذ قال :

سنّ للناس الندي فندوا
فكان الخجل لم يكن
واما شعراء اللاتين والافرنج فلم يحاذروا مثل هذه المحاذرة في نقل امثال

❖ ١٨٢ ❖ الاياذة والشعر العربي - النقل والسرقة ونوارد الخواطر

هذه المعاني ولا سيما بالنظر الى الاياذة فانهم اغاروا عليها غارة شعواء فظفروا
بمعانيها اجياد منظوماتهم من الملاحم الى التمثيلات الى القصائد فنقلوا ونسخوا
ومسخوا وسلخوا واقتبسوا وعارضوا وضمّنوا وتصرفوا وم في الغالب لا يصرمون
السرقة بل يفاخرون ان يعلم انهم تحدّوا هوميروس حتى لو نظرت الى تلك
المنظومات. لرأيت المعاني الهوميرية مزدحمة فيها بتصرف او بغير تصرف ولا سيما
ما ابعده هوميروس يصرّو فاستنبطه بالتصوّر من الماثلاث البديعة او استخرجه
بالتشبيه من مكنونات الطبيعة كقوله في مثل معنى امرىء القيس بوصف جواده :

(ص: ٦٩٩)

وهبّ الطراود والتصقوا وفي الصدر مكطور مندفق
كجلمود صخر قد انتزعا من الثمّ سيل به اندفعا
له الغاب مرتجة ترتجف الى القعر حيث بعنف يقف
فنقله قرجيلوس الى « اناذته » اللاتينية فقال (ن ١٢)

*Ac veluti montis saxum de vertice praeceps
Quum ruit avulsum vento, seu turbidus imber
Proluit, aut annis solvit sublapsa vetustas,
Fertur in abruptum magno mons improbus actu,
Exsultatque solo; silvas, armenta, virosque
Involvens secum:....*

واخذه عنه تاسو الايطالي فقال « في اورشليم » : (ن ١٨)

*Qual gran sasso tal hor, che o la vecchiezza
Solre da un monte, o svelle ira de'venti
Ruionosa dirupa, e portu, e spezza
Le selve, e con le case anco gli armenti
Tal giù trahea de la sublime altezza
L'horribil trave e merli, e arme, e gente,
Diè la torre a quel moto une, o duo crolli;
Tremar le mura, e rimbombaro i colli.*

ومثله قوله بلسان زفس بعد مشاجرة بينه وبين اخيه فوسيدون اسفرت عن
ارعواء فوسيدون واستكانته : (ص: ٧٨٦)

اللياذة والشعر العربي — النقل والسرقة وتوارد الخاطر * ١٨٣ *

ففوسيد في بطن العباب قد التجا ومن نار غيظي في حرازته نجيا
والا لأهمت فانتكات أ كفننا بنا عرقاً بهي به كل عارق
وكان اصطداماً بالعوالم يحدق ويزعج ارباب الجحيم وبقلق
فيا نعم مسعاه له ولعزّي فإنا كُنينا فلق تلك الفلائق
فاخذهُ ملائكة الانكليزي لوصف ارتداد جبريل عن ابليس فقال في « فردوسه »

.....Not only Paradise
In this commotion, but the starry cope
Of heav'n, perhaps, and all the elements
At least had gone to wrack, disturb'd and torn
With violence of this conflict, had not soon
Th' Almighty, to prevent such horrid fray, &c.

وكثيراً ما نقلوا عنه التصورات الغريبة والمعاني الطويلة المشبهة بأصولها
وفروعها وأصروا فيها كما نقل قولتير الفرنسي نجوى زفس للطرواد اذ قال :

(ص : ٦٢٦)

(كتيبة تلك ضمت جلم عدداً جنداً اتمد الى كيد العداة بدا)
كادت تجوز حفير القوم عابرة اذا بطير لها تحت السماء بدا
فاستوقفت جزعاً في الجرف حائرة تطيراً وهو عن يسرى السرى وردا
نسر مغالبه في الجو قد نشبت بافعوان خضيب تحت قبضته

فالافعوان وفيه لم يزل رَمَقُ ما بين اظفاره في الجو يصطفيق
حتى عليه التوى بالعنف بلسه في بارز الصدر حيث التفت العنق
فصاح عن المر مرّ وافتله وراح تحت مهبّ الريح ينطلق
والأفعوان هوى للارض مخضباً حياً وطروادة ارناعت لرؤيته
فقال قولتير منصرفاً ومتفتناً في مقدمة منظومته « كاتيلينا » :

Tel on voit cet oiseau qui porte le tonnerre,
Blessé par un serpent élané de la terre;
Il s'envole, il entraîne au séjour azuré
L'ennemi tortueux dont il est entouré.

*Le sang tombe des airs. Il déchire, il dévore
Le reptile acharné qui le combat encore;
Il le perce; il le tient sous ses ongles vainqueurs;
Par cent coups redoublés il venge ses douleurs.
Le monstre, en expirant, se débat, se replie;
Il exhale en poison les restes de sa vie;
Et l'aigle, tout sanglant, fier et victorieux,
Le rejette en sureur, et plane au haut des cieux.*

وان امثال هذه المنقولات عن المعاني الهوميرية مما يملأ الاسفار ولم يُعَبَّ عليها هؤلاء الشعراء الا من. تعمّد السرقة وشقّ نهجه عن ادعاء الابتكار على نحو ما نرى الكثيرين من المطفلين على الشعر في هذا العصر

فعل الحضارة في استهجان المستحسن

واستحسان المستهجن في التشبيه والمجاز

إنّ ممّا بُهِتَ له بعض المتأخرين من نقلة الأياذة واشكل عليهم في لغاتهم تشبيه الانسان في بعض احواله بانواع من الحيوان ينظرون اليها بعين المهانة ويضعها هوميروس موضع العزة والكرامة . وهذا ولا ريب من نتائج طول العهد بالحضارة . ولا أعلم أهي حسنة لهذه الحضارة تُمدح عليها أم سيئة تؤاخذ عليها وانما اعلم ان في اصناف كثيرة من الحيوان مزايا يمز على الانسان ان يتصف بأحسن منها . ولا اذكر حيواناً تقادم العهد على وضعه موضع الحسن والمهوان كالكلب فقد عرّض هوميروس بذكره مراراً للسباب والتخثير وهكذا فعل اكثر الكتاب من المتقدمين . وفي شعر العرب وكلام مؤرخيهم وادبايهم من هذا المغنى ما لا يدركه حصر فلا يكادون يشيرون الى شخص يريدون ازدرائه او شتمه الا قالوا « هذا الملعج الكلب » و « هذا الكلب البذي » وما اشبهه . فكأنهم تناسوا جميع ما في هذا الحيوان الامين من كرم الخلال واغاروا على شيء من الدناءة فيه وان كان لم يستأثر بها دون سائر الحيوان ناطقاً كان او غير ناطق . ومع ذلك فقد وثى هوميروس كل صفة حقها . فهو اذا وصف الكلب بالبذاءة فإ اغفل

اللياذة والشعر العربي — فعل الحضارة في الجاز * ١٨٥ *

سائر ما فيه من الحاصل فأطراً أمانته ومهارته في تقفي القنينة وبسالته في تأثر الضواري . وفعل فعله شعراء الجاهلية مما عارضناه بشعر هوميروس في موضعه
واما ما بقي من الحيوانات فقد اقتطع منها هوميروس صفات حميدة وصف بها كبار قومه وكرامهم وهو ما اردناه بقولنا انه اشكل على بعض كتّاب الافرنج وثقل عليهم نقله الى لغاتهم . فاذا شبه رجلاً صبوراً بالحمار رأيتهم يتشاقلون بنقل الكلمة بل ربما اكلوا الحمار برمته كما فعل بوب في النشيد الحادي عشر وعذروهم في ذلك انه يشوه وجه ترجمتهم . واذا شبه هوميروس عظيم القوم بالثور عظم عليهم الامر وحسبوها ورطة يجب التماس منها . وربما بدلوا حيواناً بحيوان فجعلوا الخنازير دبةً والكلاب ذئاباً وهم يزعمون انهم لطّفوا المعنى ولا اخلّم فعلوا

ولستُ بمنكرٍ ان الانقلاب الذي طرأ على مفاد التعبير عندهم قد أصابنا منه شيءٌ كثير . فليس منا من يستحسن تشبيه كريمة قوي الجنان رابط الجأش بالحمار ولا تشبيه باسلي مغوار بالخنزير . على ان اليقين ان ابناء الجاهلية من كل قوم لم يكن هذا شأنهم ايام كانت الفطرة تأخذ بالظاهر ولا تتكلف التأويل . ولتشبث بالحقيقة مهما ثقلت

وحسبنا ان نرجع الى ايام جاهليتنا وما وليها من مُقْتَبَل الاسلام وننصفح معاجم لغتنا فنرى ان هوميروس لم يأت شيئاً قريباً — قال في اساس البلاغة « الثور الفحل من البقر والسيد وبه كنّي عمرو بن معدى كرب » . وبما يذكر هنا استطراداً ان الثور لا يزال لقباً مكرّماً في السودان . ويقال مثل ذلك في الجَدَع بمصر وهي من الجَدَع . وفي محيط المحيط الجَدَع من البهائم قبل الثني والشاب الحدث ومنه قول دُرَيْد :

يا ليتني فيها جَدَع اخب فيها وأضع

وفي كتب اللغة الكباش الحمل وسيد القوم وقائدهم والمنظور اليه فيهم ومنه قول لبيد :

بكتائب رجح ا تعود كبشها نطح الكباش كانهن نجوم
وقول اسد بن ناعصة :

ولرب كبش كتيبة غادرته يكو لجهته صريعاً اطحلا
متنجماً قد دق في حيزومه صدر القناة على الفرار تجدلاً
والقرم الفحل ثم استعمل للسيد العظيم على التشبيه له بالفعل وقد اجتمعا في
قول المتنبي يمدح سيف الدولة

ولكننا نداعب منك قرماً تراجمت القروم له حقافا
اي نمازح منك سيداً صارت الرجال بالنسبة اليه كالنبايق بالنسبة الى
نحول الجمال

والرث الخنزير الذكر وأجرى مجازاً على الباسل المقدام فيقال هو رث من
الرتوت وهو من رتوت الناس اي من عليتهم وسادتهم (اساس)
والقَبُّ الجمل والرئيس والملك . والفنيق الفحل المكرّم من الابل لا يؤذى ولا
يركب . والسيد المسنن من المعز والرئيس . والأصيد الملك والبعر الذي فيه داء
الصيّد وهلم جرّاً

ويقال مثل ذلك في بعض ما برز من اعضاء الحيوان كالناب والخرطوم
والانف والقرون فهي وان كانت مما قد يستهان به الآن لم يوضع اكثرها في
الكلام عن الناس الا للرفة والسيادة . فاذا راجعت كتب اللغة قرأت : الخراطيم
اسياد القوم . انياب القوم ساداتهم . ومنه قول الشاعر

كنت لهم في الحدّثان نابا التي العدى وضيغاً وثأبا
ولم اكن هردبة وجأبا (اساس)

القرن السيد تشبيهاً بقرن الثور لبروزه . انف القوم سيدهم ومنه قول الحطيئة في
بني انف الناقة

قومهم الانف والاذناب غيرهم ومن يساوي بأنف الناقة الذنبا
ولا عبرة بما قيل ان العرب كانت تعين بني انف الناقة بذلك اللقب

وليس النعت بهذه الاوصاف مما خُص به بنو الجاهلية بشعرهم بل اتضل منه شيء بشعراء التابعين والمولدين حتى انه لا يندران نرى شيئاً من هذه الالفاظ في كلام المؤرخين كقول العتبي في السلطان محمود بن سبكتكين واقبل كالفعل الفتيق . ولا تكاد تجد مؤرخاً لا يقول قول ابن خلدون : وكان فحل ذلك الشول وكبش تلك الكتائب الخ . واثال هذه الالفاظ لا تثقل على مسمع العربي حتى يومنا . بل لا يزال بعضها مما يحلى به جيد الكلام

واننا بهذا الاعتبار نقسم هذه الالفاظ الى اربعة اقسام : ما أهملت حقيقته وبجازه كالتَّوَّ والقَبَّ فلا نرى من يستعملها لانسان ولا لحيوان وما بقيت حقيقته وبجازه كالفعل والكبش فاما وان كانا موضوعين للحيوان فقد يوصف بهما الانسان وصف تكريم فنقول هو فحل من فحول الشعراء وكبش من كباش العبياء

وما أهملت حقيقته وبقي بجازه كالجَدَّع عند العامة في مصر فهي انما تستعمل للاطراء وان كانت لا تزال على معناها الوضعي في اماكن اخرى وما أهمل بجازه وبقيت حقيقته كالثور والحمار وهو اكثرها . فما منا من يرضى ان يلقب حماراً ولو قيل له ذلك كان لقب مروان بن محمد الخليفة الاموي الحارم لقب به على ما اجمع المؤرخون لصدقه ورباطة جأشه وشجاعته . قال القرماني : ويقال في المثل فلان اصبر من حمار في الحروب . وهو ايضاً اللقب الذي لقب به يعقوب ابنه يسأكر في التوراة . وليس من يسره ان يكنى بالثور وان كانت تلك كنية عمرو بن معدى كرب سيد العرب . وما من احد يرنح ان يقال له انف الناقة وان وضع الحطيفة ذلك اللقب موضع رفة واجلال . وقد نأبى ان يعرف احدنا بالجلل وان عُرِف به ابن عم النبي حمزة بن عبد المطلب . على اننا من وجه آخر لا نرى غضاً من قدر من يلقب بالسرطان وان كان ذلك لقب الذئب او يكنى بأبي خالد وان كانت تلك كنية الكلب

مزية العربية على لغات الافرنج في هذا الباب

لما كنت قد آليت على نفسي ان لا احرف الكلام عن مواضعه وان لا اعث بوصف او تشبيه فأميل به عن اصله الوضعي تفادياً من ثقل على الآذان عمدت الى نهج يفي بالمرامين: استبقاء الاصل على وضعه وبذ الالفاظ التي باتت بعرف الحضارة من باب الحوشي الساقط في المدح فلا يمدح بها كبير ولا صغير. وفي لغتنا والحمد لله متسع فسيح لمثل هذا المجال بخلاف لغات الافرنج التي لا تعاد لكتابتها عن استعمال اللفظة بعينها والا اضطرروا الى تبديلها او اغفالها اصلاً

فاذا عرض لي مثلاً تشبيه رجل باسلي بالخنزير الذكر بنسج لي باب في كتب اللغة لانتقاء كلمة اخرى فاقول الرث او الخرنوص فلا اغير شيئاً من المعنى واكتفى مؤونة أئمة القارى. واذا اضطرت الى استعمال لفظة الحمار بمقام المدح وهو تشبيه شبه به اياس البطل الباسل عمدت الى كلمة اخرى فقلت « الجأب » وهو الحمار بعينه

واذا آتست رنة خشنة على الأذن بذكر الكلاب بهذا اللفظ قلت « النواص » و « الغصف » و « الضراء » وما اشبه

واذا خشيت هجنة بان يقال فطيع البقر قلت « الصوار » وهو هو ولزيادة الايضاح اضرب لك مثلاً واحداً مما ستري اشباهه بمطالعة الليادة : اطراً الشاعر بسالة هكطور (ص : ٥٣٦) في واقعة فشبهه وهو يتمقب الاعداء بالكلب الذي يتأثر الاسد المدعور او الخنزير البري فقال :

وهكطور صدر الجيش بجري ويلغب ويكسأ في الاردان من يتمقب
كأغصف هول قد تأثر ضيفاً نذعر او خرنوص بر يككب
فاراني لو قلت : ككلب كبير قد تأثر ضيفاً او خنزيراً الخ لما زدت على المعنى ولا انقصت ولكن شتان ما وقع هذا التعبير وما ذاك على السامع

الخاتمة

قال بعضهم :

للسادة الشعراء فضلٌ ثابتٌ ولم مقامٌ شامخٌ ومكانٌ
 وم سلاطين الكلام ألا ترى كلَّ امرئٍ منهم له دِوانٌ
 نظر صاحب هذين البيتين الى الشعر العربي من حيث انه دليل البلاء
 وحجة اللغويين وشاهد الخطأ والصواب . ولكنه لو أراد الزيادة لقال ان سلطان
 الشعراء يمتدُّ الى ما فوق ذلك . وان الشعر ربحانة النفوس ومبدد البؤوس .
 وقد كان في غابر العهد سبيل الحكمة ومنهل النعمة ونوط الفخار ومطمح الابصار .
 وان شاعراً واحداً كان يرفع قبيلةً ويخفضها ويمرّها وبذلّها فينهذ كلامه في
 الاحساس ولا تموز احكام الامر المستبد بالناس . وان سلطة الشعراء في الجاهلية
 كانت تباري سلطة الرؤساء . والقبائل تستثمر سلائق النيران أبا نبع تسمت فيها
 الذكاء استثار بني الحضارة كل غرس زهية وفرع زكي . فاذا نبغ فتاه وقال
 قولاً نافذاً تباشر به الكهول والشبان والشيوخ والولدان وخرجت النساء بالزاهر
 وغنبن ورقصن وقلن اذف الفرج فقد صينت الاعراض وحفظت الانساب
 وارتفعت الاحساب وحُمي الدمار وتخلدت الآثار . وطازت البشائر فأقبلت الوفود
 من سائر العشائر كأنهم في يوم نصرٍ عظيم

ولعلنا قال شاعرهم ابياتاً فتناقلتها الركبان واومضت وميض البرق فبهريت
 الانظار وقضت الاوطار . — قالوا ان الاعشى الاكبر كان يأتي سوق عكاظ
 في كل عام فيتجاذبه الناس في الطريق للضيافة طمعاً بهدحه اياهم في سوق عكاظ
 فمرّ يوماً ببني كلاب وكان فيهم رجل يقال له الملقى فقير الحال ضيق المعاش
 وله ثمانى بنات لا يخطبهن احد لمكان ابيهن من الفقر ونحول الذكرك . فقالت له
 امرأته ما يمنعك عن التعرض لهذا الشاعر وإكرامه فما رأيت احداً اكرمه الا

واكسبه خيراً فقال ويحك ما عندي الا ناقي فقالت يخلفها الله عليك . فتلقاه
 قبل ان يسبق اليه احد من الناس . وكان الاعشى كفيفاً يقوده ابنه فاخذ
 المحلق بخطام الناقة فقال الاعشى من هذا الذي غلبنا على الخطام فقال فتى
 شريف كريم . ثم اتى به منزله واكرمه ونحر الناقة وجعلت البنات يدرن حوله
 ويبالغن في خدمته فقال ما هذه الجواري حولي فقال المحلق بنات اخيك وهن
 ثمان نصيبن قليل فقال الاعشى هل لك حاجة فقال تشيد بذكري فلعلني اُشهر
 فتخطب بناقي فنهض الاعشى من عنده ولم يقل شيئاً فلما وافى سوق عكاظ انشد
 قصيدته التي انشأها في مدحه وهي التي يقول فيها

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة الى ضوء نار بالبقاع يخرق
 تشب لمقرورين يصطليانها وبات على النار الندى والمحاق

فاشتهرت القصيدة ولم تمض على المحلق سنة حتى زوّج بناته وبسرت حاله
 وان في كتب العرب من اخبار شعراء الجاهلية ما لا تُعد هذه الرواية بجانبه
 امراً خطيراً

وكان المولّدون مع تبذل الجمل الغفير منهم وانحطاط منزلاتهم عن شعراء
 الجاهلية ينالون بشعرهم ابد المطالب . — روى ابن خلكان انه قدم بين يدي
 المأمون نصر بن منيع وكان قد امر بضرب عنقه فقال نصر يا امير المؤمنين اسمع
 مني كلمات اقولها فقال قل فانشأ يقول :

زعموا بان الصقر صاد مرة عصفور برّ سافه التقدير
 فتكلم العصفور تحت جناحه والصقر منقض عليه بطير
 اني لمثلك ما اقم لقمة ولئن شويت فاني لحقير
 فتهاون الطير المدل بصيده كرمًا وافلت ذلك العصفور

فعفا المأمون عنه

واما الاموال التي كان يستدرها الشعراء بشعرهم فما فوق التهور . وم
 وان كانوا يجازون بها احياناً بمحاذرة من هجوم والجمام لالستهم فكثيراً

ما كانوا ينالونها بما اطربوا وارقصوا وخبثوا العقول . — ذكروا ان ابن باجة
التجبي آخر فلاسفة الاسلام بالاندلس اشد ابا بكر الصخراوي صاحب سرقسطة
موثقا في مدحه فاطر به حتى كاد يفقده الرشد فما بلغ قوله :

عقد الله آية النصر لأمير العلا ابي بكر

حتى شق الممدوح ثوبه من شدة الطرب وحلف لا يمشي ابن باجة الا على
الذهب نفاق الشاعر عاقبة الامر فجعل في نعله ذنبا ومشى عليه

تلك كانت منزلة الشعراء عند العرب في سالف الزمان وتلك هي ايضا
منزلتهم في سائر الملل . فان في اخبار شعراء الفرس ما يفاهي اخبار شعراء
العرب . وقد علمت ان اليونان ما زالوا يصعدون بهوميروس حتى اخرجوه من
مصاف البشر واحلوه بين الآلهة وبنوا له المعابد . وكانوا يتماكظون ويتنافرون
ويتنافسون ويتعسسون على نحو ما كان يفعل العرب في سوق عكاظ وشعراؤهم
في كل ذلك كحيل الرهان « فالسابق السابق منها الجواد » . — ذكروا ان
فنداروس الشاعر الموسيقي الذي نبغ بعد هوميروس باربعة قرون اذا جلس
للانشاد في الحفلات الاوليية وغيرها تحس له الشعب وشقت نعرتهم كبعد السماء
وكللوه باكاليل الظفر . فلما مات اخذوا الكرسي الذي كان يجلس عليه في موقف
الانشاد ووضعوه بين انصاب الآلهة يشاد له اهل ثيبس هيكلا واقاموا له
فيه نصبا وهو بعد حي . ولما اكتسح الاسكندر بلدة ثيبس ودمر بيوتها أمر
ان لا يُمس بيت فنداروس بسوء

وكم من شاعر اثار خواطر أمة بأسرها فاستنفر واجيب واستصرخ فتألبت
له جيوش الكلام فغلبت كنائب الحسام . وفي الاثر ان صاحب الشريعة الاسلامية
كان ينصب لحسان بن ثابت منبرا في المسجد يقوم عليه ينافع عنه فكان
ذلك على قريش اشد من وقع النبل . وان حسنا قال له « لاسلك منهم (اي من
قريش) سلا الشعرة من العجين ولا فريتهم فري الاديم » فصب على قريش من
هجائه شأيب شر فقال له « شفيت يا حسان واشفيت » ثم قال « حسان حاجز

بيننا وبين المنافقين»

وليس العهد ببعيد بما كان من نفوذ سهام الشعر البليغ في بلاد المغرب من عهد بيزن إلى هذه الايام
ولسنا بآملين في هذا العصر ان يشب شعراؤنا الى تلك المنصة الشاخصة وانما نطمح ان يظلوا سائرين بنهضتهم سيرا حثيثا ويمجروا تيار التزقي فلا يطدو عليهم . ولم في ذلك الفوز والفلاح والامة الخير والصلاح

قال ابو بكر الخوارزمي « من روى حوليات زهير واعذارات النابغة وحماسيات عنزة واهاجي الحطيئة وهاشميات الكيت ونقائض جرير وخمريات ابي نواس وتشبيهات ابن المعتز وزهریات ابي العتاهية ومراثي ابي تمام ومدائح البحتري وروضيات المنوبري ولطائف كشاجم ولم يخرج الى الشعر فلا اشبه الله قرنه » وهو كما نرى قول متحمس مولع بالشعر وقد انالته الفطرة منه حظا وافرا . والا فالخروج الى الشعر متعذرا على من لم يكن ذلك في طبعه . على ان هذا القول صادق على من كان الشعر في سجيته فان مطالعة نفيس الشعر تشخذ الذهن وتهذب اللفظ وتحلو المعنى فتستقيم بذلك وجهة الشاعر المطبوع واللغة العربية شعربة بطبعها لتفرع مفرداتها وتنوع اشتقاقاتها القياسية على اسلوب لا يرى له مثيل في اللغات الآرية . والقواري مزدحمة فيها ازدهاما يسهل النظم . وهي بخلاف ما يزعم بعض الاعاجم جزلة التركيب تحكمة الانجم . وفيها من طرق الحذف والتقدير والتقديم والتأخير ما ينفس معه المجال للشاعر لصوغ عبارته على قوالب شتى . وتلك مزينة تمسح عليها اللغة في الشعر وان عيبت في النثر حيث يقصد الجري على نمط واحد جلي . وهي على الجملة متسعة للشعر اكثر منها للنثر . فشمعها منذ القدم ارفع طبقة من معظم نثرها وجيده اسهل منالا من جيد النثر حتى لقد تجد النثر شمرا في كثير من الاحوال

ولا شك ان الرمان قد طوى كثيراً من الفاظها الوضعية . ولكن ما بقي منها فوق حاجة الشعراء إتأدية المعاني الفطرية والافكار البديهية والادوصاف الخلقية والحقائق الحكيمية وسائر ما توخى تدوينه قدماء الشعراء كهوميروس وفنداروس وفرجيليوس وهوراس . ففي بهذا المعنى لا تقصر بشيء عن لغة الالباذة اليونانية المشهورة بجزالة تركيبها ورفقتها والسجاءها وإحكام وضع المفردات فيها ولا ترجح اليونانية على العربية الا باتساعها لمشاكلة الالفاظ للمعاني وتوفر اسباب التخت فيها للصوغ الالفاظ المركبة . وفي ما سوى ذلك لا اخال لها رجحاناً بل ترجح العربية في اتساع المفردات وتشعب طرق التركيب والخروج بقياس الاشتقاقات الى ما لا نهاية له من المعاني

واقدر بدا لي اثناء التعريب من ثروة العربية في الالفاظ الوضعية القديمة ما اغتاني عن الانحراف بالمعنى على نحو ما اضطرر اليه بعض نقلة الافرنج على ما تقدم في الفصل السابق . ورأيت من الماثلة بين اللتين في دقة الوضع ما يدهش له الناظم والناثر . وينبئك ذلك ان العرب لم يغفلوا وضع شيء من الالفاظ الدالة على جميع مطالعاتهم وتحسوساتهم حتى اصبحت مفردات اللغة في زمنهم رايية على حاجة التعبير ولا سيما في الحسيات . وما هذا النقص البادي الان في إحكام التعبير وخصوصاً في المنويات الانتيجة إهمال الخلف اقتفاء آثار السلف

وهو معلوم ان الالباذة أنظمت في زمن كانت احوال المعاش فيه قريية لاحواله بين قدماء العرب . ولهذا كان على العرب ان يقابل معانيها بما رادها من لغة العرب بلا انحراف ولا تأويل واللغة منسمة لذلك . فاذا وصف لناظم السلاح وهو سلاح العرب ففي اللغة لفظة بل الفاظ للدلالة على كل ما قال من الشككة اي السلاح الكامل الى الحبر . فلا يُعدم الناقل وسيلة للتعبير عن كل ما ذكر من السيوف والمدى ومناصلها واغادها . والرياح والزجاج وكوبها واستنيتها وصعدها . والدلاص والابدان والدروع وحلقها وزردها وتروها . والحوذ

والتراثك والمغافر ويضها وقوانسها وعذباتها . والتروس والجواشن وحرايتها وحمائلها
وهذائها . والقسي وما لازمها من النبل المقدّذ والسهم المريش والوتر والفوق
والفرّض والسرية والنبزك . وسائر ما أهمل او كاد يُهمل من معدّات العجوم
والدفاع كالقأس والمخدفة والفتّيس — واذا اتى على ذكر الخيل فما من لغة
اوسع من العربية بأوصافها وتمثيل عدوها وجربها وتطبيقها وتقريبها وحضرها
وارتفاعها — واذا ذكر الحروب وعليها مدار الالباذة فلم تفتن امة فوق العرب
بوصف القتال والنزال والمجاوله والمصاوله والمشق والرشق والحذف والقذف والماصمة
والنفع بالمتاصل والضرب بالمغالول والوخز بالعوامل . وقس على ذلك جميع ما تناول
وصف الاحوال المعاشية والروابط القومية والاحكام العرفية والمناظر الطبيعية من
وما دى وهضاب ومطير وسحاب وبحر وبرّ وزرع وغرع وماء وهواء وارض
وسماء . — بل قد تجد خزانة العربية اجمع وثروتها اوسع بما حوت من الالفاظ
المفردة التي لا يعبر عنها في لغات الاعاجم الا بعبارات . وفي موردك لك الآف
امثلة مما عُبّر عنه في اليونانية بكلمتين فأكثر ويتيسر رده في النقل العربي
الى كلمة واحدة في الافعال والاوصاف والموصوفات . ذلك كالتسلب للجواد الطويل .
والاجيد للجواد الطويل العنق . والاجرد للفرس القصير الشعر . والقبّ للغيل الضامرة
والقياديد للغيل الطويلة . والتبييع والتبيعة لولد البقرة لحول واحد والحولي لابن
سنة من ذوات الحوافر وغيرها . والسديس للذي اتم خمس سنين . والجبهاء للعريضة
الجبهة . والأكبس لمن اقبلت جبهته وادبرت هامته من الناس . والطسور
للقوس البعيدة الرمي . والزجاج والمطارد للرماح القصيرة . والثلة لجماعة الغنم والمز .
والزعيل للقطعة من الخيل . والصوار لقطيع البقر . والدسيع لفرز العنق من الكاهل
والوتيرة لما بين المنخرين . والبأديل للغم بين الابط والتندوة او لحم الثدي . وصرح
بمعنى رمى ولم يُصِب وامثال ذلك مما ستري منه في الالباذة شيئاً كثيراً
ومن جميل المشاكلة بين اليونانية والعربية في الاصل والتعريب على نمط
واحد جري بعض الالفاظ مجرى واحداً باللغتين في الحقيقة والمجاز . فمن ذلك

ما تشترك فيه . معهما لغات كثيرة كإطلاق لفظة (γερωντες) الشيوخ بطريق
الجاز على الزعماء وكبار القوم . ومنه ما لا يكاد يبعداها الى غيرها كاستعمال
لفظة (χαιτη) للشعر وورق الشجر ويقابلها الفرع بالعربية
وبين اليونانية والعربية فرق كبير في نسج العبارات وتركيب الجمل من
حيث التقديم والتأخير وصيغ الاشتقاق والجمع والحروف والنحت وتركيب الاسماء
ولكن نهج كل لغة حسن في بابه واسباب الفصاحة متيسرة لابناء كل لغة اذا
احكموا الرصف على نهجهم

ولكن للعربية مزيين في مفرداتها تقصر اليونانية وسائر اللغات عن مجاراتها
فيها . وهما كثرة المترادفات في الالفاظ الدالة على المعنى الواحد وتعدد المعاني
للفظة الواحدة . فقد ذكروا عشرات ومئات من الالفاظ الموضوعة لسميات
مميّنة من الحيوان كالاسد والحية والبعير والناقة والفرس والثور والكلب والحر .
والما كولات كالتمر واللبن والعسل . والمشروبات كالماء والخمر . والسلاح كالسيف والرمح .
والصفات كالطويل والقصير والكبير والصغير والشجاع والجبان والكريم والنجيل .
وغير ذلك من مألوفهم كالنور والظلام والشمس والقمر والسحاب والمطر والتراب .
والحجر . ولم مثل ذلك في الافعال . فقد عدّ احدهم اكثر من الف فعل
يمكن اطلاقها على معنى واحد . ويقابل ذلك تعدد معاني اللفظ الواحد فاذا
تصفحتم معاجم اللغة وقرأت باب افعال والحال والمعين والعجز وامثالها تولاك
الحجب لكثرة معاني كل كلمة منها

ولقد يعلم اللبيب ان كل تلك المترادفات لم توضع في اللغة على نية الوضع بل وقع ذلك
اتفاقاً : إما لمنقول عن الاعاجم . وإما لاختلاف المدلولات في لغات القبائل المتباعدة .
وإما للمعنى مقصودة بتغيير بها المعنى تغييراً طفيفاً لا يشعر به لوحدة المسمى .
فالخمر مثلاً انما سميّت كذلك لاختيار موادها فاذا قيل الراح لمع الى الروح
والارتياح . او الرحيق نُظر الى صفاتها وطيب رائحتها . او السلسيل قصدت
سهولة مساعها وهلم جرا . ولكن هذه المميزات فقدت في الاستعمال واصبحت

المترادفات متشابهة يقوم كل منها مقام الآخر مع انه لا يوجد سبب في الاصل. ترادف تام في مفردات اللغة الا في ما صدر عن لغتين لقييلتين مختلفتين كالليث والورد للاسد او نقل من لغة الاعاجم الى العربية مع بقاء اللفظ العربي فيها كالينا من اليونانية للفرضة البحرية.

وان لناظم فائدة من هذا الاتساع اذ يتيسر له ان يلنقط من هذه المترادفات ما وافق بحره وقافيته . فقد اتفق لي اثناء التعريب ان استعملت كثيراً من اسماء الاسد كالليث والغضنفر والضغام والقسورة والمزبر والورد والضيمن . ولكن هذه الفائدة لا تذكر في جنب ما يلقبه هذا التراكم من العثرات في سبيل المنشئ النائر والطالب الراغب في الاحاطة باوايد اللغة وشواردها حتى لقد يرتبك بها الشاعر في بعض الاحوال . ومن ذا الذي تحفه الدعوى الى زعم الاسام يجميع هذه المترادفات بل اي حافظة تعي خمسة اسم للاسد ومثني للحية ومثني وخمسين للناقة . وما عسى ان تكون الجدوى من وجود اربعمئة اسم للداهية . ونعم القول قول الثعالي « ان تكاثر اسماء الدواهي من الدواهي » . فامثال هذه المترادفات عبث ثقيل على كاهل اللغة . فانما يحسن حفظها في مطبوعات المعاجم للرجوع اليها في استجلاء غوامض الكلام والشعر القديم ضناً بذلك الذخر الثمين ان ينشئت وتذروه عوامل الغموض والنسيان . ولكنه لا يجدر بالطلاب والكتاب ان يشبهوا بوحشيتها ومهمليتها لا تستغلق عبارتهم وتجهل قريحتهم على غير جدوى فيستعبون ويتعبون وثقل روحهم على روح المطالع

وقد هجرت للعرب منذ القديم عادة حميدة في تجارة الزمان وسنن العايعة واهمال ما تقدم العهد على نبذه . فكانوا يتحاشون في شعرهم ونثرهم ايراد الالفاظ المهمة في عصرهم . وفي روايات الاحممي كثير من كلام الاعراب المتوغلين في البداهة مما لم يكن يفهمه اهل زمانه لاهمال النطق به والعدول عنه الى مرادف اسهل واطلى . وايضاً فانهم لم يكونوا يكثر من استعمال الالفاظ الدالة على معاني مختلفة الا في ما شاع من معانيها مطّرحين ما غمض منها او احتاج الى

تأويل . ولهذا كان شعر المولدين اقرب مما سواه الى فهمنا لقرب عهده منا وخلوه من كثير من غوامض الكلام . ويتلوه شعر المخضرمين ثم شعر الجاهليين . فحسبنا ان نتبع خطتهم فنبلغ بالنظر الى عصرنا ما بلغوا بالنسبة الى عصرهم فيسقط ما قضى عليه الزمن بالسقوط ويبقى ما صلح للبقاء

يؤخذ مما مرّ ان العربية قد خُصّت بثروة في مفرداتها واتساع في طرق تعبيرها تفاخر بهما سائر اللغات القديمة والحديثة . ولكن تلك الثروة؛ وذلك الاتساع قد يسيان بالاهمال وسوء الاستعمال ضيقاً وفقراً . — فاذا شكونا الزيادة فما احرانا ان نشكو النقصان . فقد مرّت القرون وتماثرت الاجيال واللغات الحديثة جارية مع العلم والحضارة جري الشقيق الشقيق . والعربية كانت حتى هذا الزمن القريب ثابتة في موقف واحد كأن باب الاجتهاد قد أُوصد في وجهها وليس في سنن الخلق ما يوجب ذلك الايصاد بالنظر الى اللغة . بل اذا تتبعنا خطّة السلف من عهد الجاهليين الى انقضاء العصر العباسي رأينا أبناء هذه اللغة عاملين على تحجيصها وتهذيبها وابداعها كل ما بدر وصدر من نتاج العلم او افضته ملابسة سائر الملل . فكانت في مقدمة اللغات اتساعاً لكل مادّة ومعنى . ولم تكن تضيق عبارة ناظم ولا ناثر عن تأدية كل مفادٍ عصري . فما بالها وهي لا تزال ذلك البحر الزاخر تضيق الآن عن كثير من التعبيرات العلمية والصناعية والسياسية . ولا مسميات فيها لكثير من اسماء الاختراعات والآلات الحديثة والادوات البيتية . أفكان يزوى قدماء العرب بهذا النقص وقد وضعوا الاسماء العديدة لخشبات الصنّاع والقصور والدلاء وجبالها والنافّة وعقلها والملوك والزعماء والموارف والوفود والقيوج والاجلاف والاحزاب والانصار والطلائع والسرايا والعهود والمواثيق وسائر ما دعته الى حاجة . او عرف ولا ينحصر هذا النقص في ما تقدّم بل يمتدّ الى كثير من المعاني العصرية والتعبيرات الخيالية والتصورات التي استحدثها الزمان . فالعربية في حاجة الى نظير

في كل ذلك . وهو امرٌ طبيعيٌ لامناص منه اذ لو نُشر هوميروس وامروء القيس وأرادا تمثيل جميع هذه الاحوال بلفظيها لاضطربت عبارتهما واشكل عليها التعبير . ولو ركب الدابة سفينة البخار لما اجاد بوصفها اجادته بوصف سفينة البر اي ناقته الضاربة في قياي البيداء

وكان شغف العرب بلفتهم يدفعهم الى الحرص عليها ومباراة الاعاجم بها فما بدت لهم ثغرة الا وسدوها ولا حلية الا وزينوها بها حتى انه لم يكن ينقل على طباعهم ان ينقلوا اليها مئات من الالفاظ الاعجمية ثم ردوها اليهم ألوفاً مؤلفة . بل لم يستكنوا من التصرف ببعضها وصوغ الانعام منها وتصريفها وان كانت غير مصرفة في الاصل فقالوا « فلسفة » و « تفلسف » و « زنديق » و « تزندق » و « طراز » و « طرز » و « دهقان » و « دهقن وتدهقن »

ولكن هذا الاخذ عن الاعاجم لم يكن الا نزرًا يسيرًا بجانب ما استخرجوه من مفردات لغتهم وطبقوه على المعاني المستحدثة ولا سيما في العلوم التي لم يكن لها اثرٌ في الجاهلية والاصطلاحات التي اقتضاها انتظام احكامهم وتوغلهم في الحضارة . فانهم لما شرعوا في وضع العلوم العربية كالصرف والنحو والمعاني والبيان والبدع والعروض . والدينية كعلم الكلام والتفسير والفقه والحديث . والعلوم الطبيعية والرياضية وسائر ما نقلوه من كتب الاعاجم كالفلسفة والمنطق والطب والفلك والحساب والهندسة والجبر والكيمياء شرعوا في كل ذلك وليس في لغتهم الا شبه شيء مما يشير الى مدلولاته فما كان ايسر عليهم من ان يستخرجوا من لغتهم اوضاعاً استكملوا بها جميع مدلولات العلوم العربية والدينية ومعظم مدلولات العلوم الطبيعية واتسعت لغتهم لكل ذلك حتى عول الاعاجم على كثير من موضوعاتهم ونقلوها الى لغاتهم « كالجبر والسمت والقلي والنظير والكحول والسموم » ولما اتسعت احكام سياستهم وتغيرت طرق معاشهم وازدادت تصوراتهم بما رأوا وسمعوا وقرأوا وكتبوا وضعوا اسماً وانعالاً لكل ما استحدث لديهم من طعام وشراب ولباس ومتاع ونظام حكومة وطريق سياسة وتوسعوا في المعاني الشعرية

والاساليب الانشائية فكانت اللغة تجاريهم في النمو والسعة
وان اردت الثبوت من توسعهم في ذلك الاستحداث ندونك كتب اللغة فلا تكاد
تجد صفحة منها خالية من الاصطلاحات الموضوعية بعد الاسلام واليك امثلة منها :
الدَّور الحركة وعود الشيء الى ما كان عليه . . . والدَّور عند الحكماء
والمحكِّمين والصوفية هو توفُّف كلِّ من الشَّيْء على الآخر . . . وقياس الدَّور
عند المنطقيين هو ان تؤخذ نتيجة القياس وتضمُّ الى عكس احدى مقدمتيه . . .
والدَّور في الحيات عند الاطباء عبارة عن مجموع النوبة او زمانها . . . والدَّور
عند الموسيقيين القطعة المنقلة من الشغل . . . وعلم الادوار علم الموسيقى . . .
والدَّور عند الشعراء القطعة من الموشح ونحوه . . .
الدرجة المرقاة . . . ودرجات الامزجة عند الاطباء مراتبها في الشدة
والضعف . . . والدرجة عند اهل الجفر وارباب علم التفسير تطلق على حرفٍ من
حروف سطر التفسير . . . وعند اهل الهيئة تطلق على جزء من ٣٦٠ جزءاً من
منطقة الفلك . . . ودرجة الكوكب عندهم هي مكانه من فلك البروج ومنها
درجة طلوع الكوكب ودرجة غروب الكوكب ودرجة مَرِّ الكوكب . . .
الحال . . . عند الحكماء كيفية مختلفة بنفس او بذى نفس . . . وتطلق عند
الاطباء على ثلاثة امور الصعة والمرض والحال المتوسطة . . . وعند الاصوليين
على الاستصحاب . . . وعند السالكين على ما يرد على القلب من طرب او حزن
او بسط وقبض . . . وعند النحاة على نظير يدلُّ على الحال اي الزمان . . . وعند اهل
المعاني على الامر الداعي الى التكلم على وجه مخصوص . . .
وان من تصفح كتاب « التعريفات » او الكشاف للتهانوي يرى ان تعريف
قسمٍ من هذه الاصطلاحات قد اضطرَّ العلماء الى تأليف المجلدات الضخمة
والحاجة ام الاختراع . فلما كان ابنا هذه اللغة مشتغابن بها كانوا يقدمون
فشلقدم ويرلنون قارلني . فلما وقفوا وقفت وانحصرت سجلاتها في خزائن افراد
من العلماء معدودين . وما كان وفوقها ليجز فيها او نناد في معدن جوهرها

الوضّاح ولكنها عوامل قاهرة أصابت أهلها فافعدهم معظم هذا الزمان . وما هبّت نسائم النهضة الأخيرة في مصر وسوريا حتى أسرع أبناء القطارين الى استخراج تلك الكنوز الدفينة . ولو ثابعت التأليف العلمية التي فتح لها محمد علي وخلفاؤه ارحب الابواب وتواصل تدريس العلوم العالية بها . او لو لم تُصَبّ سوريا بما أصيبت به مصر من ضرورة التقاعد عن وضع المؤلفات العلمية لانتقال الدروس في تلك العلوم الى اللغات الاجنبية لما عوزنا الآن تعبير في علم من العلوم او فن من الفنون . ولما رأيت ناشئة هذا العصر اذا احتاجت الى تعبير علمي عمدت الى لسان اعجمي

ولكن تيار الافكار اذا اندفع بأمة قضّ السدود وتجاوز الحواجز . فان أبناء العربية شاعرون ان حياتهم بحياة لغتهم وقد علموا الآن انه لا مهرب لهم غير انفسهم على بلوغ امنيتهم منها . فاذا اخلطوا النية فلا حائل يصدّم عن النهوض بها . ولا نكر أنهم اعدوا الكرة فوثبوا بها وثبة جديدة في هذه الآونة المتأخرة وهذه تجلّاتهم وجرائدهم قد صعدت في مرقاة الكمال درجات لا عهد لهم بها قبل اعوام . واصبح الكثير من اصطلاحاتها الحديثة « كالجملة والجريدة والصحافة والمنطاد » مقبولا عند الخاصة والعامة كواضاح القدماء . وان في مؤلفات الكتّاب والادباء ما يعدّ لهم نفرا في هذا الموقف الحرج . واعظم من كل ذلك انتشار الميل الى المدارس الوطنية . فلغة البلاد لانيها الى مدارس البلاد

والشعر من توابع اللغة ولوازمها فاذا ارتفع شأن اللغة فبشر الشعراء . على ان مطلب الشعراء يختلف عن مطلب العلماء والمؤلفين . فحاجة الشاعر ايسر وموادها اوفر وذخيرته في دماغه فاذا اجلها العلم كانت له ولبنى لغته موردا صافيا ومنهلا عذبا . وفي الامّة والحمد لله فطاحل خرجوا عن جادة التقليد البحت فماالوا ميل الزمان واخذوا يسعون الى استجلاء المعنويات سعي رصفائهم الى استجلاء الحسيات . وما هي الا جولة واختها مدة من الزمن حتى تستعيد صناعتهم مقاهيها الشائخ وعجدها الباذخ.

التشيد الاول

خصام أخيل واغامنون

مُجملة

لما اكتسح الاغريق (اليونان) بلاد الطرواديين عاثوا في مدائنهم وسبوا نساءهم وحصروا اليون عاصمة بلادهم عشر سنوات على مامرّ بك في المقدمة . وكان في جملة السبايا فتاتان فتاتان تدعى احدهما خريسيديس (او خريسا) والاخرى بريسيديس (أو بريسا) أجمع زعماء الجيش على تملك الاولى منها لاغامنون ملك ملوكهم والثانية لأخيل ملك المرميدونة وبطل الاغريق . على الاطلاق . فحمل خريس كاهن أفلون ماغلا وعزمن المتاع والمال الى معسكر الاغريق فكاكأ لابنته خريسا وبذلك افتتح هوميروس أناشيدهُ

ففتح الزعماء الى اجابة ملتبس الكاهن الشيخ ولكن اغامنون أغلظ له المقال وردّه خائباً . فانثنى من حيث أتى يستغيث الاله افأون فأغاثه وضربهم بوباء « ففدّت جندهم تخرّ فلولا » فقتل عليهم الرزء ولم ينجوا له سبباً . فهاجت الحية صدر اخيل ودعاهم الى مجلس شورايم للمفاوضة في استطلاع كنه الامر . فلما اجتمعوا أنبأهم العراف كلخاس ان افلون ناقم منهم لحية كاهنه وانه لاسبيل الى استرضائه مالم يستلينوا قلب الشيخ برد فتاته اليه . فعظم الامر بادىء بدء على أغامنون ثم ما لبث ان لان واذعن لحكم كلخاس على ان تساق اليه سبية أخرى بدلاً منها . فعارضه اخيل واشتد الخصام بينهما حتى كاد اخيل يقتل باغامنون لولا ان اثنيا (الالهة الحكمة) هبطت من السماء وصدته قسراً . ثم توسط بينهما نسطور الحكيم اخماداً للفتنة فلم زادا الا احتداماً وارفض الجمع على غير وفاق واعتزل اخيل القتال

واما اغامنون فلم يزد الا اغتراراً والحزازاً بماله من السيطرة على سائر
الانصار فأمر بارسال خريسا الى ابيها وبعث قنبض على خريسا في
في خيمته في جملة ممالك . فشق الامر على اخيل و" " أمه ثيتيس (احدى
بنات الماء) فأسمعت صوت تفجعه من لجأ البحر فشقت العباب اليه واستقصته
الخبر ورقيت الى زفس أبي الآلهة تلمس الاخذ بيد أخيل والانتقام له من
الاغريق . فوعد زفس بخذلهم واعلاء شأن الطرواد الى ان يطيب أخيل نفساً .
فقطنت هيرا زوجة زفس لما جرى من الحديث بينه وبين ثيتيس وفي نفسها
حزازة على الطرواد فهبت بالاعتراض عليه فأوسعها وعيداً وزجراً وبادر هيفست
وسوى الخلاف وادار السلاف فظل الارباب في طرب ونعيم الى ان خيم الظلام
فتوسد كل مضجعه ونام

تستغرق وقائع هذا الشيد اثنين وعشرين يوماً تسعة ايام مدة الوباء ويوماً مدة
اجتماع الزعماء ونزاع الملكين واثني عشر يوماً مدة اقامة زفس بين الاثيوبية . ومجرى
الحوادث اولاً في معسكر الاغريق ثم في بلدة خريسا واخيراً في الالمب



فهرس الكتاب

صفحة	صفحة	اهدا الكتاب
٥	٣	الديباجة
		المقدمة
الزيادة	هويروس	
٣٢	٩	اسمه ولقبه
٣٣	١٠	نسبه
٣٥	١١	مولده ونشوءه
٣٦	١٢	مدرسته
٣٧	١٢	اسفاره
٤٠	١٣	شروعه في فرض الشعر
٤٢	١٣	ثقة اسفاره
٤٣	١٥	مرضه ووفاته
٤٤	١٦	فذلكه ما تقدم
٤٥	١٩	تاريخ ظهوره
٤٦	٢٠	منزله عند القدهاء
٤٧	٢٤	رأى المتأخرين فيه
٥٠	٢٥	قول العرب فيه
٥١	٢٨	منظوماته
٥١	٢٩	الاوذيسية
٥٣	٢٩	معارضة الاليزاة بالاوذيسية
٥٤	٣٠	سائر منظومه

صفحة	التعريب	صفحة	
		٥٦	فلسفتها وآدابها
		٥٦	سبب الریب فیها
٦٨	حكاية العرب	٥٧	الالیاذة ومعارف عصرها
٦٩	تعريب الاصل	٥٧	الالیاذة والتاریخ
٧٢	كتابة الشرح	٥٨	الالیاذة والجغرافیه
٧٤	المجم والمقدمة	٥٨	الالیاذة وسائر العلوم
٧٤	اصول التعريب	٥٩	الطب
٧٥	معربو العرب	٥٩	الفلك
٧٧	مسلك العرب فی تعريب الالیاذة	٥٩	الحرب
٧٨	المحافظة علی الاصل	٥٩	السیاسة والحكومة
٧٨	اجتناب الوحشی والحوشی	٦٠	الدین
٧٨	الانماط التي لامرأف لها فی العربیه	٦٠	الفنون وسائر الاعمال
٧٩	التراکیب الوصفیه	٦٠	الالیاذة والصنائع
٧٩	تعريب الاعلام	٦١	سبب حیاتها وخلودها
٨٠	تلاعب النساخ	٦٢	انتشارها ونقلها الى سائر اللغات
٨١	عوده الى تعريب الاعلام	٦٢	اللاتینیة
٨٣	الحروف التي لامقابل لها فی الیونانیة	٦٢	الهندیه والفارسیة
٨٣	العربیة " " " "	٦٣	السریانیة
٨٤	تنافر السین والثناء	٦٣	لغات الافونج
٨٤	الباء والهاء	٦٣	اغفال العرب نقلها الى لغتهم
٨٥	طریقة ابن خلدون	٦٤	الالیاذة والنصرانیة
٨٨	النبر	٦٥	الالیاذة والاسلام
٨٨	التصرف بالحروف والحركات	٦٦	نقل العرب
٨٩	الانماط العربیه من الیونانیة		
٨٩	النظم فی التعريب		

صفحة		صفحة	
٩٩	(التخفيف والتشديد)	٩٠	اوزان الشعر وابوابه
٩٩	(التحريك والتسكين)	٩١	(تناسب الاوزان والمعاني)
٩٩	(الاختلاس والاشباع)	٩١	(الطويل)
٩٩	(المسوغات الغريبة)	٩١	(البسيط)
٩٩	عيوب القافية وسنادها	٩٢	(الكامل)
	(الاكفاء والاجازة والاقواف)	٩٢	(الوافر)
٩٩	(والاصراف)	٩٣	(الخفيف)
١٠٠	(سناد التأسيس)	٩٣	(الرمل)
١٠٠	(سناد الاشباع)	٩٣	(السريع)
١٠٠	(سناد الردف)	٩٣	(المقارب)
١٠٠	(سناد التوجيه والحدو)	٩٣	(المتدارك)
١٠٠	تكرار القافية	٩٣	(الرجز)
١٠٠	التجنيس		(المضارع والمقتضب والمجث
١٠١	ضروب النظم في التعريب	٩٤	والهزج والمديد والمنسرح)
١٠٢	(التخاميس والاراجيز)	٩٤	القوافي
١٠٢	المثنى		القوافي والاوزان اليونانية
١٠٢	المربع	٩٤	والافرنجية
١٠٣	المثنى او المربع المسمط	٩٥	القوافي في لغة العرب
١٠٤	الموشح المثنى	٩٥	تناسب القوافي والمعاني
١٠٥	الموشح المردف	٩٦	القوافي الضيقة والثقيلة
١٠٥	المستطرد	٩٧	رنة القافية
١٠٦	مصرع المقارب	٩٧	جوازات الشعر
١٠٦	مصرع الرجز ومقفاه	٩٨	(المأنوس والمكروه)
	الالياذة والشعر العربي	٩٨	(الصرف ومنعه)
١٠٧	الشعر القديم	٩٩	(ألمد والقصر)

صفحة	صفحة
مناهج المولدين في ابواب الشعر	١٠٨ اصله
١٤٩ وفنونه واساليبه	١٠٩ طموسه
(التشطير والتخميس والمعنى	١٠٩ عكاظ
١٤٩ والغز والدؤيبات الفارسي)	١١٠ القرآن واغة قریش
١٥٠ (التاريخ الشعري)	مقابلة بين لغة قریش المضربة ولغة
١٥٠ (الموشح الاندلسي)	الاياذة اليونية وكيف عاشت
١٥٢ (الشعر العامي)	١١٣ الاولى وتلاشت الثانية
١٥٢ (المواليا)	اطوار الشعر العربي او طبقات الشعراء
(الزجل . عروض البلد . المزدوج	بالنظر الى ازمانهم ومزية كل طبقة
الكاري . الملمعة . الغزل . الزهيري	١١٥ منهم
١٥٢ (المعنى)	١١٦ النهضة الجاهلية
١٥٢ (الحكم والامثال)	الحلة الفاصل بين شعراء الجاهلية
١٥٦ علوم الادب عند المولدين	١١٧ والمخضرمين
١٥٦ العروض	الطبقة الاولى او شعراء الجاهلية
١٥٧ البدیع	(مدة هذه الطبقة ومزيتها وفحولها)
١٥٨ البيان	الطبقة الثانية او المخضرمون وشعراء
١٥٨ اطوار شعر المولدين ومزاياه	الدولة الاموية
١٦١ طبقة المحدثين او المتأخرين	(مزية هذه الطبقة ومدتها وفحولها)
١٦٢ الشعر المصري	١٣٦ الطبقة الثالثة . المولدون او شعراء
١٦٢ الملاحم او منظومات الشعر القصصي	عصر العباسيين
١٦٣ ضروب الشعر عند الافرنج	١٤٤ نظرة في شعر المولدين
١٦٥ ملاحم الاعاجم	(اقتضاب الوصف الشعري)
١٦٧ العرب	(التبذل في المدح)
نظرة في الجاهليتين جاهلية العرب	(ابتذال الغزل)
١٦٨ وجاهلية اليونان	١٤٧ (المعجون والإخماض)

١٩٣	(ثروتها والفاظها الوضعية)	١٧٠	ملاحم الجاهليين
	(الحقيقة والمجاز في بعض الفاظ	١٧٢	جمهرة اشعار العرب
١٩٤	الفتين)	١٧٤	ملاحم المولدين
	(الفرق بينهما في نسج العبارات ١٩٥	١٧٦	الحقيقة والمجاز
	(المترادفات وتعدد معاني اللفظ	١٧٦	التشبيه والكناية والاستعارة
١٩٥	(الواحد)	١٧٩	البدعيات
١٩٦	(الالفاظ المهملية)	١٨٠	النقل والسرقة وتوارد الخاطر
	(عجز العربية في تأدية المعاني		فعل الحضارة في استعجان المستحسن
١٩٧	الحديثة)	١٨٤	واستحسان المستعجن في التشبيه والمجاز
	(نقل الالفاظ الاعجمية واستحداث		مزينة العربية على لغات الإفرنج
١٩٨	(الالفاظ العربية)	١٨٨	في هذا الباب
	(نهج العرب وتوسهم في اللغة) ١٩٨		الخاتمة
١٩٩	(اصطلاحاتهم)		في الشعر واللغة
٢٠٠	(سبب وقوف اللغة)	١٨٩	(الشعراء)
	(النهضة الاخيرة ومستقبل اللغة	١٩٢	(اتساع العربية للشعر)
٢٠٠	والشعر)	١٩٣	(مقابلتها باليونانية)



۱۹۹۶ / ۴ / ۳۶۳...

قضايا وحوارات النهضة العربية نظرية الشعر

١- مقدمة ترجمة الياذة- سليمان البستاني

اتت ترجمة الياذة لسليمان البستاني، والصادرة في اللغة العربية للمرة الأولى عام ١٩٠٤ وكانها استدراك لنقص ثقافي عربي عمره أكثر من ألف عام على الأقل، ففي حين نقل المترجمون العرب في العصر العباسي كتاب الشعر، لأرسطو باكراً، فإنهم لم ينقلوا «الشعر» الذي بنى عليه أرسطو كتابه أو تنظيراته، وبطبيعة الحال فقد كانت «الياذة» إلى حانب الشعر التمثيلي اليوناني، من جملة التراث الشعري اليوناني الذي اعتمد أرسطو عليه في بناء نظريته في الشعر، والتي نقلت للعربية أكثر من مرة وشرحها أهم الفلاسفة امثال الفارابي وابن سينا وابن رشد.

لكن اهتمامنا هنا ليس متعلقاً بالياذة تحديداً، أو بترجمتها، بل هو يتوجه نحو المقدمة النقدية كبيرة الأهمية والتي كتبها سليمان البستاني (١٨٥٦-١٩٢٥) مصدراً بها ترجمة الياذة، والتي اداها البستاني شعرياً، مما جعل أكثر مقدمته يدور حول فن الشعر، وحول فهم البستاني لهذا الفن، ففي هذه المقدمة تكلم البستاني عن هوميروس وشعره والشعر اليوناني، وعن أسباب امتناع المترجمين العرب قديماً عن نقل هذا الشعر، وخصوصاً الياذة، معيداً ذلك الى وثية اليونان، والى اعتداد العرب بفنهم الشعري، وبعدها تكلم البستاني عن ترجمة الشعر، ثم بحث عن ملاحم شعرية عربية تقارب الياذة، ثم قارن بين الأوزان الشعرية العربية واليونانية، وخلال ذلك تحدث عن الشعر العربي القديم ونظريته، ثم قارب الحديث عن الشعراء المحدثين في عهده.

يصدر قريباً في سلسلة: قضايا وحوارات النهضة العربية :
مرحلة الاحياء والديوان. كتب مدرسة الديوان. مرحلة مجلة أبولو.
مرحلة مجلة شعر... وغيرها.

يشرف على السلسلة: محمد كامل الخطيب

طبع في مطابع وزارة الثقافة

دمشق ١٩٩٦

في الاصدار الميسر: ٣٤ ل.س.

سعر البغلة داخل الغمط

١٧ ل.س.